١

فصل الشتاء

الطبعة الأولى

١٤٤٣هـ - ٢٠٢١م

فصل الشتاء

تفكُّرٌ واعتبار وأحكامٌ وآداب

تأليف
عبد الله بن صالح الفوزان

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فهذا مؤلَّفٌ أودعته فصولًا تتعلق بفصل الشتاء: وقفات وتأملات في ليله ونهاره وبرده وأمطاره، وآيات الله فيه، وما يتعلق به من أحكام وآداب ووصايا ومواعظ(١).

ونظرًا لأهمية فصلي الشتاء والصيف في حياة الإنسان قديمًا وحديثًا في منطقة سكناه، وتنقله، فقد اهتم بهما العرب، وأظهروا خصائصهما وقسموهما إلى أوقات ذات صفات مناخية مميزة، وقاموا برصد وحساب، وكشفوا عن بعض الأيام ذات الدلالات المناخية المعتبرة، حتى اعتمدوا الأسجاع في طلوع النجوم، وربطوا بينها وبين الحالات التي ترافقها، وألَّفوا في ذلك تآليف متعددة في الأنواء والأزمنة وأوقات البرد والحر وما يدخل في هذا الباب.

وفي كل فصول السنة تذكرةٌ وعبرةٌ، وفي أيامه وساعاته موعظةٌ وذكرى، لكن لما كان فصل الشتاء هو أشد هذه الفصول ببرده وزمهريره وثلوجه، ترى الناس يستعدُّون له بما يناسبه من وسائل حفظ البدن من

(١) أصل هذا الكتاب محاضرة أُلقيت في محافظة الأسياح في القصيم، ليلة الثلاثاء ٢٨/ ٢/ ١٤٣٥هـ. ثم استمر البحث والمطالعة والزيادة ـ مقصورًا ذلك على أيام الشتاء ـ حتى صار ـ بتوفيق الله ـ كما ترى.

أضراره ومخاطره، وفيه من الأحكام والعبر والفقه ما ليس في غيره آثرت الحديث عنه.

ومن المعلوم أن فصل الشتاء يختلف من مكان لآخر في شدة برده ورياحه وأمطاره، بل قد يكون الاختلاف في القطر الواحد، لاتساعه، وفي هذا الكتاب ما هو عام لكل مكان، وفيه ما هو خاص ببلاد نجد، وما جاورها مما يأخذ صفتها وحكمها.

وقد رتبته على تمهيد، وثمانية فصول، وخاتمة.

أما التمهيد ففيه مطلبان:

المطلب الأول: في فصول السنة.

المطلب الثاني: في تعريف الشتاء وتصاريف الكلمة.

وأما الفصول فهي:

الفصل الأول: في فصل الشتاء تفكر واعتبار، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: في تعريف التفكر والاعتبار وفضلهما.

المطلب الثاني: ميادين التفكر والاعتبار في فصل الشتاء.

الفصل الثاني: من آيات الله في فصل الشتاء، وفيه ستة مطالب:

المطلب الأول: في شدة البرد.

المطلب الثاني: في السحاب.

المطلب الثالث: في البرق والرعد.

المطلب الرابع: في نعمة المطر.

المطلب الخامس: قوس قزح.

المطلب السادس: النبات في فصل الشتاء.

الفصل الثالث: من أحكام الشتاء الخاصة ببعض العبادات، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الأحكام المتعلقة بالطهارة، وفيه ستُّ مسائل:

المسألة الأولى: إسباغ الوضوء.

المسألة الثانية: الوضوء بالماء الساخن.

المسألة الثالثة: المسح على الخفين.

المسألة الرابعة: تنشيف الأعضاء بعد الوضوء أو الغسل.

المسألة الخامسة: التيمم لبرودة الماء.

المسألة السادسة: ما يصيب الثياب من الوحَل.

المطلب الثاني: الأحكام المتعلقة بالصلاة، وفيه تسع مسائل:

المسألة الأولى: المحافظة على صلاة الفجر.

المسألة الثانية: الجمع للمطر.

المسألة الثالثة: الصلاة في الرحال.

المسألة الرابعة: الجمع للبرد والرياح الشديدة والغبار.

المسألة الخامسة: الصلاة على الراحلة أو السيارة إذا خاف من تلوثه بالطين والبلل.

المسألة السادسة: استقبال النار في الصلاة.

المسألة السابعة: اللثام في الصلاة.

المسألة الثامنة: لبس القفازين في الصلاة.

المسألة التاسعة: صلاة الاستسقاء.

المطلب الثالث: من الأدعية والأذكار في فصل الشتاء.

١ ـ الدعاء عند اشتداد البرد.

٢ ـ الدعاء عند حصول الجدب.

٣ ـ الدعاء عند هيجان الريح.

٤ ـ الدعاء عند رؤية السحاب.

٥ ـ الدعاء عند سماع الرعد.

٦ ـ استحباب الدعاء بالبركة والنفع عند نزول المطر.

٧ ـ الدعاء وقت نزول المطر.

٨ ـ دعاء الاستصحاء.

الفصل الرابع: من أحكام الشتاء العامة، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: وجوب نسبة المطر إلى الله تعالى.

المطلب الثاني: استحباب التعرض للمطر.

المطلب الثالث: النزهة بعد نزول المطر.

الفصل الخامس: في التذكير بنعم الله وفضل الصدقة، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: من نعم الله تعالى في فصل الشتاء.

١ ـ نعمة المساكن.

٢ ـ نعمة اللباس.

٣ ـ نعمة الفرش والأغطية.

٤ ـ نعمة الأطعمة.

٥ ـ وسائل التدفئة.

٦ ـ وسائل تسخين الماء.

٧ ـ نعمة الصحة.

٨ ـ وسائل النقل.

المطلب الثاني: في فضل الصدقة في فصل الشتاء.

الفصل السادس: في الاستفادة من فصل الشتاء وما أُثر عن السَّلف في ذلك، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: ما جاء في أن الشتاء ربيع المؤمن.

المطلب الثاني: بعض ما أُثر عن السلف من أقوال في فصل الشتاء.

الفصل السابع: في المحافظة على الصحة والاحتماء عن المؤثرات، وفيه سبعة مطالب:

المطلب الأول: في الاحتياط في حفظ البدن من البرد.

المطلب الثاني: وجوب الاحتياط عند إيقاد النار.

المطلب الثالث: وجوب الاحتياط فيما يتعلق بوسائل التدفئة.

المطلب الرابع: في أطعمة الشتاء.

المطلب الخامس: شرب الماء في الشتاء.

المطلب السادس: في الاستحمام في فصل الشتاء.

المطلب السابع: من أمراض فصل الشتاء.

الفصل الثامن: في توقعات الأحوال الجوية.

خاتمة: فيما تنبغي مراعاته في رحلات فصل الشتاء.

ولا بد ـ قبل الختام ـ من التنبيه إلى أمور خمسة:

١ ـ أن فصول السنة الأربعة ـ كما سيأتي ـ متداخلة، ولهذا سيكون بعض ما يرد في هذا الكتاب مشتركًا، لا يخص فصل الشتاء، لكنه قد يكون فيه أوضح من غيره، والإضافة ـ كما يقول العلماء ـ قد تكون لأدنى ملابسة.

٢ ـ التوسع في المباحث المتعلقة بفصول السنة، والمظاهر الكونية من السحاب والبرق والرعد والمطر وتوابع ذلك غير وارد؛ لأن هذا من شأن أهل الاختصاص، وأنا لست منهم، ولذا اكتفيت من ذلك بشيء يسير بأسلوب واضح يحقق مقصود الكتاب ـ إن شاء الله ـ مستفيدًا في ـ الغالب ـ مما سطره يراع العلامة ابن القيم رحمه الله.

وقد عرضت شيئًا من مسائل هذا الكتاب على بعض أهل الاختصاص، فأفادوا ببعض الملحوظات ـ جزاهم الله خيرًا ـ وهم الدكتور خالد بن عبد الله العجاجي، والدكتور وليد الحقيل، والدكتور عبد الله المسند، والدكتور خالد بن صالح الزعاق.

٣ ـ قد يجد القارئ في بعض الموضوعات تعدد الاستدلال بالآيات القرآنية في الموضع الواحد، وذلك لأجل أن يتأمل القاري ما فيها من العبر والفوائد، فكل آية فيها من الفوائد والعبر ما ليس في الآية الأخرى.

٤ ـ عملتُ مقارنة في بعض الموضوعات بين زماننا هذا وما قبله مما أدركناه منذ خمسين عامًا أو تزيد، أو ما قبل ذلك مما علمناه؛ ليظهر الفرق بين نعم الله في هذا الزمن والحياة السابقة، مما يؤكد القيام بشكر نعم الله علينا، والأشياء تتميز بذكر أضدادها كما قال المتنبي:

وبِضِدِّهَا تَتَبَيَّنُ الأشْيَاءُ(١)

٥ ـ اعتمدت في بعض المواقيت التي ذكرتها على التأريخ الإفرنجي المسمَّى بالتأريخ الميلادي، لأنه أضبط من غيره، حيث إن

---

(١) انظر: «ديوان المتنبي مع الشرح المنسوب للعُكبري» (١/ ٢٢).

المواقيت فيه لا تتغير غالبًا، وإلا فالتأريخ الهجري هو تاريخنا الذي نعتز به، وكان الواجب في ذلك أن يعمل ـ في هذا الموضوع ـ بالتأريخ الهجري الشمسي، ففيه غُنية عن التأريخ الميلادي، فإن ذكر معه فلا بأس[(١)]، ثم إن أسلاف هذه الأمة العظيمة قد اعتمدوا التأريخ الهجري القمري وعملوا به طوال ثلاثة عشر قرنًا أو تزيد، ولم يضرهم ذلك، أو يفسد عليهم حساب الزمن، وضبط المواعيد على المدى البعيد، مع أنهم أحرصُ منا على استغلال الأوقات، والدقة في المواعيد[(٢)].

وأرجو من القارئ الكريم إن وقف على شيء من مواضع الخلل ألا يَضِنَّ عليَّ بما يقوِّم ذلك ويصلحه، فأنا معترف بالضعف والتقصير، والدين النصيحة، والمسلمون بخير ما تعاونوا.

أسأل الله تعالى أن يوفقنا للتأمل في دلائل قدرته، والتفكر في مخلوقاته، وأن يزيدنا من فضله، إنه سميع قريب مجيب.

وكتب
عبد الله بن صالح الفوزان
Alfuzan.net@gmail.com
في ١٨/٣/١٤٤٣هـ

(١) انظر: «كتاب الأنواء» لابن قتيبة ص(١٠٣)، «الأنواء والأزمنة» لابن عاصم ص(٦٥).

(٢) انظر: «بيان خطأ التاريخ الميلادي» ص(٨٩).

تمهيد

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: في فصول السنة.

المطلب الثاني: في تعريف الشتاء وتصاريف الكلمة.

المطلب الأول

في فصول السنة

خلق الله تعالى بقدرته الشاملة، وعلمه الواسع، وحكمته البالغة السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، وخلق الشمس والقمر، وأجرى الزمان، وجعله يتألف من ليل ونهار، يتعاقبان على الأرض؛ لتنتظم الحياة، وتقوم مصالح الخلق، يدبر ذلك بأمره، ويصرفه بقدره.

وقد جعل الله تعالى هذه الأرض تدور على فصول أربعة تابعة لاختلاف منازل الشمس؛ لأن الشمس ـ بقدرة الله تعالى ـ تقطع السماء في كل سنة شمسية، مذ حلت برأس برج من البروج إلى أن عادت إلى رأس ذلك البرج في السنة الثانية، وتقيم في كل برج شهرًا، ويسمى هذا الفلك فلك البروج، أو فلك الشمس، وهي اثنا عشر برجًا عند العرب وعند جميع الأمم على عدد شهور السنة، وهي مقياس لتحديد أزمنة السنة، أي: فصولها ومعرفة أوقات البرد والحر والاعتدال(١).

وقد جاء ذكر البروج السماوية في ثلاث آيات: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ﴾ [الحجر: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ [البروج: ١] والبروج: هي مجموعة النجوم التي تمر بها الشمس أثناء مسارها الظاهري في السماء على مدار

(١) انظر: «الأنواء والأزمنة» لابن عاصم ص(٢٤)، «علم الفلك في التراث العربي» ص(١٤٨).

السنة[١].

والفلك[٢]: هو المدار الذي عليه تتحرك وتسبح الأجرام السماوية وفق سنن إلٰهية، قال تعالى بعد ذكر الشمس والقمر والمنازل: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣].

وفصول السنة أربعة عند العرب وعند جميع الأمم، وإن كانوا يختلفون في تحديد بداية هذه الفصول، وتحديد أوقاتها، والسنة الشمسية منقسمة أرباعًا، كل فصل من الفصول ربع سنة، وهو ثلاثة أشهر، كما سيأتي في الكلام على الفصول الأربعة، ومجموع الأيام ثلاثمائة وخمسة وستون يومًا، وبها تستوفي الشمس فصول السنة، فإن جُعلت السنة اثني عشر شهرًا قمريًّا كانت أنقص من السنة الشمسية بأحد عشر يومًا على التقريب، فتصير شهورها لأجل ذلك دائرة في الفصول الأربعة غير مستقرة فيها، يكون الشهر منها في زمن شدة البرد، ثم يُرى بعد ذلك في زمن شدة الحر[٣].

والفصل: اسم جرى في كلام العرب وغيرهم، وسميت هذه الأزمنة فصولًا؛ لانقلاب الزمان فيها عن الزمان، والخروج من حر إلى برد، ومن برد إلى حر[٤].

وإليك بيانًا لفصول السنة الأربعة[٥]:

---

(١) انظر: «الأزمنة والأمكنة» للمرزوقي ص(١٢٦)، «تفسير ابن سعدي» ص(٤٣٠، ٩١٨)، «المدخل إلى الجغرافيا الطبيعية والبشرية» ص(٦٣).

(٢) أما علم الفلك أو علم الهيئة: فهو علم يُبحث فيه عن ظواهر الأجرام السماوية، ونواميس حركاتها المرئية والحقيقية ومقاديرها وأبعادها وخاصيتها الطبيعية. «علم الفلك في التراث الإسلامي» ص(٢٩).

(٣) انظر: «الأزمنة والأنواء» لابن الأجدابي ص(٤٣).

(٤) انظر: «الأنوار والأزمنة» لابن عاصم ص(٦٢).

(٥) يقول الجغرافيون: إن نصف الكرة الأرضية الجنوبي عكس حال نصف الكرة الشمالي في هذه الفصول. انظر: «المدخل إلى الجغرافيا الطبيعية والبشرية» ص(٧٩).

١ ـ **فصل الربيع**، وله ثلاثة بروج: الحَمَل، وعدد أيامه واحد وثلاثون يومًا، والثور، وعدد أيامه واحد وثلاثون يومًا، والجوزاء، وعدد أيامه واحد وثلاثون يومًا، ويبدأ مع أول العقرب الثالثة يوم «٨ مارس»، ويدخل فيه آخر العقارب، والحميمان، والذراعان، وله من النجوم: سعد السعود[1]، وسعد الأخبية، والفُرْغ المقدم، والفُرْغ المؤخر، والرشاء، وكل نجم ثلاثة عشر يومًا.

فإذا دخل فصل الربيع استوى الليل والنهار، ويسمى الاستواء الربيعي، فصار كل واحد منهما اثنتي عشرة ساعة، واعتدل الزمان، وطاب الهواء، وهب النسيم، وارتفعت الرطوبات إلى أعلى فروع الأشجار، وتلألأ الزهر، وأورق الشجر، واخضرت الأرض، ونُتجت البهائم، ودرت الضروع، وطاب عيش أهل الزمان، وأخذت الأرض زخرفها.

٢ ـ **فصل الصيف**، وبروجه: السرطان، وعدد أيامه واحد وثلاثون يومًا، والأسد، وعدد أيامه واحد وثلاثون يومًا، والسنبلة، وعدد أيامه واحد وثلاثون يومًا، وأوله بداية مربعانية الصيف يوم «٧ يونيو» ويدخل فيه ثلثا الثريا، والتويبع، والجوزاء، والمرزم، والكليبين، وله من النجوم: الثريا، والدَّبَران، والهقعة، والهَنْعة، والذراع، والنثرة، والطرفة، وكل نجم منها ثلاثة عشر يومًا.

فإذا دخل فصل الصيف تناهى طول النهار، وقِصَرُ الليل، ثم أخذ الليل في الزيادة، والنهار في النقصان، واشتد الحر، وسَخُنَ الهواء؛ لأن الشمس تكون في غاية ارتفاعها، وأدركت الثمار، وجفت الحبوب،

(١) انظر: في أسماء منازل القمر وتفصيلها «كتاب الأنواء» لابن قتيبة ص(١٦ ـ ٨٤)، «الأنواء والأزمنة» لابن عاصم ص(٢٥).

وقَلَّتِ الأنداء، وسمنت البهائم، واشتدت قوة الأبدان، وانتشرت الحيوانات على وجه الأرض، وطاب عيش أهل الزمان، وكثرت السموم، ونقصت الأنهار، ونضبت المياه، وأدرك الحصاد، ودرت الأخلاف، واتسع للناس القوت، وللطير الحب، وللبهائم العلف، وتكامل زخرف الأرض.

٣ ـ **الخريف**، وله ثلاثة بروج: الميزان، وعدد أيامه ثلاثون يومًا، والعقرب، وعدد أيامه ثلاثون يومًا، والقوس، وعدد أيامه ثلاثون يومًا، ويبدأ مع أول سهيل إلى نهاية الوسم، ويوافق أوله يوم «٦ سبتمبر»، وله من النجوم: الجبهة، والزُّبْرة، والصَّرْفة، والعَوَّاء، والسماك، والغَفْر، والزُّبَانى، وكل نجم ثلاثة عشر يومًا، إلا الجبهة فأربعة عشر.

فإذا دخل فصل الخريف استوى الليل والنهار الاستواء الثاني المعروف بالخريفي، ثم أخذ الليل في الزيادة، وكما ذكرنا أن الربيع زمان استواء الأشجار، ورُبُوِّ النبات، وظهور الأزهار، فبالخريف ذبول النبات، وتغير الأشجار، وسقوط أوراقها، فحينئذٍ برد الماء وهبت الشَّمال، وتغير الزمان، ونقصت المياه، ويبست أنواع النباتات، وماتت الهوام، وانحجزت الحشرات، وانصرف الطير والوحش لطلب البلدان الدفيئة، وادخر الناس قوت الشتاء، ودخلوا البيوت، وتغير الهواء لإقبال الشتاء.

٤ ـ **فصل الشتاء**، وبروجه: الجدي، وعدد أيامه ثلاثون يومًا، والدلو، وعدد أيامه ثلاثون يومًا، والحوت، وأيامه تسعة وعشرون يومًا، ويبدأ مع أول المربعانية يوم «٧ ديسمبر»، فيدخل فيه المربعانية، وشباط الأول والثاني، والعقرب الأولى والثانية، وله من النجوم: الإكليل، والقلب، والشولة، والنعايم، والبلدة، وسعد الذابح، وسعد بُلَع، وكل نجم ثلاثة عشر يومًا.

فإذا دخل فصل الشتاء تناهى طول الليل وقصر النهار، ثم أخذ النهار في الزيادة، والليل في النقصان، واشتد البرد، وخَشُنَ الهواء، وتعرت الأشجار عن الأوراق، وانحجزت الحيوانات في أطراف الأرض وكهوف الجبال من شدة البرد، وكثرة النَّدى، وضَعُفتْ قوى الأبدان، ومنع البرد الناس عن التصرف، وبرد الماء، وانقطع الذباب والبعوض، وعُدمت ذوات السموم من الهوام، وطاب الأكل والشرب، وهو زمان الراحة والاستمتاع، كما أن الصيف زمان الكَدِّ والتعب، وقد قيل: «من غلى دماغه في الصيف، غلى قدره في الشتاء»[١]، فإذا بلغت الشمس آخر الحوت انتهى فصل الشتاء، وأقبل الربيع مرة أخرى[٢].

---

(١) انظر: «كتاب الأنواء» لابن قتيبة ص(٦٠)، «تمثال الأمثال» (٢/ ٥٧١) وص(١٣٣) من هذا الكتاب، ومعناه: من جدَّ في الصيف في طلب الرزق وتحمل الحر حتى غلى دماغه، حَمِدَ العاقبة في الشتاء زمن البرد بما ادخر من المال، فطاب عيشه، وغلى قدره بلذيذ طعامه.

(٢) انظر: «كتاب الأنواء» لابن قتيبة ص(١٠٠)، «الأنواء والأزمنة» لابن عاصم ص(٥٧)، «الأزمنة والأنواء» لابن الأجدابي ص(٥٥، ٩٩)، «الأزمنة والأمكنة» للمرزوقي ص(١٢١)، «سرور النفس» ص(٢١٧)، «عجائب المخلوقات» للقزويني بهامش «حياة الحيوان الكبرى» (١/ ١٥٣)، «تقويم أم القرى»، «التقويم القطري» ص(٥٠).

المطلب الثاني

في تعريف الشتاء وتصاريف الكلمة

الشتاء أحد فصول السنة الأربعة ـ كما تقدم ـ، قال ابن فارس: «الشين والتاء والحرف المعتل أصل واحد لزمانٍ من الأزمنة»[(١)]. وهو جمعٌ واحده: شَتْوة، مثل: شَكْوة وشِكاء، نقله ابن فارس عن الخليل، وقال: «هذا قياس جيد»، ونقله الجوهري عن المبرد، وقيل: إنه اسم مفرد لا جمع، بمنزلة الصيف؛ لأنه أحد الفصول الأربعة، ولهذا جُمع على أشتية، وأما شتوة فليس مفردًا، وإنما هو مصدر: شتا بالمكان شتوًا، وشتوةً للمرة الواحدة، كما تقول: صاف بالمكان صيفًا وصيفة واحدة، ثم من جعله جمعًا قال في النسبة إليه: شَتْوي أو شَتَوي، رُدَّ إلى الواحد على غير قياس، ومن جعله مفردًا نسب إليه على لفظه، فقال: شِتائي أو شِتاوي.

ويقال: أشتى القوم: إذا دخلوا في الشتاء، وشتوا: إذا أصابهم الشتاء، قالت الخنساء في أخيها صخر:

وإِنَّ صَخْرًا لَوَالِينَا وسَيِّدُنَا … وإِنَّ صَخْرًا إِذَا نَشْتُو لَنحَّارُ[(٢)]

وشَتَوْنا بمكان كذا شتوًا من باب قتل، وتَشَتَّينا: أقمنا به شتاءً[(٣)]، وهذه مشاتينا: أي: منازلنا في الشتاء، وشتا اليومُ فهو شاتٍ من باب قال: إذا اشتد برده، وهذا الشيء يُشَتِّيني، أي: يكفيني لِشتائي، قال الراجز:

---

(١) «معجم مقاييس اللغة» (٣/ ٢٤٥).

(٢) «ديوان الخنساء» ص(٤٨).

(٣) «معجم مقاييس اللغة» (٣/ ٢٤٥).

مَـنْ يَـكُ ذَا بَـتٍّ فَـهَـذَا بَـتِّـي
مُـقَـيِّـظٌ مُـصَـيِّـفٌ مُـشَـتِّـي
تَـخِـذْتُـهُ مِـنْ نَـعَـجَـاتٍ سِـتٍّ[(١)]

والشَّتِيُّ والشَّتوي: مطر الشتاء، قال النَّمِرُ بنُ تَوْلَب يصف روضة:

عَزَبَتْ وبَاكَرَهَا الشَّتِيُّ بديمةٍ ... وَطْفَاءَ تملؤها إلى أصبارها[(٢)]

والموضع: المَشْتَاةُ والمَشتى[(٣)]، قال طَرَفَةُ:

نَحْنُ فِي المَشْتَاةِ نَدْعُو الجَفَلَى ... لَا تَـرَى الآدِبَ فِـيْـنَـا يَـنْـتَـقِـرْ[(٤)]

وقال الأعشى:

تَبِيتُونَ فِي المَشْتَى مِلَاءً بُطُونُكُمْ ... وَجَاراتُكُمْ غَرْثَى يبِتْنَ خَمَائِصَا[(٥)]

---

(١) هذا الرجز من شواهد النحاة في آخر باب المبتدأ والخبر. انظر: «الصحاح» (٦/ ٢٣٨٩)، «شرح ابن عقيل بحاشية محمد محيي الدين» (١/ ٢٥٧). والشاعر يصف كساءً من صوف، وأنه إذا كان لأحد من الناس كساءٌ، فإن لي كساءً أكتفي به في زمن القيظ والصيف والشتاء، يعني: أنه يكفيه الدهر كله، وأنه أخذ صوفه الذي نسج منه من نعجات ست.

(٢) «ديوانه» ص(٦٩) وفيه: «وباكرها السَّمِيُّ» بالسين المهملة، وهو المطر، والمثبت من كتب اللغة كالصحاح والتهذيب والجمهرة وغيرها.
وقوله: «عزبت» أي: لا يرعاها أحد، والديمة: المطر الدائم ليس فيه رعد ولا برق. والوطفاء: الديمة السحُّ الحثيثة طال مطرها أو قصر، وأصبارها: أعلى نواحيها.

(٣) انظر: «كتاب العين» (٦/ ٢٧٨)، «الصحاح» (٦/ ٢٣٨٩)، «تهذيب اللغة» (١١/ ٣٩٦)، «اللسان» (١٤/ ٤٢١)، «المصباح المنير» ص(٣٠٤ ـ ٣٠٥).

(٤) «ديوانه» ص(٥٥). والجفلى: الدعوة العامة، وضدها النَّقَرى، وهي: أن يخُص الآدِبُ، أي: الداعي إلى الطعام، لا أن يعم.

(٥) «ديوانه» ص(١٩٩)، وفي طبعة دار صعب. بيروت ص(١٩٣): «وجاراتكم جوعى». و«غرثى»: فعلى من غَرِث يَغْرَثُ غَرَثًا فهو غرثان: إذا جاع. والخمائص: جمع الخميص، وهو: الجائع الضامر البطن. انظر: «تاج العروس» (٥/ ٣١٠)، (١٧/ ٥٦٤).

وإنما ذكرت تصاريف لفظة الشتاء لقصد إفادة الناس بالنطق بها على الوجه الصحيح عند استعمالها في تخاطبهم.

وقد جاء ذكر الشتاء في القرآن في موضع واحد في قوله تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ﴾ [قريش: ١، ٢]، قال المفسِّرون: كانت لقريش رحلتان: رحلة في الشتاء إلى اليمن وبلادها من جَنَدٍ وجُرَش وما يليهما، وكان اليمن أدفأ من الشام، فلذلك ارتحلوا إليها في الشتاء، ورحلة في الصيف إلى الشام[١]. وقد قدَّم الله تعالى الشتاء على الصيف، وقسَّم الزمان قسمين، ولم يجعل لهما ثالثًا.

وأما في السُّنَّة فقد جاء لفظ الشتاء في مواضع، يرد شيء منها في هذا الكتاب ـ إن شاء الله تعالى ـ.

كذلك جاء الشتاء في أشعار العرب، يفتخرون بالإطعام فيه، ويذمُّون من يبخل بذلك على جيرانه، كما تحدَّثوا في أشعارهم عن حياتهم مع البرد، والحث على الاحتماء منه، إلى غير ذلك مما هو مدوَّن في هذا الكتاب.

❁ ❁ ❁

(١) انظر: «التفسير البسيط» (٢٤/ ٣٤٦).

الفصل الأول

في فصل الشتاء تفكر واعتبار

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: في تعريف التفكر والاعتبار وفضلهما.

المطلب الثاني: ميادين التفكر والاعتبار في فصل الشتاء.

المطلب الأول

تعريف التفكر والاعتبار وفضلهما

قال ابن فارس: «العين والباء والراء أصل صحيح واحد يدل على النفوذ والمضي في الشيء، يُقال: عبرت النهر عبورًا، وعَبْرُ النهر: شَطُّه... والمعبر: شط النهر هُيِّئَ للعبور... ورجل عابر سبيل: أي مار...»[(١)]. والاعتبار والعبرة هي الحالة التي يتوصل بها من معرفة المُشاهَد إلى ما ليس بمُشاهَد[(٢)].

والتفكر: تصرُّف القلب في معاني الأشياء؛ لإدراك المطلوب، قال ابن فارس: «الفاء والكاف والراء: تردد القلب في الشيء، يقال تَفكَّرَ: إذا ردَّدَ قلبَهُ معتبرًا، ورجل فِكِّير: كثير الفكر»[(٣)].

والتفكُّر سراج القلب يرى به خيره وشرَّه، ومنافعه ومضاره، وكل قلب لا تفكُّر فيه فهو في الظلمات يتخبط.

والتأمل: تدقيق النظر في الكائنات بغرض الاتعاظ والتذكر[(٤)].

وقد حث الله تعالى على التفكر والاعتبار والنظر في آياته ومخلوقاته، وأثنى على من هذه صفاتهم في آيات كثيرة، والمؤمن اليقظ صاحب القلب الحي يعتبر بما يراه من مخلوقات الله وتدبيره لأحوال

(١) «معجم مقاييس اللغة» (٤/ ٢٠٧). (٢) «المفردات» ص(٣٢٠).
(٣) «معجم مقاييس اللغة» (٤/ ٤٤٦).
(٤) انظر: «مفتاح دار السعادة» (١/ ٥٢٤)، «الكليات» لأبي البقاء (٢/ ٦٠)، «التعريفات» للجرجاني ص(٦٣)، «موسوعة نضرة النعيم» (٣/ ٨٤٣).

خلقه، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١]، وقال تعالى: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور: ٤٤]. وقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ١٢]. وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٣، ٤].

وقد ذمَّ الله تعالى من لا يعتبر بمخلوقاته الدالة على وجوده وصفاته وشرعه وقدره وآياته، فقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥]. وأكثر الناس قد عرفوا فضل التفكر والتدبر والاعتبار، ولكن جهلوا حقيقته وثمرته، وغفلوا عن الإتيان به وتعويد القلب عليه، قال أبو سليمان الداراني: «عوِّدوا أعينكم البكاء، وقلوبكم التفكر»(١)، وقال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ: «الكلام بذكر الله حسن، والفكرة في نعم الله: أفضل العبادة»(٢).

وعن الحسن قال: «تفكُّر ساعة خير من قيام ليلة»(٣)، وقال ـ أيضًا ـ: «أفضل العمل: الفكرة والورع، فمن كانت حياته كذلك نجا،

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٢٧٤).
(٢) «الحلية» (٥/ ٣١٤).
(٣) رواه ابن أبي شيبة (١٣/ ٥٠٧)، وأحمد في «الزهد» (٢٧٢)، وأبو نعيم (٦/ ٢٧١).

وإلا فليحتسب حياته»[١]. وقال سفيان بن عيينة: «التفكر مفتاح الرحمة، ألا ترى أنه يتفكر، فيتوب؟»، وعنه أنه كان يتمثل:

إذا المرءُ كانت له فكرةٌ ... ففي كل شيء له عبرةٌ[٢]

وقال أبو سليمان الداراني: «إني لأخرج من منزلي فما يقع بصري على شيء إلا رأيت لله فيه نعمة ولي فيه عبرة»[٣]. وقال بشر بن الحارث الحافي: «لو تفكَّر الناس في عظمة الله لما عصوا الله»[٤].

وقال ابن القيم: «التفكر والتذكر أصل الهدى والصلاح، وهما قطبا السَّعَادَة، وَلِهَذَا وسَّعنا الكَلَام فِي الفكر فِي هَذَا الوَجْه، لعظم المَنْفَعَة وَشدَّة الحَاجة إليه... وأحسنُ مَا أُنفقت فِيهِ الانفاس التفكر فِي آيَات الله وعجائب صنعه والانتقال مِنْهَا إلى تعلق الْقلب والهمة بِهِ دون شَيْء من مخلوقاته، فَلذَلِك عَقدنَا هَذا الكتاب على هذَيْن الأصلين، إِذْ هما أفضل مَا يكتسبه العَبْد فِي هَذِه الدَّار»[٥].

وفي تفكر الإنسان وأخذ العبرة فوائد عظيمة، منها:

١ ـ أن التفكر في الآيات المسموعة المتلوَّة، والآيات المشهودة المرئية طريق لمعرفة الله تعالى والإيمان به والإقرار بربوبيته وخلقه وتدبيره، فيوجب ذلك تنزيه الرب عمَّا لا يليق به، ووصفه بما هو أهله من الجلال والإكرام، وأن الذي أنزل الآيات وخلق المخلوقات ودبَّرها

(١) «الزهد» لابن المبارك ص(٩٦)، «الحسن البصري من عمالقة الفكر والزهد والدعوة في الإسلام» ص(٤٠).
(٢) «الحلية» (٧/ ٣٠٦).
(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٨٦)، وقد عزاه إلى كتاب «التفكر والاعتبار» لابن أبي الدنيا.
(٤) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٣٣٧).
(٥) «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٦٠٧ ـ ٦٠٨).

وصرَفها هو الله القادر على كل شيء، الذي لا ربَّ غيره ولا معبود بحقٍّ سواه؛ لأن مخلوقات الله تعالى تدل على خالقٍ خلقها، وذلك يستلزم وجوده وقدرته ومشيئته وعلمه، ثم ما فيها من المصالح والحكم والغايات المحمودة يدل على حكمته، ورحمته، واتصافه بصفات الكمال، وهي بذلك تُصَدِّقُ الآيات المسموعة المتلوة، وأنها حقٌّ من عند الله تعالى، قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣][(١)].

٢ ـ أن التفكر عمل القلب، بل هو من أفضل أعمال القلوب وأنفعها له، والعبادة عمل الجوارح، والقلب أشرف من الجوارح، فكان عمله أشرف من عمل الجوارح.

٣ ـ أن التفكر والاعتبار يحقق العبودية لله تعالى، ويبعث العبد على المزيد من الطاعة.

٤ ـ التفكر والاعتبار طريق المعرفة وسبيل التعلم، وهو مما يعين على الاستنباط، قال وهب بن منبه الصنعاني: «ما طالت فكرة امرئ قط إلا فَهِمَ، وما فهم امرؤ قط إلا علم، وما علم امرؤ قط إلا عمل»[(٢)]، وقال الشافعي: «استعينوا على الكلام بالصمت، وعلى الاستنباط بالفكرة»[(٣)].

٥ ـ التفكر والاعتبار يحول بين العبد وبين معصية الله؛ لأنه يورث الخوف والخشية من الله تعالى، ويرى عظمة الله في خلقه ونِعَمِهِ وآلائه.

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٥٣٢)، «الفوائد» لابن القيم ص(٢٨ ـ ٢٩)، «تفسير ابن سعدي» ص(٤١٣).

(٢) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» رقم (٥٧)، وانظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٨٦).

(٣) «إحياء علوم الدين» (٤/ ٤٢٥).

٦ ـ التفكر والاعتبار ينقل من موت الغفلة إلى حياة اليقظة، ويرفع الإنسان عن الهبوط إلى درجة البهائم التي لا تفهم ولا تعقل.

٧ ـ أن التفكر والاتعاظ من سير السابقين ومنهج الصالحين، ولهم في ذلك كلمات نفيسة ومواعظ بليغة، تقدم شيء منها[١].

---

(١) انظر: «مفتاح دار السعادة» (١/ ٥١٥) وما بعدها، «موسوعة نضرة النعيم» (٤/ ١٠٧٥).

المطلب الثاني

ميادين التفكر والاعتبار في فصل الشتاء

في كل فصل من فصول السنة تذكرة وعبرة، وفي أيامه وساعاته موعظة وذكرى لمن تأمل ونظر، وفكَّر واعتبر، لكن ميادين التفكر ومواطن الاعتبار في فصل الشتاء أوضح وأبين، لما يظهر فيه من آيات الله ودلائل مشيئته وقدرته وحكمته.

ولذا ينبغي لمن لهم عناية بالأرصاد الجوية عند تعليل بعض الأمور الكونية في فصل الشتاء كشدة البرد أو خفته أو ما يتعلق بالسُّحب والأمطار أو الرياح ألا يقتصروا على الرؤية والمشاهدة، والأسباب الكونية وإضافة ذلك إلى الطبيعة[(١)]، دون ربط ذلك بعلم الله تعالى وقدرته وحكمته ورحمته بخلقه، فإن هذا جانب عظيم، وإغفاله أو تناسيه يُضعف جانب التفكر عند الناس، فيأخذون التغيرات على أنها ظواهر كونية بحتة، ويكادون ينسون الخالق المسبِّب سبحانه، بل قد يصل بالقلوب مستقبلًا إلى أن تتعلق بهذه الأسباب تعلقًا تضعف معه قوة الإقرار بأن الله وحده هو الخالق المدبِّر المتصرف، وتغيب معه حِكَم تقدير الأسباب.

ومن ميادين التفكر في فصل الشتاء:

١ ـ أن فصل الشتاء يذكِّر بزمهرير جهنم:

فقد ذكر الحافظ ابن رجب أن من فضائل الشتاء: أنه يذكِّر بزمهرير

(١) لابن القيم كلام نفيس في موضوع الطبيعة. انظر: «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٧٤٢ ـ ٧٤٦).

جهنم، ويوجب الاستعاذة منها والخوف والحذر، ويحثُّ على الاستعداد ليوم المعاد[١].

وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**اشْتَكَتِ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا، فَقَالَتْ: رَبِّ أَكَلَ بَعْضِي بَعْضًا، فَأَذِنَ لَهَا بِنَفَسَيْنِ: نَفَسٍ فِي الشِّتَاءِ وَنَفَسٍ فِي الصَّيْفِ، فَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الْحَرِّ، وَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الزَّمْهَرِيرِ**»[٢].

قال الحسن: «كل بَرْدٍ أهلك شيئًا فهو من نَفَسِ جهنم، وكل حرٍّ أهلك شيئًا فهو من نَفَسِ جهنم»[٣].

ثم تأمل التعبير بلفظ: «نَفَس» فليس المراد بابًا ولا نافذةً، وإنما هذا البرد وهذا الحر نَفَسٌ، وهذا لفظ دال على التقليل، وفي رواية عند مسلم: «فما وجدتم من برد أو زمهرير فمن نَفَسِ جهنم، وما وجدتم من حرٍّ أو حَرور فمن نفس جهنم»[٤]. ولا مانع من حصول الزمهرير من نَفَسِ النار؛ لأن المراد من النار محلها وهو جهنم، وفيها طبقة زمهريرية[٥].

قال الحافظ ابن رجب: «المحققون من العلماء على أن الله أنطقها بذلك نطقًا حقيقيًّا، كما يُنطق الأيدي والأرجل والجلود يوم القيامة، وكما أنطق الجبال وغيرها من الجمادات بالتسبيح والسلام على رسول الله ﷺ، وغير ذلك مما يُسمع نطقه في الدنيا...»[٦].

وقد ذكر الله تعالى من صنوف عذاب أهل النار الحميم والغسَّاق،

---

(١) انظر: «لطائف المعارف» ص(٢٧٨).
(٢) رواه البخاري (٣٢٦٠)، ومسلم (٦١٧).
(٣) «التمهيد» (٥/ ٨).
(٤) صحيح مسلم (٦١٧).
(٥) «فتح الباري» (٢/ ١٩)، «البحر المحيط الثجاج» (١٣/ ٤٨١).
(٦) «فتح الباري» (٥/ ٥٥)، وانظر: «صحيح مسلم» حديث (٢٢٧٧) في تسليم الحجر على النبي ﷺ.

قال تعالى: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ [ص: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ [النبأ: ٢٤، ٢٥]، والحميم هو الحارّ الذي قد انتهى حرُّه، والغساق ضدُّه، وهو البارد الذي لا يُستطاع من شدّة بَرْدِهِ المؤلم[١].

والله تعالى خلق للعباد دارين يجازيهم فيها بأعمالهم: دار نعيم محض لا يشوبه ألم، ودار عذاب محض لا يشوبه راحة، وخلق دارًا معجلة للأعمال، وخلق فيها الموت والحياة، وأقام فيها علامات وأمارات تدل على وجود دارَي الجزاء، فهي ممزوجة بالنعيم والألم، فما فيها من النعيم يذكِّر بنعيم الجنة، وما فيها من الألم يذكِّر بعذاب النار.

ففي الدنيا أماكن وأزمان تذكر بنعيم الجنة، فالأماكن مثل بعض البلدان كالشام وغيرها فيها من المطاعم والمشارب والملابس وغير ذلك من نعيم الدنيا ما يذكِّر بالجنة، والأزمان مثل زمن الربيع فإن طيبه يُذكِّر بنعيم الجنة وطيبها، وكأوقات السحر فإن بردها يذكّر ببرد الجنة.

وفي الدنيا أماكن وأزمان تذكر بالنار التي أعدها الله تعالى للكفار والعصاة، أما الأماكن فكثير من البلدان المفرطة في الحر أو البرد، فبردها يذكر بزمهرير جهنم، وحرها يذكر بحرِّ جهنم وسَمومها، وبعض البقاع يذكر بالحمَّام الذي يُغتسل فيه بالماء الحار؛ والحمَّام يذكر بالنار، كما قال أبو هريرة رضي الله عنه: «نِعم البيت الحمَّام: يُذهب الدرن، ويذكر النار»[٢].

وأما الأزمان فشدة الحر والبرد يذكر بما في جهنم من الحر والزمهرير، ومما يذكر بالنار في دار الدنيا: هذه الشمس عند اشتداد

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٦/ ٤٣٣)، (٤/ ٤٦٤).

(٢) رواه ابن أبي شيبة (٢/ ٥٤)، وقد جاء هذا المعنى عن عدد من الصحابة رضي الله عنهم.

حرِّها في نهار الصيف، فمن لا يصبر على حر الشمس كيف يصبر على عذاب النار الذي لا قوة لأحد عليه ولا صبر؟!.

ومن أعظم ما يذكِّر بنار جهنم: النار التي في الدنيا، قال تعالى: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ [الواقعة: ٧٣]، ولا ريب أن هذا كله يوجب على المؤمن الخوف والحذر والاستعداد[1].

وقد نفى الله تعالى عن أهل الجنة الحر والبرد فقال: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٣]، أي: لا يجدون في الجنة حرًّا مزعجًا ولا بردًا مؤلمًا، بل هي في غاية الاعتدال على وجه واحد دائم سرمدي، وعبّر بالشمس عن الحر؛ لأن الشمس سبب الحر في عُرف أكثر الناس، والزمهرير: البرد الشديد، روى ابن جرير بسنده عن قتادة قال: «عَلِمَ الله أن شِدَّةَ الحر تُؤذي، وشِدَّة البرد تؤذي، فوقاهم الله أذاهما جميعًا»[2].

٢ ـ تعدد الفصول واختلافها:

ومن مواطن العبر وميادين التفكر: اختلاف الفصول وتعاقبها من صيف وشتاء وربيع وخريف، وحرٍّ وقرٍّ وغيث ودهر، وما في هذا التعاقب من المصالح العظيمة للإنسان والحيوان والنبات.

وسبب اختلاف هذه الفصول ـ بقدرة الله تعالى ـ هو اختلاف منازل الشمس[3]؛ فإن الله تعالى جعل للشمس مشارق ومغارب عدد أيام

(١) انظر: «لطائف المعارف» ص(٣٦١ ـ ٣٦٢، ٣٧٨).
(٢) «تفسير الطبري» (٢٩/ ٢١٤).
(٣) العلم الحديث يقول: إن سبب اختلاف الفصول هو حركة الأرض حول الشمس من المغرب إلى المشرق عكس عقارب الساعة مرة كل سنة، واختلاف منازل الشمس هو بسبب ذلك. انظر: «المدخل إلى الجغرافيا الطبيعية والبشرية» ص(٧٤، ٧٨).

السنة، كل يوم تطلع من مطلع وتغرب من مغرب؛ لأن الشمس تقطع السماء في سنة، وتقيم في كل برج من البروج الأثنى عشر ـ المتقدم ذكرها ـ شهرًا، قال تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾ [يس: ٣٨] يريد غاية منتهاها في المشرق الذي إذا بلغته رجعت. فأحدث ذلك ـ بقدرة الله تعالى ـ اختلاف الفصول، فإذا انخفض سير الشمس عن وسط السماء بَرَدَ الهواء وظهر الشتاء، وإذا استوت في وسط السماء اشتدَّ القيظ، وإذا كانت بين المسافتين اعتدل الزمان(١)، وهذا من أعظم الآيات الدالة على وجود الله تعالى وكمال قدرته وانفراده بالربوبية والوحدانية وتمام الحكمة، فإن هذا أثر من آثار الربوبية.

وقد ذكر الله لفظ المشرق والمغرب في القرآن بلفظ الإفراد والتثنية والجمع؛ ليتأمل العباد، قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾ [المعارج: ٤٠]. وقال تعالى: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ﴾ [الرحمن: ١٧]. وقال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾ [المزمل: ٩]. فالجمع باعتبار مَطْلَعِ كُلِّ يومٍ ومغربه، أو مطلع كل فصل ومغربه، والتثنية باعتبار مطلعَي ومغربَي الشتاء والصيف، والإفراد باعتبار الجهة والإشارة إلى ناحيتي المشرق والمغرب(٢).

واختلاف الفصول فيه حِكَم بالغة وآيات باهرة، منها:

الأولى: الدِّلالة على وجود الله تعالى وقدرته وعلمه وحكمته ورحمته بخلقه، وهذا لا يحصل إلا من المؤمن اليقظ صاحب القلب الحي والفكر

---

(١) انظر: «الأنواء» لابن قتيبة ص(١٢٨)، «الأزمنة والأنواء» لابن الأجدابي ص(٨٠)، «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٥٦٥).

(٢) انظر: «تفسير ابن أبي حاتم» (١٠/ ٣٣٢٣)، «غريب الحديث» للحربي (٢/ ٩٦٥)، «الأزمنة والأمكنة» ص(١٥١ ـ ١٥٢)، «الإتقان» (٤/ ١٢٩٧).

السليم، الذي يعتبر بما يراه من أيام الله وآياته في كونه وخلقه، وهل يخفى على ذي بصيرة أن هذا إبداعُ المبدع الحكيم وتقدير العزيز العليم، قال تعالى: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةً لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [النور: ٤٤].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي: «يقلب الله الليل والنهار من حر إلى برد ومن برد الى حر، ومن ليل إلى نهار ومن نهار إلى ليل، ويُديل الأيام بين عباده ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةً لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾، أي: لذوي البصائر والعقول النافذة للأمور المطلوبة منها، كما تنفذ الأبصار إلى الأمور المشاهدة الحسية، فالبصير ينظر إلى هذه المخلوقات نظر اعتبار وتفكر وتدبر لما أريد بها ومنها، والمُعرض الجاهل نظره إليها نظر غفلة، بمنزلة نظر البهائم»(١).

العبرة الثانية: الدلالة على انقضاء الدنيا وزوالها؛ فإن تعاقب هذه الفصول كُلَّ سنة، وانقضاء الشتاء ثم انقضاء الربيع دليل على مضي الأيام والشهور والسنين، قال الحسن البصري: «لم يزل الليل والنهار سريعين في نقص الأعمار، وتقريب الآجال، هيهات، هيهات، قد صحبا نوحًا وعادًا وثمودًا وقرونًا بين ذلك كثيرًا، فأصبحوا قد قدموا على ربهم، ووردوا على أعمالهم، فأصبح الليل والنهار غَضَّيْنِ جديدين لم يُبْلِهِمَا ما مرَّا به، مستعدين لمن بقي بمثل ما أصابا به من مضى»(٢).

وما أحسن قول القائل!:

كَمْ يَكونُ الشِّتاءُ ثُمَّ المَصيفُ ... وَرَبيعٌ يَمْضي ويَأْتي الخَريفُ
وَارتِحالٌ مِنَ الحَرورِ إلى البَرْ ... دِ وَسَيْفُ الرَّدى عَلَيْكَ مُنِيفُ
يا قَلِيلَ المُقامِ في هذهِ الدُّنْـ ... ـيَا إِلى كَمْ يَغُرُّكَ التَّسْويفُ

---

(١) «تفسير ابن سعدي» ص(٥٧٠ ـ ٥٧١)، وانظر: «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٦٨٢).
(٢) «تاريخ دمشق» (٦٠/ ٢٣١)، وفي «مختصر تاريخ دمشق» (٢٥/ ٢٣٢).

عَجَبًا لِامْرِئٍ يَذِلُّ لِذي الدُّنـ ـيَا وَيَكْفيهِ كُلَّ يَوْمٍ رَغيفُ[(١)]

العبرة الثالثة: ما في تعاقب الفصول من المصالح العظيمة للإنسان والحيوان والنبات، وهذا أمر ملحوظ وشيء محسوس، ولو كان الزمان كله فصلًا واحدًا لفاتت مصالح الفصول الباقية، فلو كان صيفًا كله لفاتت مصالح الشتاء، ولو كان شتاء كله لفاتت منافع الصيف، وكذا لو كان ربيعًا كله أو خريفًا كله.

العبرة الرابعة: أن فصول السنة ـ كما تقدَّم ـ تذكر بالدار الآخرة، فشدة الصيف يذكر بحرِّ جهنم وهو من سَمومها، ونَفَس من أنفاسها، وشدة برد الشتاء يذكر بزمهرير جهنم وهو من زمهريرها ونَفَس من أنفاسها، والخريف يكمل فيه اجتناء الثمر، فيذكِّر بثمرات الأعمال في الآخرة، وأما الربيع فهو أطيب فصول السنة، وهو يذكر بنعيم الجنة وطيب عيشها[(٢)].

العبرة الخامسة: تأمل دخول الشتاء على الصيف، ودخول الصيف على الشتاء، بهذا التدريج والمهلة حتى يبلغ كل منهما نهايته، وقد جعل الله تعالى بحكمته فصل الخريف برزخًا بين سَموم الصيف وبرد الشتاء؛ لئلا ينتقل الحيوان وهلةً واحدة من الحرِّ الشديد إلى البرد الشديد، فيجد أذاه ويعظم ضرره، إذ لو دخل الشتاء على الصيف فجأة لأضر ذلك بالأبدان وأهلكها، وأضر بالنبات والحيوان، مثل: ما لو خرج إنسان من حمَّام مفرط في الحرارة إلى مكان مفرط في البرودة، ولولا عناية الله تعالى ورحمته بخلقه لما كان ذلك[(٣)].

(١) «لطائف المعارف» ص(٣٧٩).
(٢) انظر: «لطائف المعارف» ص(٣٦٢، ٣٧٨).
(٣) «شفاء العليل» (٣/ ١١٨٣)، «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٦١٠ ـ ٦١١).

فإذا انتقل إليه بتدريج وترتيب لم يصعب عليه، فإنه عند كل جزء يستعد لقبول ما هو أشدُّ منه، حتى تأتي شدة البرد بعد استعدادٍ وقَبولٍ، حكمةٌ بالغةٌ وآيةٌ باهرةٌ، وكذا الربيع برزخ بين الشتاء والصيف، ينتقل فيه الحيوان من برد هذا إلى حر هذا بتدرج وترتيب، فتبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين[١].

يقول القزويني: «ومن جملة لطف الله أن أعطى كل فصلٍ طبقة مغايرة لما بعده في كيفية أخرى؛ ليكون ورود الفصول على الأبدان بالتدريج، فلو انتقل من الصيف إلى الشتاء دفعةً واحدةً لأدى ذلك إلى تغيير عظيم في الأبدان، فحسبك ما ترى من تغير الهواء في يوم واحد من الحر إلى البرد، كيف يظهر مقتضاه في الأبدان؟! فكيف إذا كان مثل هذا التغير في الفصول؟! فسبحانه ما أعظم شأنه وأكثر امتنانه!»[٢]

العبرة السادسة: تأمل مجيء الفواكه والخُضَر والورقيات في الشتاء بحسب الوقت المُشاكل لها المقتضي لها، ومثل ذلك ما يتعلق بالصيف من التمور والفواكه والخُضَر، ولو جاءت فاكهة الصيف ونباته في الشتاء أو فاكهة الشتاء ونباته في الصيف لصادف ذلك من الناس كراهة واستثقالًا بوروده، ولا استطابته النفوس واستلذته، مع ما فيه من المضرة للأبدان والأذى لها لمجيئه في غير وقته، ولهذا تجد المتأخر منها عن وقته فائتًا مملولًا محلول الطعم، ولا تظن أن هذا لجريان العادة المجردة بذلك، فإن العادة إنما جرت به؛ لأنه وَفق الحكمة والمصلحة التي لا يُخِلُّ بها الحكيم الخبير[٣].

(١) انظر: «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٥٩٣ ـ ٥٩٤).
(٢) «عجائب المخلوقات» (١/ ١٥٢ ـ ١٥٣).
(٣) انظر: «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٦٥٤ ـ ٦٥٥)، «زاد المعاد» (٤/ ٢٢٠).

٣ ـ طول الليل وقصر النهار:

ومن مواطن العبر: اختلاف الليل والنهار بالطول والقصر، والليلُ والنهار آيتان عظيمتان من آيات الله الكونية، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

وهما يتعاقبان ويتقارضان الطول والقصر، وتعاقبُ الليل والنهار، أو الظلام والضياء ضرورة أساسية لنمو الحياة على الأرض، وبدهيٌّ أنه من المحال أن تستمر الحياة إذا كان النهار سرمدًا، أو كان الليل سرمدًا، وقد نبه القرآن إلى ذلك، للتأمل في هذه الحقيقة العظيمة، ولاستيضاح جوانبها، فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧١ ـ ٧٣][١].

ففي الشتاء يبلغ النهارُ الغايةَ في القصر، والليل الغايةَ في الطول، وأطول ليلة في السنة هي التي توافق «٢١ من شهر ديسمبر» وسبب طول الليل وقصر النهار أو تساويهما أو طول النهار وقصر الليل هو دوران الشمس على الأرض واختلاف مطالعها[٢]، فإذا حلَّت الشمس في آخر البروج الشمالية انتهى النهار في الطول، ودخل فصل القيظ، وأطول نهار

---

(١) انظر: «مع الطب في القرآن الكريم» ص(١٠٦).

(٢) العلم الحديث يقول: إن للأرض حركة حول محورها من الغرب إلى الشرق عكس عقارب الساعة مرة كل (٢٤) ساعة، وهي ما يحدث عنها تعاقب الليل والنهار. «المدخل إلى الجغرافيا الطبيعية» ص(٧٤).

في السنة هو اليوم الموافق «٢١ يونيو»، ثم ترجع شيئًا فشيئًا حتى ترجع إلى البروج اليمانية، فإذا حلَّت في آخر برج منها انتهى الليل في الطول، ودخل فصل الشتاء، ويبدأ النهار يأخذ حصته من الليل، ويستمر بالأخذ ثلاثة أشهر تقريبًا حتى يصل إلى الاعتدال بين الليل والنهار، ولذا صارت فصول السنة أربعة، ـ كما تقدم ـ، وفي (١٥ مارس) يتساوى الليل والنهار، فيكون كلٌّ منهما اثنتي عشرة ساعة على بعض المناطق، وفي هذا اليوم يكون موعد شروق الشمس هو موعد غروبها، وعلى القطبين الشمالي والجنوبي يصير النهار ستة أشهر والليل ستة أشهر[١].

ثم تأمل الحِكْمَة في مقادير اللَّيْل وَالنَّهَار تجدها على غاية المصلحَة والحكمة، وأن مقدار اليوم واللَّيلة لو زاد على ما قدِّر عليه أو نقص لفاتت المصلحة واختلفت الحكمة بذلك، بل جعل مكيالها أربعًا وعشرين ساعة، وجعلا يتقارضان الزيادة والنقصان بينهما، فما يزيد في أحدهما من الآخر يعود الآخر فيسترده منه، قال الله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ [الحج: ٦١][٢].

وهذا كله دليل واضح على عظمة الخالق جل وعلا؛ لأن عظمة هذا الوجود وسيره على هذا النظام البديع المحكم الدقيق دليل على عظمة الخالق وكمال قدرته وسعة رحمته بخلقه، فسبحان من أتقن ما صنع، وأحسن كل شيء خلقه.

وهذه الآية العظيمة لم تمر على السلف الصالح من هذه الأمة دون تأمل وتفكر أورث علمًا وعملًا.

---

(١) انظر: «الأزمنة والأنواء» لابن الأجدابي ص(٤١، ٨٢ ـ ٨٣)، «الأزمنة والامكنة» للمرزوقي ص(١٥٠)، تقويم العجيري، تقويم الزعاق.
(٢) انظر: «مفتاح دار السعادة» (٢/٥٩٦).

أما العمل فاستِفادتهم من قصر النهار بالصيام ومن طول الليل بالقيام ـ كما سيأتي إن شاء الله ـ، وأما العلم فما أُثِرَ عنهم من أقوال جميلة وحِكَم بديعة صادرة من قلوب حيّة وألسنة صادقة، لقد ربطوا بين أحوال الدنيا وتقلباتها وتصرف أيامها، وبين أحوال الآخرة وعواقب الأعمال تذكرة وعبرة واستعدادًا، وسيأتي ـ إن شاء الله ـ شيء من هذه الأقوال.

٤ ـ النار في فصل الشتاء:

ومن ميادين التفكر في فصل الشتاء: هذه النار التي يحرص الناس عليها أيام الشتاء، فالنار مستعملة في الشتاء والصيف، ولكن النار التي يُستدفأ بها هي نار الشتاء، ولهذا يسعى الناس إلى تحصيلها، ولهم عند إيقادها من الأنس ـ إضافة إلى فوائدها ـ الشيء العجيب، ثم انظر إلى حرص الناس عند إقبال الشتاء على توفير وسائلها وإصلاح أماكنها، وهي في الرحلات البرية أيام الشتاء جزء أصيل من الرحلة لا تتم إلا بإيقاد النار والاصطلاء عليها والأنس بالجلوس حولها، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمۡ أَنشَأۡتُمۡ شَجَرَتَهَآ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحۡنُ جَعَلۡنَٰهَا تَذۡكِرَةٗ وَمَتَٰعٗا لِّلۡمُقۡوِينَ﴾ [الواقعة: ٧١ ـ ٧٣]، ففي النار عبرة وعظة من وجهين:

الأول: أنها تذكِّر بنار الآخرة، فيدعو ذلك العبدَ إلى الهرب من الأسباب الموجبة لدخولها، لو كانت القلوب سليمة، ولكنها أصبحت أمرًا مألوفًا لا يثير اهتمامًا، ولا يُحدث عبرة وتذكُّرًا!

الثاني: أن النار جعلها الله متاعًا للمُقوين، وهم المسافرون النازلون بالقَوَاءِ، وهي الأرض الخالية، إذا نزلها المسافر تمتَّع بالنار في منزله بالإضاءة والطبخ والخبز والتدفِّي والأنس وغير ذلك(١).

---

(١) انظر: «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٦١٣)، «بدائع الفوائد» (٤/ ١٥٥٦).

وقيل: هم المستمتعون من حاضر ومسافر، وهذا التفسير أعم من الأول؛ لأن الحاضر والبادي من غني وفقير كلهم محتاجون إلى النار للطبخ والتدفئة والإضاءة وغير ذلك من المنافع[(١)].

وسيأتي ـ إن شاء الله تعالى ـ الكلام على وجوب الاحتياط عند إيقاد النار للتدفئة، وما يتعلق بذلك من آداب.

٥ ـ الشمس في فصل الشتاء:

تقدَّم أن الله تعالى جعل للشمس مطالع عدد أيام السنة كل يوم تطلع من مطلع، ولو كانت تطلع وتغرب في موضع واحد لا تتعداه لما وصل ضوؤها وشعاعها إلى كثير من الجهات، وباختلاف مطالعها تختلف الفصول، وهي تطلع كل يوم من المشرق ولا تزال تمشي موضعًا بعد موضع إلى أن تنتهي إلى المغرب، فلا يبقى موضع مكشوف موازٍ لها إلا أخذ بقسطه من نفسها.

وتأمل حكمة الله سبحانه في ارتفاعها وانخفاضها لإقامة فصول السنة الأربعة، وما في ذلك من مصالح الخلق، وهي تميل كل سنة مرة إلى الجنوب ومرة إلى الشمال لتعم فائدتها، وتقدم هذا[(٢)]، قال ابن الأجدابي: «جعل الله تعالى في مسير الشمس وانتقالها في البروج عَلَمًا لانتقال الزمان واختلاف أحواله في الطول والقِصَرِ والحر والبرد[(٣)]».

ومن قدرة الله تعالى وحكمته ورحمته بخلقه أن جعل الشمس سراجًا يطلع على العالم في وقت حاجتهم إليه، ويغيب في وقت

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٨/ ١٩).
(٢) «عجائب المخلوقات» للقزويني (١/ ٣٩)، «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٥٩٢)، وانظر: «الأزمنة والأمكنة» للمرزوقي ص(١٥١ ـ ١٥٢).
(٣) «الأزمنة والأنواء» ص(٨٢).

استغنائهم عنه، فطلوعها لمصلحتهم وغيبتها لمصلحتهم، فهي تطلع وقتًا بمنزلة السراج يُرفع لأهل البيت ليقضوا حوائجهم، ولولا طلوعها لبطل أمر العالم واختل نظامه، ولم يستطع الناس السعي في معايشهم والتصرف في أمورهم، وأي ثمارٍ ونباتٍ وحيوانٍ سيوجد بدون الشمس، فالمواضع التي ينمو فيها النبات ويعيش فيها الحيوان هي التي تطلع عليها الشمس وتغيب، وأعدلها المواضع التي تتعاقب عليها الفصول الأربعة.

ثم تغيب وقتًا ولولا غروبها لم يكن للناس هدوء ولا قرار، مع عظم حاجتهم إلى الهدوء؛ لراحة أبدانهم، وسكون جوارحهم وحواسهم؛ لتجتمع قواها ويعود عليها نشاطها، فجعل أحكم الحاكمين الليل سكنًا ولباسًا، والنهار ضياءً ومعاشًا، ثم لولا غروبها لكانت الأرض تَحمى بدوام شروق الشمس واتصال طلوعها حتى يحترق كل ما عليها من حيوان ونبات[١].

إن الشمس نعمة عظيمة من نعم الله على خلقه لها من الفوائد والمنافع على المخلوقات ما لا يحصى، ومن ذلك نفعها للإنسان، فهي تولد الفيتامين في جسم الإنسان ولا سيما فيتامين «D» إذا تعرض الجلد لأشعة الشمس، وفي النبات إذا لامسه، ويزيد في وزنه وفي قوته ويَقِفُ نُمُوَّ الجراثيم أو يقتلها، وقلما تكتب الحياة لنبات أخضر ينبت في الظلام، وهي مع هذه الفوائد ـ إذا روعيت التعليمات والمقادير ـ باعثةٌ للنشاط والسرور، وقد ثبت لدى العلماء أن الإعياء والخمول والتعب من الصفات الملازمة لمن يقضون أوقاتهم بعيدين عن أشعة الشمس، فضلًا عن الأمراض الخطيرة التي قد تصيبهم، مثل عمال المناجم وغيرهم.

---

(١) انظر: «التبيان في أيمان القرآن» ص(٢٥٦)، «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٥٦٤، ٥٩٠، ٥٩٢).

وقد كشف العلم الحديث أن للأشعة الشمسية أثرين موجبين في الأعضاء، أحدهما: حيوي «بيولوجي» والآخر كيماوي، ففي الأول: تنشط وظائف الجسم، وتزداد فعاليتها، وفي الثاني: تحوُّل العناصر الكيماوية الموجودة في الجلد إلى فيتامين «D» ذي الأثر الفعال في تثبيت الكلس في الجسم، وهو ضروري لتكوين العظام وتقويتها وسلامة الأسنان، والمنع من توارد ما يؤثر عليها، لذا فإن أشعة الشمس تُعَدُّ أحد المصادر الهامة لفيتامين «D».

وعلى الأمهات أن يعرفن ضرورة عرض أطفالهن على أشعة الشمس قبل الظهيرة أو بعدها عراةً من الألبسة ما أمكن، وبأزمنة قصيرة تزداد يومًا بعد يوم، فهذا له فوائد عظيمة، من أهمها: أنه يقيهم ـ بإذن الله ـ شر الكُساح، ويجنبهم خطر تقوس الساقين.

والخلاصة، أن نور الشمس لا يستغني عنه إنسان، أو نبات، أو حيوان، فهو إكسير الحياة في كل حي، وهو سر الوجود في كل موجود[(١)].

٦ ـ ضعف الإنسان:

ومن الدروس والعبر في فصل الشتاء: ظهور ضعف الإنسان مع البرد وما قد يكون له من آثار، وضَعْفُ الإنسان حقيقة لا ينكرها عاقل، والله تعالى قد قررها في كتابه، فقال عز من قائل: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨] يقررها الله ليعرف الإنسان هذه الحقيقة، فيذكرها دائمًا حتى لا تطغيه حالته التي هو فيها من صحة أو قوة أو غنى، فيتجاوز الحدود التي ينبغي أن يلتزمها، فيتعالى ويتجبر،

(١) انظر: «طبيبك معك» ص(٢١٨ ـ ٢٢٢، ٣٣٧)، «الموسوعة الطبية الكاملة للأسرة» (١١٤٩/٢).

ويتطاول ويتكبر، فينسى أصله، ويقع فيما لا تُحمد عقباه[١].

ولما نقل ابن القيم أقوال السلف في معنى الآية، كقول من قال في تفسير الضعف: إنه لا يصبر عن النساء، أو إنه خُلق من ماء مهين، أو إن المراد ضَعْفُ عزمه عن قهر الهوى، قال: «والصواب أَن ضعفه يعم هذا كله، وضعفه أَعظم من هذا وأَكثر؛ فإنه ضعيف البنية، ضعيف القوة، ضعيف الإرادة، ضعيف العلم، ضعيف الصبر، والآفات إليه مع هذا الضعف أَسرع من السيل في الحَدور. فبالاضطرار لا بد له من حافظ معين يقويه ويعينه وينصره ويساعده، فإن تخلى عنه هذا المُسْعِدُ المعين فالهلاك أَقرب إليه من نفسه»[٢].

ويظهر ضعف الإنسان في فصل الشتاء في عدم تحمُّله البرد والرياح الباردة لا سيما إذا خرج إلى البر أو كان في حالة سفر، فإنه يحتاج إلى ما يحميه منه من اللباس والغطاء والطعام، ثم ظهور ضعفه فيما قد يعتريه من أمراض الشتاء، وهي ما يصيب الناس من الزكام أو النزلة أو دخول البرد في الجسم، والعبرة من ذلك أنه يعلم ضعفه وأنه لا حول له ولا قوة، فيفزع إلى ربه وخالقه ليحفظه ويحميه بعد أخذ الأسباب المأمور بها، ولهذا تجد من الناس من إذا جاء الشتاء جزع من برده وتمنى الصيف، فإذا جاء الصيف جزع منه وتمنى الشتاء، قال الشاعر:

يتمنى المرء في الصيف الشتا ... فإذا جاء الشتاء أنكره
لا بذا يرضى ولا يرضى بذا ... «قُتل الإنسان ما أكفره»[٣]

---

(١) انظر: «الإنسان في القرآن الكريم» ص(٢٥٠).

(٢) «طريق الهجرتين» (١/ ٢٢٩).

(٣) هذان البيتان نسبهما التيفاشي في «سرور النفس بمدارك الحواس الخمس» الذي اختصره ابن منظور ص(٢٣٩) إلى يحيى بن صاعد، وذكر الذهبي في «تاريخ الإسلام» (١٣/ ٩٣٦) أنهما لجمال الدين النحوي، وجاءت في «الشوارد» لابن خميس (١/ ٢٣١)، بدون نسبة، وسياقها مختلف في هذه المصادر، وفي البيت الثاني اقتباس.

٧ ـ الحيوان في فصل الشتاء:

ومن العبر في فصل الشتاء: أن يتأمل الإنسان في هذا الحيوان البهيم الذي كُسي جسمه بهذا الشعر أو الوبر أو الصوف، وكسيت الطيور بالريش، وكُسي بعض الدواب من الجلد ما هو في غاية الصلابة والقوة، كالسُّلَحْفَاةِ، كل ذلك جاء بقدرة الله تعالى واقيًا لهذا الحيوان من الحر والبرد؛ لأنها لمّا لم يكن لها سبيل إلى اتخاذ الملابس واصطناع الكسوة أُعينت بملابس وكسوة من خِلقتها لا تفارقها، ولا تحتاج إلى استبدال، وهذا بخلاف الإنسان الذي ميَّزه الله عن الحيوان في ملبسه كما ميزه عنه في مطعمه ومسكنه وبيانه وعقله وفَهمه، فجعلت له كسوة تليق بفصول السنة وتعاقبها، فيتخذ في كل فصلٍ كسوةً تناسبه؛ لأن كسوة الصيف لا تليق بالشتاء وكسوة الشتاء لا تليق بالصيف، ثم هي تابعة لشهوته وإرادته، يخلعها إذا شاء ويلبسها إذا شاء، وهو يتلذذ بأنواع الملابس كما يتلذذ بأنواع المطاعم، فجُعلت كسوته تابعةً لاختياره، كما جُعلت مطاعمه كذلك، فهو يكتسي ما شاء من أنواع الملابس وألوانها، وبها تتم لذته وسروره وابتهاجه وزينته، ولذا تُلاحظ كثرة أنواع ملابس الشتاء وخِفَّتها وثِقلها واختلاف ألوانها أكثر مما هو في الصيف، وكل ذلك من نعم الله على خلقه(١)، كما سيأتي في موضعه ـ إن شاء الله تعالى ـ.

❁ ❁ ❁

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٦٧٦ ـ ٦٧٧).

الفصل الثاني

من آياتِ اللّٰه في فصل الشتاء

وفيه ستة مطالب:

المطلب الأول: في شدة البرد.

المطلب الثاني: في السحاب.

المطلب الثالث: في البرق والرعد.

المطلب الرابع: في نعمة المطر.

المطلب الخامس: قَوْسُ قُزَحَ.

المطلب السادس: النبات في فصل الشتاء.

الفصل الثاني

من آيات الله في فصل الشتاء

لله تعالى في هذا الكون آيات عظيمة دالة على وجوده وربوبيَّته ووحدانيته، ومن هذه الآيات آيات تظهر للناس في فصل الشتاء، وهي ليست مختصة بفصل الشتاء، بل منها ما هو لفصل الشتاء، ومنها ما هو في الشتاء وغيره من الفصول، فالإضافة ليست إضافة اختصاص، وإنما هي إضافة وجود، أي: إنها تحصل في فصل الشتاء، ومن هذه الآيات:

المطلب الأول

في شدة البرد

شدة البرد في فصل الشتاء والرياح الباردة والثلوج من دلائل قدرة الله تعالى، والمؤمن يتأمل ما في هذا الكون من تغيرات، ويحاول أن يتعرف على الحِكَمِ والأسرار وراء ما قدر الله تعالى من أحداث، وما خلق من محاسن، مما يدل على عظمة الخالق سبحانه ورحمته بخلقه.

فإذا دخل فصل الشتاء اشتد البرد مع التفاوت الملحوظ في بعض الأماكن والشهور أو الأيام عن بعض، على أن الأجواء في هذه الأزمنة تغيرت ـ بقدرة الله تعالى ـ عما كنا نعيشه في أزمان سابقة ولا سيما البرد الشديد المتواصل في البلاد النجدية.

وبرد الشتاء ثلاثة أزمنة: الأربعينية أو المربعانية، والشبط، والعقرب الأولى والثانية، ومدة ذلك ثلاثة أشهر تقريبًا.

أما المربعانية فإنها أول فصل الشتاء، وذلك يوافق (٧ ديسمبر) كما تقدم، ومدتها أربعون يومًا مجازًا، لذا عرفت بهذا الاسم، ونجومها ثلاثة، كل نجم ثلاثة عشر يومًا، وهي: الإكليل[(١)]، والقلب ويوافق «٢٠ ديسمبر»، والشولة وتوافق «٢ يناير»، والنجم الأول والثاني من المربعانية من الوسم من ناحية التقسيم ومن ناحية الأجواء، فمن ناحية التقسيم أنه إذا نزل مطر خلال هذين النجمين فأمطاره تنبت ما ينبته الوسم من الربيع

(١) انظر: في أسماء نجوم المربعانية والشبط والعقارب وتفصيلاتها «كتاب الأنواء» لابن قتيبة ص(٦٩) وما بعدها.

والكمأة، ومن ناحية الأجواء فالأجواء فيهما معتدلة، فلا يظهر فيهما برد واضح إلا داخل البيوت، وأبرد أيام السنة آخر أيام المربعانية وأول أيام الشبط غالبًا، فتبدأ البرودة الشديدة على المناطق الشمالية من المملكة وخلال أسبوع تقريبًا تنزاح البرودة للمناطق الوسطى والشرقية وأجزاء من الغربية، وبرد المربعانية عمومًا يكون داخل البيوت؛ لأنه يظهر من الأرض.

وأما الشبط فلها نجمان، كل نجم ثلاثة عشر يومًا، وهما: النعايم «شباط الأول» ويوافق «١٥ يناير»، يزداد فيه البرد والصقيع متى كانت الرياح أصلها سيبيري أو قطبي، ولذا لا يزرع فيه المزارعون شيئًا لشدة برده، والنجم الثاني: البلدة «شباط الثاني» ويوافق «٢٨ يناير»، وبرد الشبط أشد من برد المربعانية؛ لأنه يتسم بالجفاف، ويشتد في الصباح الباكر، وتكثر فيه هبوب الرياح المفاجئة، ويكون خارج البيوت، أما الأمكنة المغلقة فغالبًا لا يدخلها البرد الشديد، وفيه تشتد العواصف الباردة، فتجف عُسبان النخل، وتموت الأشجار، ولذا يجب على الإنسان الاحتياط لبرد الشبط؛ لأنه إذا دخل الجسم لا يخرج إلا بالكي.

وأما العقارب فلها ثلاثة نجوم، كل نجم ثلاثة عشر يومًا، وهي: سعد الذابح «العقرب الأولى» وهي عقرب السُّم، ويوافق «١٠ فبراير»، والنجم الثاني سعد بُلع «العقرب الثانية» وهي عقرب الدم، ويوافق «٢٣ فبراير»، سميت بذلك؛ لأن بردها يُدمي ولا يقتل، لكن أحيانًا يكون بردها شديدًا، ويضر المزروعات، وذلك حال هبوب رياح قطبية الأصل.

والنجم الثالث سعد السعود «العقرب الثالثة» وهي عقرب الدسم، ويوافق «٨ مارس» وهي داخلة في فصل الربيع، وفيها يعتدل الزمان، فيتسم الجو بالاعتدال أثناء النهار، والبرودة النسبية ليلًا، وتزهر

الأعشاب، ويجري الماء في العود، ومع موسم العقرب الثالثة يبدأ وقت «بياع الخبل[(١)] عباته» وهو برد الحسوم عند العرب، وبرد العجوز عند أهل البادية[(٢)].

وبنهاية العقرب الثانية ينتهي فصل الشتاء، وقد يأذن الله في آخر العقارب بمرور أوقات شديدة البرد، وسميت بالعقارب؛ لأن بردها يلسع الناس على حين غفلة من أمرهم[(٣)].

وللعرب أسجاعٌ تقولها عند طلوع كل نجم من النجوم، يعبرون بها عن واقع الحياة وما يتجدد فيها لهم وللحيوان وللنبات تبعًا لهذه الطوالع[(٤)]، وقد اشتملت على معانٍ جاءت نتيجة تجربة عرفوها، وحصيلة حياة أدركوا شدتها أو ربيعها[(٥)].

ومن أسجاع العرب في منازل فصل الشتاء: إذا طلع الإكليل، هاجت الفحول، وشُمِّرت الذيول، وتُخُوِّفت السيول. وتقول: إذا طلع القلب، جاء الشتاء كالكلب، وصار أهل البوادي في كَرْب، ووقع الثلج كالثَّرْب[(٦)]، وانحجر من البرد الضَّب. وتقول: إذا طلعت الشولة[(٧)]، أتاك الشتاء بصولة، وطال الليل طولة، وأعجلت الشيخ البولة، واشتدت على العيال العولة.

---

(١) الخِبِل: بكسر الخاء والباء، هو الشخص الأبله القليل الفهم الذي يتصرف بغير اتزان، وأصله اللغوي: خَبِلٌ، بفتح الخاء وكسر الباء، إلا أن العامة كسروهما للتجانس الصوتي. انظر: «تاج العروس» (٢٨/ ٣٨٦)، «لهجة القصيم» ص(٣٢٠).

(٢) انظر في تعليل ذلك: «الأزمنة والأنواء» لابن الأجدابي ص(١٢٩).

(٣) انظر: «كتاب الأنواء» لابن قتيبة ص(٦٩)، «عجائب المخلوقات» للقزويني (١/ ٨٣)، تقويم الزعاق عام ١٤٤٢هـ.

(٤) هذه الأسجاع تختلف من كتاب لآخر، وقد اقتصرت على أهمها وأوضحها.

(٥) من مقدمة كتاب: «الأنواء والأزمنة» لابن الأجدابي ص(١٠).

(٦) الثرب: شحمٌ رقيق على الكرش والأمعاء.

(٧) تقرأ بالهاء وقفًا، وكذا ما بعده.

وتقول العرب: إذا طلعت النعائم، ابيضت البهائم من الصقيع الدائم، وطال الليل للقائم، وقَصُرَ النهار للصائم، وكبرت العمائم، وأيقظ البرد النائم، وتقول: إذا طلعت البلدة[١]، أصاب الناسَ من البرد شِدَّة، وفَشَتِ الرِّعْدة، وأُكلت القشدةُ[٢]، وقيل للبرد: اهْدَهْ[٣].

وتقول: إذا طلع سعد الذابح[٤]، حمى أهله النابح، ونفع أهله الرائح، ولم تَهِرَّ النوابح، من البرد البارح، وأورى عُودَه كلُّ قادح. وتقول: إذا طلع سعد بُلَع، اقتحم الرُّبَع[٥]، ولَحِقَ الهُبَع[٦]، وصار في الأرض لُمع، وكأنك بالبرد قد انقشع. وتقول: إذا طلع سعد السعود، ذاب كل جمود، وخَضِرَ كل عود، ووُقِيَ كُلُّ مصرود[٧]، ولانت الجلود، وانتشر كل مولود، وكُره في الشمس القعود[٨].

❁ ❁ ❁

---

(١) تقرأ بالهاء وقفًا، وكذا ما بعدها.

(٢) القشدة بالكسر: الثخين الذي يبقى أسفل السمن الصافي إذا طبخ مع السويق ـ أو الطحين ـ والتمر، وهي معروفة بهذا الاسم إلى يومنا هذا. انظر: «تاج العروس» (٩/ ٣٥).

(٣) أي: اهدأ عنا، لشدة ما يقاسون منه.

(٤) تقرأ بالسكون وقفًا، وكذا ما بعدها.

(٥) هو ولد الإبل أول النتاج، يولد في الربيع، يوسع الخطو حال المشي.

(٦) هو ولد الإبل آخر النتاج، يولد في الصيف، يمد عنقه حال المشي، فالربع أسرع منه.

(٧) المصرود: من لا يصبر على البرد. والذي في «اللسان»: رجل مصراد.

(٨) انظر: «كتاب الأنواء» لابن قتيبة ص(٧٠)، «المخصص» لابن سيده (٢/ ٣٦٩)، «كتاب الأزمنة» لقطرب ص(١٢٩)، «الأنواء والأزمنة» لابن عاصم ص(١١٠).

المطلب الثاني

في السحاب

السَّحاب والسُّحُب واحده سحابة؛ سميت بذلك؛ لانسحابها في الهواء، أو لسحب بعضها بعضًا، أو لسحب الرياح لها[(١)]، ومثل السحاب: الغيم، وجمعه غيوم، وهو يكون في قليل السحاب وكثيره.

وللسحاب أسماء كثيرة، فمنها: الخال، فإذا رأوا أن السماء قد تغيمت قالوا: قد أخالت، فهي مُخيلة ـ بالضم ـ، والغمام: واحدتها غمامة، وهي الغرة البيضاء من السحاب، ومثله المُزن، ومنه: الضباب، وهو شبه الدُّخان يظلل السماء، ويركب رؤوس الجبال، واحدته ضبابة[(٢)].

والسحاب من آيات الله العظيمة الدالة على ربوبيته وقدرته ورحمته بخلقه، فهو بخار ينشئه الله بالرياح، وهي رياح الجنوب، فهي التي تنشئ السحاب بإذن الله تعالى، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَيَبۡسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ [الروم: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩].

والسحاب عندما ينشأ يكون في غاية الخفة، ثم يؤلف الله تعالى بينه ويضم بعضه إلى بعض، ثم يجعله ركامًا، قال أهل اللغة: أول ما ينشأ

(١) انظر: «تاج العروس» (٣/ ٤٣).
(٢) انظر: «كتاب المطر» ص(١٣)، «الأزمنة والأمكنة» ص(٣٣٠).

السحاب فهو النَّشْء، فإذا انسحب في الهواء فهو السحاب، فإذا تغيرت له وجه السماء فهو الغمام[(١)]، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور: ٤٣، ٤٤].

ثم يحمل الماء والبَرَدَ بتلقيح الرياح التي سمَّاها الله تعالى لواقح، وهي ـ في الأشهر والأغلب ـ الرياح من جهة الجنوب، فتلقح السحاب، كما يلقح الذكر الأنثى، فينشأ عن ذلك الماء الذي تحمله السحاب بإذن الله تعالى[(٢)]. فيصير بحمله الماء أثقل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ [الحجر: ٢٢] وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ [الرعد: ١٢]، والثقال: جمع ثقيلة، لأنك تقول: سحابة ثقيلة، وسحاب ثقال، كما تقول: امرأة كريمة، ونساء كرام؛ وُصف السحاب بذلك لما فيه من الماء الكثير، فإنه يكون ثقيلًا قريبًا من الأرض مدلهمًّا[(٣)].

ثم يأمر الله تعالى الرياح فتحمله على متونها وتسير به حيث أُمرت، فهو مسخر بين السماء والأرض، حامل لأرزاق العباد والحيوان، ومن المعلوم أن طبع الماء ثقيل، يقتضي النزول والانصباب، فكان بقاؤه في

(١) «فقه اللغة» ص(٢٧٤).
(٢) انظر: «كتاب الأنواء» ص(١٦٣ ـ ١٦٤)، «تفسير الطبري» (١٤/ ٢٠)، «تفسير ابن سعدي» ص(٤٣٠).
(٣) «الكشاف» (٢/ ٤٠٣)، «تفسير ابن كثير» (٤/ ٤٦).

جو الهواء مسخرًا بين السماء والأرض أَدَلَّ على قدرة الله تعالى.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

فإذا أفرغ ماءه حيث أُمر، أرسل الله عليه الرياح وهو في الجو فتفرقه فيضمحل ويتلاشى بقدرة الله تعالى(١)، والغالب أن الرياح التي تقشع السحاب ريح الشمال، قال ابن عاصم: «ومن خواص الشمال: أنها تقشع الغيم، وتجيء بالبرد، وتمسك الثرى، وأنها صاحبة الضباب، وتصبح الأرض عنها كأنها ممطورة، وتصبح الغصون تقطر، وأكثر ما يكون ذلك عن غبِّ المطر، فإذا ارتفعت الشمس ذهب النَّدى وتقطع الضباب، وليس من الرياح شيء أكثر عجاجًا ولا أكثر سحابًا لا مطر فيه منها، ولا من الرياح أدوم في الشتاء والصيف منها»(٢).

وللرياح اتصال وثيق بالسحاب منذ ينشأ ثم يحمل الماء ثم يسير إلى حيث شاء الله، ثم يفرغ ماءه ثم يتفرق، فكم سُخِّرَ له من الرياح من أول نشأته إلى أن يُمطر؟! ورياح الرحمة هي المبشرات والناشرات والذاريات والمرسلات والرخاء واللواقح، ولهذا جاء الإخبار عنها في القرآن بصيغة الجمع ـ كما تقدم ـ؛ لاختلاف منافعها واتجاهها، بخلاف ريح العذاب، فإنها ريح واحدة(٣).

والسحب تختلف في ألوانها، وهذا يبين سماكتها، كما يبين نوعية

---

(١) انظر: «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٥٧٥)، «التبيان في أيمان القرآن» ص(٤٢٩).

(٢) «الأنواء والأزمنة» ص(١٣٩) وهو مأخوذ من «كتاب الأنواء» لابن قتيبة ص(١٦٢) بتصرف.

(٣) انظر: «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٥٧٢، ٦١٦)، «التبيان في أيمان القرآن» ص(٤٢٦).

محتواها المائي، فمن السحب ما تبدو بيضاء في السماء، وهي تلك السحب الأكثر ارتفاعًا بين أجناس السحب، والمتميزة عمومًا بقلة سماكتها.

ومن السحب ذات لون رمادي فاتح، وهي تشمل السحب المتوسطة الارتفاع والمنخفضة الارتفاع، وهي المكونة من قطيرات مائية مسيطرة على الأقل في نصفها السفلي إذا لم تكن جميعها مائية.

ومن السحب ما تتميز بسوادها، أو بقتامة لونها كما تبدو من سطح الأرض، وتتميز بسماكتها الكبيرة الدالة على وفرة حمولتها المائية[١].

فتأمل هذه الآية العظيمة من دلائل القدرة والحكمة، وهي إنشاء السحاب من العدم، ثم حمله الماء والبَرَدَ على ظهور الرياح، وإمساكه بين السماء والأرض بغير عماد مع ثقله بما يحمل من المياه العظيمة، ثم اختلاف ألوانه الدال على ما فيه من الماء.

فسبحان من أغاث بقطره العباد، وأحيا به البلاد، وصَرَّفَهُ بين خلقه كما أراد!

ثم تأمل هذه السحب العظيمة المظلمة، لو دامت لعظم ضررها حيث تستر ضوء الشمس، وتكثر الأمطار، فتنقطع السبل وتنهدم البيوت[٢]، ويتأثر الإنسان والحيوان والنبات، ولو انقطع السحاب لكان ضرره أعظم، فيحصل القحط، وينقطع النبات، وتنقص الأرزاق، وتغور الآبار[٣].

❁ ❁ ❁

(١) انظر: «كتاب الأنواء» لابن قتيبة ص(١٦٩)، «الأنواء والأزمنة» لابن عاصم ص(١٤٠)، «بدائع السماء» ص(٢٠٩).

(٢) وقد حصل ذلك في سنة ١٣٧٦هـ على منطقة القصيم وما جاورها، وهو ما يسمى «سنة الغرقة» أو «سنة الهدام»، انظر وصفها في تاريخ أستاذنا الشيخ إبراهيم العبيد رَحِمَهُ اللهُ: «تذكرة أولي النهى والعرفان» (٥/ ١٦٤).

(٣) انظر: «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٦٣٩).

المطلب الثالث

في البرق والرعد

البرق: من برق الشيء برقًا وبريقًا: إذا لمع وتلألأ، وبرقت السماء تبرق: لمعت أو جاءت ببرق، وبرق البرق: إذا بدا، وأبرق القوم إبراقًا: إذا أصابهم البرق، واستوقد البرق استيقادًا، وهو تداركه لا يسكت[(١)]. والبرق: ما نراه يلمع في السحاب.

أما **الرعد** فهو من رَعَدَتِ السماء ترعُد وترعَد رعدًا، وأرعدت: صوَّتت للإمطار، وأرعد القوم: إذا أصابهم الرعد[(٢)]. والرعد عبارة عن الصوت الذي يُسمع من السحاب[(٣)]، وسمي هذا الصوت رعدًا؛ لأنه يُرْعَدُ سامعه، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾﴾ [الرعد: ١٢]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور: ٤٣، ٤٤].

والمعنى: أن الله تعالى يأمر الرياح فتسوق سحابًا ثم يؤلف بين هذه السُّحب، فيتراكم بعضها فوق بعض، فتصبح كالجبال، فإذا استمرت

(١) انظر: «كتاب المطر» لأبي زيد ص(١٢)، «تاج العروس» (٢٥/٣٨).
(٢) انظر: «كتاب المطر» ص(١٠)، «تاج العروس» (٨/١٠٣).
(٣) انظر: «لسان العرب» (١٥/١٢٩)، «المحرر الوجيز» (٥/١٩٠)، «البحر المحيط» (١/٣٥١)، (١٦/٣٤٦).

الرياح تَـحَوَّلَ هذا البخار إلى بَرَد في أعالي السحابة، وتنزل قطرات المياه الكثيرة «الودق» من هذه السحابة الركامية.

وجاء في «جامع الترمذي» حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: أقبلت يهود إلى النبي ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم أخبرنا عن الرعد ما هو؟ قال: «**ملك من الملائكة موكل بالسحاب، معه مخاريق من نار، يسوق بها السحاب حيث شاء الله**» فقالوا: فما هذا الصوت الذي نسمع؟ قال: «**زجره بالسحاب إذا زجره حتى ينتهي إلى حيث أُمر**» قالوا: صدقت[(١)]...، فالحديث صريح في أن الرعد ملك، وأن البرق مخاريق بيده يسوق بها السحاب، وهذا مروي ـ أيضًا ـ عن ابن عباس وعلي رضي الله عنهم[(٢)]. والمخاريق جمع مِخراق: بكسر ميمٍ وإعجام خاءٍ: المنديل يُفتل يُتضارب به، أراد أنه آلة تزجر بها الملائكة السحاب وتسوقه[(٣)].

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية هذا الحديث، ثم قال: «وقد روي عن بعض السلف أقوال لا تخالف ذلك، كقول من يقول: إن الرعد اصطكاك أجرام السحاب، بسبب انضغاط الهواء فيه، فإن هذا لا يناقض ذلك..»[(٤)].

---

(١) «جامع الترمذي» (٥/ ١٩٣)، ورواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٢٨٤ ـ ٢٨٥) من طريق بكير بن شهاب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب». والحديث طويل وهو حديث حسن، لكن قصة الرعد تفرَّد بها بكير بن شهاب، ولم يروِ عنه سوى اثنين، وقال أبو حاتم: شيخ. وقد حسنه الألباني في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١٨٧٢)، لأن له شاهدًا من حديث خزيمة بن ثابت، وليس بالأنصاري.

(٢) روى ذلك الطبري في «تفسيره» (١/ ١٥٠)، وذكره الخرائطي «مكارم الأخلاق» (٢/ ٩٣٧ ـ ٩٤٠)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٣/ ٣٦٣).

(٣) انظر: «الفائق» (١/ ٣٦٣)، «النهاية» (٢/ ٢٦).

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٤/ ٢٦٣ ـ ٢٦٤)، «البحر المحيط» (١/ ٣٥٠ ـ ٣٥٣).

وقد ذكر الله تعالى الرعد في موضعين من القرآن، أحدهما في قوله تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ [الرعد: ١٣]، وهذا قد يؤيد أن الرعد ليس بملك، ويدل له قوله تعالى: ﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ [البقرة: ١٩]، وهذا الموضع الثاني، والذين قالوا: إنه ملك أجابوا بأن ذِكْرَ الملائكة بعد الرعد ـ وهو من الملائكة ـ من باب عطف العام على الخاص، كما يذكر الجنس بعد النوع[(١)].

ومن الرعد: الصواعق، ومفرده: صاعقة، وهي نار تسقط من السماء في رعد شديد، قال تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ [الرعد: ١٣][(٢)].

وفي البرق والرعد واختلاف ألوان البرق وضعفه وشدته، وفي صوت الرعد وقوته وضعفه من دلائل عجيب قدرة الله تعالى وعظيم سلطانه ما يعجز العقل عن إدراكه، وقد أخبر الله تعالى في القرآن أن إراءتَه خَلْقَهُ البرقَ خوفًا وطمعًا، وإنزالَ الماء من السماء وإحياءَ الأرض به، من آيات الله الدالة على قدرته، وأنه المستحق ليُعبد وحده لا شريك له، وجعل ذلك آياتٍ لقوم يعقلون، لأن هذه أمور مرئية بالأبصار، مشاهدة بالحس، فإذا نظر فيها ببصر قلبه ـ وهو عقله ـ استدل بها على وجود الرب تعالى وقدرته وعلمه ورحمته وحكمته، وإمكان ما أخبر به من إحياء الخلائق بعد موتهم، كما أحيا هذه الأرض بعد موتها، وهذه أمور لا تدرك إلا ببصر القلب ـ وهو العقل ـ، فإن الحِسَّ دل على الآية، والعقل دل على ما جُعلت آية له، فذكر سبحانه الآية المشهودة بالبصر، والمدلولة عليه المشهودة بالعقل، فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ

(١) «البحر المحيط» (١٦/ ٣٤٥)، «تاج العروس» (٨/ ١٠٣).

(٢) انظر: «كتاب المطر» ص(١١)، «الأزمنة والأمكنة» للمرزوقي ص(٢٤٠).

ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٤][١].

فالله تعالى يري خلقه البرق ﴿خَوْفًا﴾ من الصواعق والهدم؛ لأنه قد يكون نذيرًا بسيل مدمر، وقد يحصل منه ضرر على بعض الثمار والأقوات، ﴿وَطَمَعًا﴾ في خيره ونفعه، فقد يعقبه المطر الذي به نفع العباد والبلاد[٢].

هذا، وقد أعطى العرب لكل ظاهرة من أنواع البرق والرعد أسماء معينة، تحدد درجة قوتها وشدتها وحالتها، وما يتعلق بذلك من وجود المطر أو عدمه، أو كثرته أو قلته.

وكلما كان الرعد قويًّا متواصلًا أعقبه ـ في الغالب ـ مطر شديد الغزارة لوقتٍ محدود، وأما الرعد ذو الصوت الضعيف (الأزيز) فمتبوع بمطر أقل غزارة وأكثر ديمومة.

وكان العرب يعتمدون على وضع البرق وامتداده وتشعبه من جهة، وطريقة لمعانه وشدته من جهة أخرى في الاستدلال على الحالة الجوية اللاحقة له، هل هي ماطرة أو لا؟ واختلاف اللون في نظر الأقدمين من نتاج اختلاف كثافة مكونات السحابة الرعدية وحجم مكوناتها[٣].

---

(١) انظر: «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٥٣٤ ـ ٥٣٥).
(٢) انظر: «تفسير ابن سعدي» ص(٤١٥).
(٣) انظر: «كتاب المطر» ص(١٠)، «الأزمنة والأمكنة» للمرزوقي ص(٣٣٦)، «فقه اللغة وسِرُّ العربية» ص(٢٧٦)، «العواصف الرعدية» ص(١٧٢ ـ ١٧٣).

المطلب الرابع

في نعمة المطر

المطر من نِعم الله على خلقه، ماء طهور مبارك، عذب فرات، به حياة الأرض وزينتها، وبه قِوام الإنسان والحيوان والنبات، وهو من أعظم آيات الله في الكون، وصفه الله تعالى بالرحمة، وأرسل الرياح مبشرات بالخيرات والأرزاق، ومُؤذنةً بزوال القنوط والقحط، وباعثةً الفرحَ والسعادةَ في نفوس الناس، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرًا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَلِتَجۡرِىَ ٱلۡفُلۡكُ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [الروم: ٤٦].

وروي عن أبي بن كعب رضي الله عنه، قال: «كل شي في القرآن من الرياح فهي رحمة، وكل شي في القرآن من الريح فهو عذاب»[١].

والرحمة في الآية الكريمة هي: المطر، كما ذهب إليه أكثر المفسرين[٢]، فقوله: ﴿بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾ أي: بين يدي المطر، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلۡوَلِىُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡىِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡىِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٥٠].

وسمِّي المطر رحمة؛ لأنه من أتم النعم وأجلِّها وأحسنها أثرًا،

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ١٩٠ ـ ١٩١)، وحسَّن إسناده محقق الكتاب.

(٢) انظر: «تفسير الطبري» (١٢/ ٤٩٢)، «تفسير ابن كثير» (٤/ ٤٦).

وهو أصل دوام الحياة، لما يترتب عليه بحسب جري العادة من المنافع للإنسان والحيوان والنبات وغير ذلك(١).

وقد امتن الله على خلقه بالمطر، وذكره في آيات كثيرة من القرآن، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجاثية: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾ [ق: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٨، ٤٩]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [الحج: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الزخرف: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾ [النبأ: ١٤ ـ ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨].

وقد ذكر الله تعالى في القرآن صفةَ نشأةِ الأمطار، والأحوال التي تمر بها بقدرة الله تعالى وعلمه وحكمته، فينشأ السحاب ثم تلقحه الرياح فينقلب ماء غزيرًا ينزله الله على الأرض، كما تقدم.

ومن رحمته بخلقه إنزاله المطر قطرات صغيرة، ولو صبَّه صبًّا لخدش الأرض وأتلف الزرع، فسبحانه ما أعظم شأنه، وأعز سلطانه، وأوضح برهانه(٢)!

---

(١) «الكشاف» (٢/ ٤٥١)، «روح المعاني» (٨/ ٤٥).

(٢) «عجائب المخلوقات» للقزويني (١/ ١٦٩).

وتأمل اختلاف الأمطار من وقت إلى وقت، ومن مكان إلى مكان، فتارة تكون القطرات كبيرة، وتارة تكون صغيرة، وتارة تكون متقاربة، وأخرى تكون متباعدة، وتارة تدوم مدة نزول المطر زمانًا طويلًا، وتارة قليلًا.

وأول أسماء المطر: القِطْقِطُ، وهو أصغر المطر، والرَّذاذ فوق القطقط، ومنه الطَّشُّ فوق القطقط، والرذاذ، ومن المطر: الدِّيمة، وهي المطر الدائم الذي ليس فيه رعد ولا برق، والوليُّ المطر بعد المطر في كل حين، والغيث اسم للمطر كله، وجماعه الغيوث(١).

أوقات الأمطار:

من العرب من يجعل السنة بالنظر إلى وقت المطر ستة أزمنة: ثلاثة للشتاء، وهي: الوسمي، ثم الشتوي، ثم الربيع، وبعضهم يقول: الدَّفَئِيُّ؛ لأنه يأتي في دبر الشتاء وقبل الصيف وابتداء الدفء، وثلاثة للصيف، وهي: الصيف، ثم الحميم، ثم الخريف.

وهذه الأسماء ليست من أسماء الأزمنة، ولكنها أسماء أمطارها، وذكر أبو زيد الأنصاري: أن كل مطر من الوسمي إلى الدَّفَئِيُّ ربيع، وقال ابن قتيبة: إن العرب تسمي المطر أي وقت سقط ربيعًا حتى الحميم، وهو مطر القيظ(٢).

وهذه إشارات إلى بعض هذه الأزمنة:

(١) انظر: «كتاب المطر» ص(٥ ـ ٩) ففيه أسماء كثيرة للمطر.

(٢) انظر تفصيل ذلك في: «كتاب المطر» لأبي زيد ص(٤)، «كتاب الأزمنة» لقطرب ص(١٢٤ ـ ١٢٧)، «كتاب الأنواء» لابن قتيبة ص(١١٨)، «الأزمنة والأمكنة» للمرزوقي ص(١٤٦).

١ ـ فأمطار الوسم أو الوسمي: ما ينزل في هذا الوقت، والوسم: مدة زمنية تبدأ مع نهاية نجم سهيل، وتنتهي مع بداية المربعانية، وعدد أيامه «٥٢ يومًا»، موزعة على أربعة نجوم، وهي: العَوَّاء والسِّماك والغَفْر والزُّبانى[(١)]، وكل نجم مدته ثلاثة عشر يومًا، كما تقدم.

سمي الوسم بذلك؛ لأن مطره يَسِمُ الأرض بالنبات والخضرة، يقال: وُسِمت الأرض تُوسَمُ وسمًا: إذا أصابها الوسمي، فهي أرض موسومة، هذا هو المشهور، وقيل: من وسم العرب لإبلهم في هذا الوقت؛ لأنها تختلط في المرعى[(٢)].

وإذا نزل المطر في الوسم، دل على أن السنة سنة ربيع، إذا تتابع نزول المطر أيام الوسم، وتتابع في المربعانية، وأنزل الله البركة، لأن الوسمي لا ينفع إلا بالوَلْي، وهو المطر الذي يأتي بعد الوسمي؛ ذلك أن أول الوسمي يقع وللحر سلطان فيعجل النبات، وإن لم يأت الوَلْيُ جفَّ، فإذا أمطرت السماء ستة أمطار سيلية سميت السنة: ربيعية.

ومطر الوسم تقبله الأرض، لعطشها ويتغلغل إلى باطنها، فيروي الأرض ويحييها، ولذا يقولون: مطر الوسمي ألين وأبلغ في الأرض وأروى. وإذا وافق الدفء فإن النباتات الصحراوية تظهر سريعًا، ومن أمطار الوسم تخصب الأرض، وتنبت الكمأة، ـ كما سيأتي ـ.

٢ ـ أمطار الشتاء، وهي واقعة في المربعانية والشبط، وأول المربعانية من الوسم، كما تقدم، والأمطار الشتوية ناعمة وخفيفة، وقليلة الرعد والبرق، وحبة المطر فيها صغيرة ـ غالبًا ـ وهي عامة في مناطق

---

(١) راجع لمعرفة هذه النجوم: «كتاب الأنواء» لابن قتيبة ص(٦٠) وما بعدها.
(٢) «الأنواء والأزمنة» لابن عاصم ص(١٢١)، والتعليل الثاني من تعليقات الدكتور خالد الزعاق.

مختلفة، وليس لها وقت معين، فتمطر صباحًا ومساءًا، وسحبها تكون منفرشة على وجه السماء.

٣ ـ أمطار الصيف، وهي تنزل عادة في موسم العقارب والحميمين والتويبع، وأمطار الصيف تكون غزيرة غالبًا، وهي محلية حيث تهطل في منطقة دون أخرى، أو في مكان دون آخر من المدن، وسحبها تتكون بسرعة في الغالب بعد الظهر ومع العصر وتمتد إلى أول الليل، وتنقشع سريعًا، ولذا قالوا: مطر الصيف أشد وابلًا، وأشد سيلًا، وأقل دوامًا، وتسمى بالسرايات؛ لأنه إذا حل الليل تسري إلى مكان آخر.

ويسبق سحب الصيف ـ غالبًا ـ برق ورعد وصواعق، وعواصف ورياح قوية يسمونها الغربي تهب من الغرب، يعقب ذلك زخات من المطر الغزير المشوب أحيانًا بالبرد، وسحاب الصيف يكون قريبًا من الأرض، خلاف سحاب الشتاء فإنه يكون عاليًا، وتكون السحب فيه قادمة من الغرب إلى الشرق.

وأمطار الصيف لا تنبت نباتات جديدة، وإنما تطيل فترة اخضرار الربيع، وتحيي السِّبَط، والعرفج، والثمام، والشيح، والقيصوم، وتلطف الأجواء، فتكون باردة وناعمة.

وقد يأذن الله تعالى أحيانًا بنزول أمطار في شهر أغسطس في ذروة الصيف في بعض ديار نجد، وهو قليل، وتكون السحب فيه قادمة من الشرق إلى الغرب.

وبنهاية أمطار الصيف ينتهي موسم الأمطار خلال العام على شمال ووسط وشرق المملكة[١].

---

(١) انظر: «كتاب الأنواء» لابن قتيبة ص(١١٤، ١١٦ ـ ١١٨)، «الأنواء والأزمنة» لابن عاصم ص(٦٠)، «الأزمنة والأمكنة» للمرزوقي ص(٣٢٣)، «الجغرافيا النباتية للمملكة العربية السعودية» ص(١٢٦)، تقويم الزعاق عام ١٤٣٥هـ، ١٤٤١هـ، ١٤٤٢هـ.

وإذا كان المطر مبعث الخير والأرزاق، فإن على المسلمين إذا نزل المطر أن يسألوا الله تعالى البركة فيه، فإن المعول على نزول البركة وكثرة الخيرات والأرزاق لا على نزول المطر، وقد سمى الله المطر رزقًا، فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجاثية: ٥]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣].

وقد ينزل المطر ويتوالى ثم لا تُنبت الأرض شيئًا، قال النبي ﷺ: «**ليست السنة بأن لا تُمطروا، ولكن السنة أن تمطروا، وتمطروا، ولا تنبت الأرض شيئًا**»(١)، وقد بوَّب ابن حبان في «صحيحه»(٢) على هذا الحديث بقوله: «ذِكْرُ الإخبار عما يجب على المسلمين من سؤالهم رَبَّهم أن يبارك لهم في رَيْعِهِمْ دون اتكالهم منه على الأمطار».

قال القاضي البيضاوي على الحديث المذكور: «معناه: أن القحط الشديد ليس بألا تمطروا، بل بأن تمطروا، ولا يُنبت، وذلك لأن حصول الشدة بعد توقع الرخاء وظهور مخايله وأسبابه أقطع مما إذا كان اليأس حاصلًا من أول الأمر، والنفس مترقبة لحدوثها»(٣).

وقد ذكر الإمام مسلم هذا الحديث ضمن أحاديث الفتن وأشراط الساعة، إشارة ـ والله أعلم ـ إلى أن عدم إنبات الأرض مع وجود المطر من الفتن التي تكون عند قرب الساعة(٤).

---

(١) رواه مسلم (٢٩٠٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) (٣/ ٢٧٦).
(٣) «تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة» للبيضاوي (١/ ٤١١).
(٤) انظر: «البحر المحيط الثجاج» (٤٤/ ٣٦٢).

وقد جاء في بعض الأحاديث الإشارة إلى كثرة الأمطار وقلة النبات وأن هذا من أشراط الساعة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى يُمْطَرَ الناس مطرًا لا تُكِنُّ منه بيوت المَدَرِ، ولا تُكِنُّ منه إلا بيوت الشَّعر**»[(١)]، قال السِّندي: (أي: لا تستر منه شيئًا، أي: إن ذلك المطر ينزل من بيوت المدر ـ وهي بيوت الطين ـ ولا تمنع بيوت المدر من نزوله، ولا ينزل من بيوت الشعر، وهو تعالى قادر على كل شيء)[(٢)].

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى يمطر الناس مطرًا عامًّا، ولا تنبت الأرض شيئًا**»[(٣)].

وقد جعل الله تعالى المطر سببًا في إنبات الأرض، ومتى وجد السبب، وانتفت الموانع لزم وجود حكم السبب، ولله تعالى أن يوجِد ما يمنع هذا السبب من ترتب المسبَّب عليه، وهو ـ سبحانه ـ خالق الأسباب ومسبباتها لا يعجزه شيء[(٤)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنها ستأتي على الناس سِنُونَ خَدَّاعة**...»، وفي لفظ: «**قبل الساعة سنون خدَّاعة**»[(٥)]، وقد

---

(١) رواه أحمد (١٣/ ١١ ـ ١٢)، وابن حبان (٥٧٧٠)، وإسناده صحيح، وانظر: «البداية والنهاية» (١٩/ ٢٦٩)، «تعليق أحمد شاكر على المسند» (١٣/ ٢٩١).

(٢) «حاشية السندي على المسند» (٥/ ٢٤٧).

(٣) رواه أحمد (١٩/ ٤١٧)، وهو حديث صحيح بطرقه، وانظر: «المسند» (١٢/ ٤٣٨)، «البداية والنهاية» (١٩/ ٢٧٦).

(٤) انظر: «مفتاح دار السعادة» (١/ ٢٧١)، «أشراط الساعة» تأليف: يوسف الوابل ص(٢٠٤).

(٥) رواه أحمد (١٣/ ٢٩١)، وابن ماجه (٤٠٣٦)، من طريق عبد الملك بن قدامة، عن إسحاق بن أبي الفرات، عن المقبري، عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا. وهذا سند ضعيف؛ لضعف عبد الملك، وجهالة إسحاق، ورواه أحمد (١٤/ ١٧١) من طريق فليح، عن سعيد بن عبيد بن السَّبَّاق، عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا. وهذا سند =

فسِّرت هذه السِّنُونَ بأنها التي يكثر فيها المطر ولا تُنبت الأرض شيئًا، قال السندي: «قوله: «**خدَّاعة**»: بتشديد الدال للمبالغة، قيل: أي: تكثر فيها الأمطار، ويقل الرَّيْعُ، فذلك خداعها؛ لأنها تُطمعهم بالخير، ثم تُخلف، وقيل: الخداعة: القليلة المطر، من خَدَعَ الريقُ: إذا نقص وجَفَّ»(١).

۞ ۞ ۞

= حسن؛ من أجل فليح بن سليمان فهو متكلم فيه، ولعل الحديث يقوى بمجموع طريقيه، وله شاهد من حديث أنس رضي الله عنه، رواه أحمد (٢١/ ٢٥).

(١) «اللسان» (٨/ ٦٥)، «حاشية السندي على المسند» (٥/ ٣٥٤).

المطلب الخامس

قَوْسُ قُزَحَ[١]

تحدث القدامي عن قوس قزح ووصفوه وصفًا علميًّا، وأظهروا أسبابه العامة، والظروف الملائمة لتشكله، وبينوا ألوانه وعددها وآلية انتظامها، والمفاهيمُ الحديثة عن هذا القوس لا تختلف كثيرًا عن المفاهيم التي أظهرها الفكر الجغرافي العربي قديمًا[٢].

وهذا القوس من آيات الله، كما قال ابن حامد الحنبلي[٣]، وهو الخط المنعطف في السماء على صفة القوس، يبدو بحمرة وصفرة وخضرة في مقابلة الشمس عندما تضيء خلال قطرات ماء المطر، بحيث تقع الشمس وعين الرائي ومركز القوس على استقامة واحدة، يظهر القوس نتيجةً لانعكاس أشعة الشمس وانكسارها، وأحيانًا يظهر قوسان، أحدهما أخف من الأساسي، ويقع خارجه[٤].

وقوس قزح لا يُرى دائمًا، وأكثر ما يُرى بالغداة والعشي، فأما نصف النهار فلا يُرى، وأكثر ما يُرى في الخريف، فأما في الصيف فلا

(١) لفظة: قُزَحَ ممنوع من الصرف للعَلَمية والعدل التقديري، وقد ذكر السيوطي في شرحه على «جمع الجوامع» أن ما جاء عَلَمًا وهو معدول تقديرًا محصور بحسب السماع في أربعة عشر اسمًا، فذكر منها لفظة قزح، (١/ ٨٧ ـ ٨٨).

(٢) انظر: «المناخ في التراث الإسلامي» ص(٢٤٣، ٢٥٣).

(٣) «الفروع» (٣/ ٢٣٥).

(٤) «تهذيب اللغة» (٤/ ٢٨)، «تاج العروس» (٧/ ٥٧)، «الموسوعة العربية الميسرة» (٢/ ١٤٠٧).

يُرى[(١)].

وقد جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا: «**لا تقولوا: قوسَ قزحَ؛ فإن قُزَحَ شيطان، ولكن قولوا: قوسُ الله عز وجل، فهو أمان لأهل الأرض من الغرق**»[(٢)].

وفي قُزح ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه اسم شيطان، وسُمي بذلك؛ لأنه يُسوِّل للناس ويُحسِّن إليهم المعاصي، من التقزيح، وهو التحسين.

الثاني: أن القُزح: هي الطرائق والألوان التي في القوس، الواحدة: قُزْحَة.

الثالث: أنها سمِّيت بذلك لارتفاعها، من قزح الشيء وقحز: إذا ارتفع[(٣)].

ولعل وجه النهي في قوله: «**لا تقولوا قوس قزح**» كراهةُ ما كانوا عليه من عادات الجاهلية، وكأنه أحب أن يقال: قوس الله. فيرفع

(١) انظر: «الأزمنة والأمكنة» ص(٣٤٢).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٠٩)، والعقيلي في «الضعفاء» (٢/ ٨٩)، والخطيب في «تاريخه» (٨/ ٤٥٢)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ١٤٤)، وسنده ضعيف، فيه زكريا بن حكيم الحَبَطي، ضعفه ابن معين والنسائي والدارقطني، وقد روي موقوفًا، أخرجه العقيلي في «الضعفاء» (٢/ ٨٩)، ورواه ابن وهب في «الجامع» (٥٦) عن علي رضي الله عنه موقوفًا، وقال محقق الكتاب: «إسناده ضعيف»، ورواه ـ أيضًا ـ (٥٥) عن القاسم بن عبد الرحمن موقوفًا عليه، وحسَّن إسناده محقق الكتاب. قال الألباني رحمه الله: «إذا ثبت أن الحديث موقوف، فالظاهر حينئذٍ أنه من الإسرائيليات التي تلقاها بعض الصحابة عن أهل الكتاب، وموقف المؤمن تجاهها معروف، وهو عدم التصديق ولا التكذيب، إلا إذا خالفت شرعًا أو عقلًا، والله أعلم»، «السلسلة الضعيفة» (٨٧٢).

(٣) «الفائق في غريب الحديث» (٣/ ١٩٠)، «النهاية» (٤/ ٥٧).

قدرها، كما يُقال: بيت الله، وزُوَّار الله، وأرض الله، وسماء الله[(١)].

وبوَّب البخاري في كتابه «الأدب المفرد» بقوله: باب «قوس قزح» وذكر حديث ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «المَجَرَّةُ[(٢)] باب من أبواب السماء، وأما قوس قزحَ فأمان من الغرق بعد قوم نوح عليه السلام»[(٣)].

وكأن مقصود البخاري بهذه الترجمة والأثر الإيماء إلى ضعف الحديث المذكور في النهي عن أن يُقال: قوس قزح[(٤)]، وأنه لا بأس بذلك.

وقد ذكر الثعالبي أنه يقال: «قوس الله» و«قوس السماء» و«قوس قزح» و«قوس السحاب»[(٥)].

وقريب من هذا قول بعض الباحثين المعاصرين: إن التسمية الأفضل لقوس قزح: هي قوس المطر أو قوس الغمام[(٦)]. والله تعالى أعلم.

❁ ❁ ❁

(١) انظر: «الحيوان» (١/ ٣٤٣).
(٢) انظر في الكلام على المجرة: «كتاب الأنواء» لابن قتيبة ص(١٢٣).
(٣) «الأدب المفرد» (٧٦٥)، من طريق يوسف بن مهران عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفًا، وفيه علي بن جدعان ضعيف لا يحتج به، ويوسف بن مهران متكلم فيه، والظاهر أنه لا بأس به فقد وُثِّق، وهو قليل الحديث، وقد تابعه سعيد بن جبير في رواية أخرى عند البخاري ـ أيضًا ـ (٧٦٧) رواه مختصرًا، والطبراني في «الكبير» مطولًا (١٠/ ٢٩٩) وطرقه يقوي بعضها بعضًا.
(٤) انظر: «فضل الله الصمد» (٢/ ٢٣٥)، «معجم المناهي اللفظية» للشيخ بكر أبو زيد ص(٦٧٦).
(٥) «ثمار القلوب» ص(٢٤ ـ ٢٥).
(٦) انظر: «المناخ في التراث الإسلامي» ص(٢٥٥).

المطلب السادس

النبات في فصل الشتاء

من دلائل قدرة الله تعالى وحكمته ورحمته بخلقه أن الفصول الأربعة تختلف نباتاتها وما يزرع فيها، فلفصل الشتاء والربيع ما يناسبهما من النباتات الحولية، وكذا مما يبذر أو يزرع، ولفصل الصيف ما يناسبه كذلك.

وإذا أنعم الله تعالى بالأمطار في أيام الوسم وما بعده، وأنزل البركة، ظهرت النباتات البرية الكثيرة في الصحاري، وزينت الأرض، وصارت السنة سنة ربيع، وإذا توالت الأمطار بقيت النباتات إلى الصيف ترعاها البهائم، كما تقدم، قال أبو تمام:

لَولَا الذِي غَرَسَ الشِّتَاءُ بِكَفِّهِ   قَاسَى المَصِيفُ هَشَائِمًا لا تُثْمِرُ[1]

والنباتات البرية لا تنمو بنجاح إلا إذا نزل المطر في الموسم المناسب، ابتداءً من أمطار الوسمي ثم الوَلْي ثم الشتوي ـ كما تقدم ـ؛ لأن هذه النباتات يرتبط وجودها وكثرتها بكمية سقوط الأمطار.

ومن النباتات الحولية التي تعتمد على الأمطار نباتات مأكولة عند العرب؛ كالبسباس، والحُواء، والذعلوق، والحِمّيض، والخُبَّاز ـ بعد طبخه على هيئة حساء ـ، وغيرها، ومن النباتات غير المأكولة: الربلة،

(١) «ديوانه» ص(١٤٧)، وفي البيت استعارة بلاغية، فقد شبه الشاعر الشتاء بإنسان بجامع النفع وتقديم الخير، ثم حذف المشبه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الغرس أو الكف على سبيل الاستعارة المكنية.

والخُزامى، والأقحوان، وغيرها كثير جدًّا، تكسو الأرض بخضرتها وألوانها وروائحتها، يعرفها بعض العامة ممن أدركناهم، فيسمي كل نبات باسمه، وكذا يعرفها أهل الاختصاص.

ومن النباتات: نباتات مُعمرة؛ كالعرفج، والرمث، والأرطى، وغيرها التي تنمو مع توالي الأمطار وتزهر، وتقوى جذورها وأصولها.

ومع نهاية موسم الأمطار وحلول فصل الجفاف تختفي النباتات الحولية، فيبدأ يبسها واندثارها، لكن يبقى بعضها ـ بقدرة الله تعالى ـ على هيئة بذور كاملة في التربة أو على سطحها حتى موسم الأمطار القادم حيث تنمو وتعود لها الحياة مرة أخرى، وتبقى النباتات المعمرة التي يجعل الله تعالى لبقائها أسبابًا للتغلب على ندرة الأمطار ونقص الرطوبة وبقية الظروف البيئية القاسية(١).

ومن أشهر النباتات: الكمأة: وهي تنمو في الصحاري، وتكثر في السنين الممطرة وخاصة إذا كان المطر غزيرًا في وقت الوسم، فتنمو في باطن الأرض على عمق حوالي (١٠ سم) أو أكثر، وحجمها يختلف بين ما يشبه حبة الحِمِّص وما يصل إلى حجم البرتقالة أو أكبر، سميت كمأة؛ لاستتارها في الأرض، ويطلق عليها عند العامة «الفقع» ـ بفتح الفاء وسكون القاف ـ وهي كلمة عربية فصيحة، لكنها لا تطلق في اللغة على جميع أنواع الكمأة كما هو عند العامة(٢).

وللكمأة عدة أنواع، منها: الزُّبيدي، ولونه يميل إلى البياض، وحجمه كبير قد يصل إلى حجم البرتقالة الكبيرة، وأحيانًا أكبر من ذلك،

---

(١) انظر: «الجغرافيا النباتية للمملكة العربية السعودية» ص(١٣١، ٢٧٧، ٣١٢)، «جغرافية المملكة العربية السعودية» ص(٨٢).

(٢) انظر: «الطب من الكتاب والسُّنَّة» للبغدادي ص(١٥٧ ـ ١٥٨)، «تاج العروس» (٢١/٥٠٧).

ويظهر مع أول دفء شمس الربيع، ومنها: الخلاسي، ولونه أحمر، وهو أصغر من الزبيدي، ولكنه في بعض المناطق ألذ وأغلى في القيمة من الزبيدي، ومنها: الجِبى[١]، ولونه أسود مشوب بحمرة، وهو صغير جدًّا، وهو من النوع الرديء، لأنه لا يخلو من التراب.

وتبدأ تباشير الكمأة بظهور الهوبر بعد أول مطرةٍ بمدة تصل إلى شهرين تقريبًا، ويرجع ذلك إلى نوعية الأرض ومناخها، والهوبر لونه أسود وداخله أبيض، وهذا النوع يظهر قبل ظهور الكمأة الأصلية، وهو يدل على أن الكمأة ستظهر قريبًا، ويعد هذا النوع أردأ أنواع الكمأة ونادرًا ما يؤكل، أما الفقع الصالح للأكل فيكون موجودًا في المنطقة المرادة بعد ثلاثة أشهر تقريبًا من أول مطر الوسم، وجميع أيام الوسم وعشرون يومًا من المربعانية إذا نزل فيها المطر فهو مُنبت للكمأة ـ كما تقدم ـ بشرط تتابع المطر، وكثرة رعد السحابة الممطرة، فكلما كثر الرعد كثرت الكمأة، ولذلك تسمى نباتَ الرعد؛ لأنها تكثر بكثرته، وللكمأة شروط إذا اكتملت ظهر على وجه الأرض:

١ ـ نزول المطر في موسمه.

٢ ـ تتابع نزول المطر.

٣ ـ استمرار الدفء النسبي.

٤ ـ أن تكون السنة غير سنة تالية لسنة توفر فيها الفقع.

٥ ـ أن تكون الأرض مستريحة، لم يطأها حيوان ولم يعبث بها إنسان[٢].

(١) أصلها: الجَبْءُ كما في «التاج» (١/ ١٦٧) ثم خففتها العامة. وانظر: «كلمات قضت» للعبودي (١/ ١١٨، ٢٤٨).
(٢) تقويم الزعاق عام ١٤٣٥هـ.

وقد جاء في حديث سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**الكمأة من المنِّ، وماؤها شفاء للعين**»[(١)]، وقد اختلف في المراد بـ«المنِّ» على أقوال، أظهرها: أنه المَنُّ الذي أنزله الله على بني إسرائيل من النبات الذي يوجد عفوًا، ومن الطير التي تسقط عليهم بغير اصطياد، ومن الطل الذي يسقط على ورق الشجر، والكمأة توجد من غير زرع ولا سقي، فهي ممنون بها من الله تعالى على عباده[(٢)].

وقوله ﷺ: «**وماؤها شفاء للعين**» المراد به: ماؤها حقيقةً ـ على القول الراجح، لكن من أهل العلم من قال: يخلط في الأدوية التي يُكتحل بها، ومنهم من قال: إن الكمأة تؤخذ فتشق وتوضع على الجمر حتى يغلي ماؤها، ثم يؤخذ الميل، فيجعل في ذلك الشق وهو فاتر، فيكتحل بمائها؛ لأن النار تلطفه وتنضجه، وتذيب فضلاته ورطوبته المؤذية، وتبقى المنافع[(٣)].

قال النووي: «والصحيح بل الصواب: أن ماءها مجردًا شفاء للعين مطلقًا، فيعصر ماؤها ويجعل في العين منه، وقد رأيت أنا وغيري في زمننا من كان عَمِيَ وذهب بصره حقيقة، فكحل عينه بماء الكمأة مجردًا، فَشُفِيَ وعاد إليه بصره، وهو الشيخ العدل الأيمن الكمال بن عبد الله الدمشقي صاحب صلاح ورواية للحديث، وكان استعماله لماء الكمأة اعتقادًا في الحديث وتبركًا به، والله أعلم»[(٤)].

---

(١) رواه البخاري (٤٤٧٨)، ومسلم (٢٠٤٩).

(٢) «الإعجاز الطبي في السنة النبوية» ص(١٤٣).

(٣) انظر: «الطب من الكتاب والسُّنَّة» ص(١٥٧، ١٥٨)، «كشف المشكل من حديث الصحيحين» (١/ ٢٥٧ ـ ٢٥٩)، «زاد المعاد» (٤/ ٣٦١ ـ ٣٦٥)، «البحر المحيط الثجاج» (٣٤/ ٣٥٩)، «الإعجاز الطبي في السُّنَّة النبوية» ص(١٤٣ ـ ١٤٦).

(٤) «شرح صحيح مسلم» (١٣/ ٢٤٨).

وقد استقر عند العامة في الديار النجدية ضرر الفقع ونفع الجراد، وضربوا في هذا المثل المشهور عندهم[(١)].

هذا كله في النباتات البرية التي تظهر بعد سقوط الأمطار، أما ما يزرعه الإنسان، فالغالب أن فصل الشتاء لا يزرع فيه شيء لشدة البرد، كما تقدم، لكن ذكر بعض الفلكيين استنادًا إلى كلام المتقدمين أن في فصل الشتاء ستة أيام يطلق عليها: موسم بذرة الست، وهي: أيام صالحة لزراعة جميع الخضروات والحبوب: ثلاثة أيام من آخر الشبط، وثلاثة أيام من أول العقارب، وهي الأيام الوحيدة في السنة التي تختص بهذا، وغالبًا أن ما يبذر فيها يكون ذا جودة عالية، والسبب في هذا -والله أعلم- هو أن التغيرات المناخية خلال هذه المدة الموسومة بالست تكون شديدة على مدار الساعة، فيمر عليها أربعة فصول في يوم واحد، فتكون الأرض قابلةً كُلَّ ما يبذر فيها شتوية كانت أم صيفية[(٢)]، بينما يرى بعض المختصين بعلم المناخ أن الأيام أكثر من كونها ستة، وأنه لا يلزم تقييدها بهذا العدد على وجه التحديد[(٣)]. والعلم عند الله تعالى.

(١) انظر: «الأمثال العامية في نجد» (١/ ١٦٢).

(٢) تقويم الزعاق عام ١٤٣٥هـ.

(٣) سمعت هذا من الدكتور: عبد الله المسند أستاذ المناخ بجامعة القصيم (سابقًا)، ومؤسس ورئيس لجنة تسمية الحالات المناخية المميزة في السعودية (تسميات) حفظه الله.

الفصل الثالث

أحكام الشتاء الخاصة ببعض العبادات

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الأحكام المتعلقة بالطهارة.

المطلب الثاني: الأحكام المتعلقة بالصلاة.

المطلب الثالث: من الأدعية والأذكار في فصل الشتاء.

المطلب الأول

الأحكام المتعلِّقة بالطهارة

وفيه ستُّ مسائل:

المسألة الأولى: إسباغ الوضوء:

يتأكد في فصل الشتاء الحرص على إسباغ الوضوء، وإفاضة الماء على الأعضاء تامًّا كاملًا ولو كان باردًا. وقد يتساهل بعض الناس أيام الشتاء في الوضوء إذا كان الماء باردًا، فلا يُمِرُّ الماء على العضو، بل قد يكون إلى المسح أقرب، وهذا فيه إخلال بالوضوء الواجب الذي لا تصح الصلاة إلا به؛ لأنه قد مسح عضوًا يلزمه غسله فلا وضوء له ولا صلاة.

وقد روى مسلم في «صحيحه» عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟**» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «**إسباغ الوضوء على المكاره**... » الحديث[(١)].

وروى سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عُبيد بن عُمير قال: «مِنْ صِدْق الإيمان وبِرِّه: إسباغ الوضوء في المكاره»[(٢)].

وإسباغ الوضوء: إكماله وإتمامه، قال القرطبي: «أي: تكميله وإيعابه مع شدة البرد وألم الجسم ونحوه»[(٣)]، والمكاره: ما يكرهه

(١) «صحيح مسلم» (٢٥١)، وسيأتي بتمامه ـ إن شاء الله ـ.
(٢) رواه ابن أبي شيبة (١٩/٣٠٩)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٣/٢٦٨).
(٣) «المُفهم» (١/٥٠٧).

الإنسان، والمراد هنا: أن يتوضأ مع البرد الشديد، أو الحر الشديد، أو العلل التي يتأذى معها بمسِّ الماء... وغير ذلك[١].

ومشقة البرد والوضوء بالماء البارد مشقة لا تنفك عنها العبادة، وتسمى: المشقة الطبيعية في الحدود العادية، وهي لا تنافي التكليف، ولا توجب التخفيف، لأن التخفيف فيها عندئذٍ إهمال وتفريط[٢].

وقد روى الإمام أحمد من طريق الشعبي عن رجل من ثقيف قال: «سألنا رسول الله ﷺ ثلاثًا، فلم يرخِّص لنا، فقلنا: إن أرضنا أرض باردة، فسألناه أن يرخص لنا في الطُّهور، فلم يرخص لنا...»[٣].

قال السندي: «قوله: «في الطُّهور» ـ بضم الطاء ـ، أي: في تخفيفه في الاغتسال أو الوضوء، أو تركه»[٤].

ومن إسباغ الوضوء الحرص على فَسْرِ[٥] اليد إلى ما فوق المرفقين فسرًا كاملًا؛ ليتيقن غسل اليد مع المرفقين؛ لأن هذا من فروض الوضوء، قال تعالى: ﴿فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾ [المائدة: ٦]، ولم ينقل عن النبي ﷺ أنه أخلَّ فترك غسل المرفقين، فكل من نقل لنا صفة وضوئه ﷺ ذكر غسل المرفقين، فيكون ذلك بيانًا للآية

(١) انظر: «التمهيد» (٢٠/ ٢٢٢)، «الاستذكار» (٦/ ٢١٨ ـ ٢١٩)، «النهاية» (٤/ ١٦٨ ـ ١٦٩).
(٢) انظر: «القواعد الفقهية الكبرى» للدكتور: صالح السدلان ص(٢٢٩).
(٣) «المسند» (٢٩/ ٧١ ـ ٧٢)، (٣١/ ٦٩)، ورواه ـ أيضًا ـ سعيد بن منصور في «سننه» (٢٨٠٨)، وابن سعد في «الطبقات» (٧/ ١٥ ـ ١٦)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٣/ ٢٧٨)، وليست عندهما مسألة الطُّهور، والحديث في سنده مغيرة بن مقسم الضَّبي، وهو ثقة، لكن في روايته عن إبراهيم النخعي كلام. انظر: «تهذيب الكمال» (٢٨/ ٣٩٧).
(٤) «حاشية السندي على مسند الإمام أحمد» (١٠/ ٢٤٣).
(٥) الفَسْر: الإبانة والإيضاح وكشف المغطَّى. انظر: «المصباح المنير» ص(٤٧٢).

الكريمة[١]. وإذا لم يَفْسُر أَكْمَامه فقد يؤدي إلى ترك شيء من الذراع بلا غسل، فيكون الوضوء غير صحيح[٢]. والله تعالى أعلم.

المسألة الثانية: الوضوء بالماء الساخن:

لا حرج على الإنسان في أيام الشتاء أن يتوضأ بالماء الساخن، وهذا أمرٌ مجمع عليه، إلا ما روي عن مجاهد أنه كره الوضوء بالماء الساخن[٣]، وهذا ـ إن ثبت عنه ـ خلاف شاذٌّ لم يُتابعه عليه أحد[٤]، قال ابن المنذر: «وليس لكراهيته لذلك معنى»، وقال: «الماء الساخن داخل في جملة المياه التي أُمِرَ الناس أن يتطهروا بها»[٥].

وقد جاء عن السلف عدة آثار في تسخين الماء للوضوء أو الغُسل، قال ابن المنذر: «وممن روِّينا عنه أنه رأى الوضوء بالماء الساخن: عمر بن الخطاب، وابن عمر، وابن عباس، وأنس بن مالك رضي الله عنهم»[٦]. وكذا صح عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه كما رواه ابن المنذر، وأبو عبيد[٧].

وقد ذكر أبو عبيد في «الطهور» أن الماء البارد والماء الساخن لا يفترقان في التطهير، فإن كان بينهما فرق فهو في الفضيلة، على أن الأُبِّي قال: «تسخين الماء لدفع برده ليَقوَى على العبادة لا يمنع من حصول الثواب المذكور»[٨]. والله تعالى أعلم.

(١) انظر: «الاستذكار» (٢/ ٢٣)، «موسوعة أحكام الطهارة» (١٠/ ٤٩١).
(٢) «فتاوى ابن عثيمين» (٤/ ١٥٢).
(٣) رواه ابن أبي شيبة بسنده عن مجاهد (١/ ٢٥)، وفي سنده ليث بن أبي سليم، وهو ضعيف.
(٤) انظر: «موسوعة الإجماع في الفقه الإسلامي» (١/ ١٣١ ـ ١٣٢).
(٥) «الأوسط» (١/ ٢٥٠، ٢٥٢).
(٦) «الأوسط» (١/ ٢٥١).
(٧) «الطهور» لأبي عُبيد (٣٠٨).
(٨) «شرح صحيح مسلم» للأُبِّي (٢/ ٥٤).

المسألة الثالثة: المسح على الخفين:

المسح على الحوائل من الخفاف والجوارب ونحوها من نعم الله تعالى ورحمته بعباده وتيسيره عليهم، فإن الناس في الشتاء يحتاجون كثيرًا إلى لُبس ما يدفئ القدم من الأخفاف والجوارب كالشرَّاب ونحوها.

وكل ما ستر القدم جاز المسح عليه، إذا لُبِسَ على طهارة مائية، وتَقيَّد الماسح بالمدة المحددة وهي يوم وليلة للمقيم، وثلاثة أيام بلياليها للمسافر، وليست العبرة بعدد الصلوات كما قد يتوهم بعض العامة أن المسح خمسة فروض؛ لأن الماسح قد يمسح أكثر من خمس صلوات. وإنما العبرة بالزمن، فيمسح المقيم أربعًا وعشرين ساعة، والمسافر اثنتين وسبعين ساعة، لقول عمر رضي الله عنه: «يمسح عليهما إلى مثل ساعته من يومه وليلته»[(١)].

وتبتدئ المدة من أول مرة يمسح ولو لم يسبق ذلك حدث ـ على الراجح ـ وليس من لُبْسِ الخف، ولا من الحدث بعد اللبس؛ لأن الشرع جاء بلفظ المسح: «**يمسح المقيم يومًا وليلة**...»[(٢)]، فإذا تمت أربع وعشرون ساعة للمقيم واثنتان وسبعون ساعة للمسافر انتهت مدة المسح، فإذا توضأ لصلاة الفجر ـ مثلًا ـ ولبس الشرَّاب، وبقي على طهارته إلى الساعة الثامنة ضحى، ثم أحدث، ثم توضأ الساعة الثانية عشرة ظهرًا ومسح على شرَّابه، فإن المدة تبدأ من الثانية عشرة ظهرًا إلى مثلها من اليوم الثاني للمقيم، ومن اليوم الرابع للمسافر، ولو مسح بعد تمام المدة فمسحه باطل، ولو كان ناسيًا انتهاء المدة، وعليه أن يتوضأ ويغسل رجليه ويعيد الصلاة التي صلاها بالمسح الذي انتهت مدته؛ لأنه صلَّى بوضوء ناقص غير تام. لكن لو مسح قبل تمام المدة، ثم استمر على

(١) رواه عبد الرزاق في «مصنفه» (١/ ٢٠٩).
(٢) راجع باب «المسح على الخفين» في «بلوغ المرام» وغيره من كتب أحاديث الأحكام.

طهارته بعد تمام المدة، فإن طهارته باقية، ولا ينتقض وضوؤه بتمام المدة حتى يحصل ناقض من نواقض الوضوء.

وإذا توضأ ومسح على خفيه أو شرَّابه ونحوهما ثم خلعهما ففي بطلان طهارته ثلاثة أقوال:

الأول: أنه تبطل طهارته، وعليه أن يتوضأ، وهذا قول جماعة من السلف، ومنهم النخعي ـ في قول له ـ، وابن سيرين والزهري والأوزاعي وإسحاق، وهو قول الشافعي في القديم، وأحمد في أصح الروايتين عنه، وهو المشهور المعتمد عند الحنابلة، وحكي عن أحمد أنه قال: يتوضأ احتياطًا، واختار هذا القول الشيخ عبد العزيز ابن باز، واستدلوا بأنه لما زال الممسوح بطلت طهارة القدمين، فتبطل في جميع الأعضاء، فيعيد الوضوء؛ لأن الطهارة لا تتبعض[(١)].

والقول الثاني: يبطل المسح، ويلزمه غسل قدميه فقط، وهذا القول الثاني للنخعي، وهو قول الحنفية، والشافعي في الجديد، ورواية عن أحمد، وهو قول مالك، والليث، إلا أنهما اشترطا ألا يطول الفصل، فإن أخَّر حتى طال الفصل استأنف الوضوء؛ لفقد شرط الموالاة، واستدلوا بالقياس على التيمم إذا بطل برؤية الماء وجب ما ناب عنه، فكذا المسح على الخفين ناب عن غسل الرِّجلين خاصة، فظهورهما يبطل ما ناب عنهما[(٢)].

والقول الثالث: أن الطهارة لا تبطل بخلع الخف حتى يوجد ناقض

---

(١) انظر: «مسائل الإمام أحمد وإسحاق»، برواية المروزي (٢/ ٢٨٦، ٤٠٣ ـ ٤٠٤)، «اختلاف العلماء» للمروزي ص(١٥٣)، «المغني» (١/ ٣٦٧)، «المجموع» (١/ ٥٢٦)، «فتاوى ابن باز» (١٠/ ١١٣).

(٢) «مصنف ابن أبي شيبة» (١/ ١٨٧ ـ ١٨٨)، و«عبد الرزاق» (١/ ٢١٠ ـ ٢١١)، وانظر: «المدونة» (١/ ٤٥)، «مختصر اختلاف العلماء»، (١/ ١٤٠)، «بدائع الصنائع» (١/ ١٢)، «قواعد ابن رجب» (١/ ٧٣).

من نواقض الوضوء، وبه قال طائفة من السلف منهم: النخعي في قول ثالث، والحسن البصري، وعطاء، وغيرهم. كما حكاه ابن المنذر، واختاره[١]، ونصره ابن حزم[٢]، واختاره شيخ الإسلام ابن تيمية، والشيخ محمد العثيمين[٣]، واستدلوا بما يلي:

١ ـ أن خلع الخف ليس حدثًا حتى يكون ناقضًا للطهارة الثابتة، فلم يذكر من الأحداث المتفق عليها ولا المختلف فيها.

٢ ـ أن الطهارة ثبتت بمقتضى دليل شرعي كما تقدم، وما ثبت بمقتضى دليل شرعي لا ينتقض إلا بدليل شرعي، فيكون الأصل هو بقاء الطهارة.

٣ ـ أن هذا يوافق النظر الصحيح، فإنه لو مسح على رأسه ثم حلق، فإن طهارته صحيحة، ولا يعيد المسح ولا الوضوء[٤].

٤ ـ أن المسح رخصة وتيسير من الله تعالى، والقول بغير هذا القول ينافي ذلك.

والقول بأن خلع الخفين لا يُبطل الطهارة فيه وجاهة في بعض ما علَّلوا به، والقياس فيه نظر، والقول ببطلان الطهارة ووجوب الوضوء فيه احتياط، على ما روي عن أحمد، وفيه إبراء للذمة، وخروج من الخلاف، لأنه إذا توضأ بعد خلعهما لم يكن في صحة طهارته نزاع، بخلاف ما إذا لم يتوضأ، والاحتياط من تمام الديانة[٥].

(١) «الأوسط» (١/ ٤٥٧، ٤٦٠)، «فتح الباري» (١/ ٢٨٠).
(٢) «المحلى» (٢/ ١٠٥).
(٣) «الاختيارات» ص(١٥)، «الشرح الممتع» (١/ ٢٦٣).
(٤) انظر: «فتح الباري» (١/ ٣١٠)، فقد قال الحافظ ابن حجر عن هذا القياس: «فيه نظر»، ثم وضحه الشيخ عبد العزيز ابن باز، بقوله: «وجهه: أن الرأس يمسح مع وجود الشعر وعدمه، والمسح على الخف بدل من غسل القدم فافترقا».
(٥) انظر: «اختيارات شيخ الإسلام ابن تيمية الفقهية» (١/ ٤٣٩)، «مسائل المسح على =

لكن إذا قلنا ببقاء طهارته بعد خلع الخف، فإنه لا يجوز له أن يلبس خفيه إلا بعد طهارة الماء؛ لأن هذا هو ظاهر قول الرسول ﷺ: «**أدخلتهما طاهرتين**»(١)، ولا تكونان كذلك إلا بالماء؛ لأن هذا هو المتبادر عند الإطلاق.

أما إذا كان على الإنسان كنادر(٢)، وشرَّاب، فإن الأولى في حقه أن يمسح الشرَّاب ليسهل عليه خلع الكنادر، ولا يضره ذلك، أما إذا مسح الكنادر ثم خلعها وبدأ يمسح على الشراب فإنه لا يجوز؛ لأن الحكم تعلق بالكنادر، أشبه ما لو خلع الشرَّاب، فإذا خلعها فلا يعيدها إلا بعد الوضوء.

والقول الثاني: أنه يجوز المسح على الشراب إذا كان قد مسح على الكنادر، ما دامت المدة باقية.

وإذا لبس جوربًا على جورب فلا يخلو من ثلاث حالات:

الأولى: أن يلبس جوربًا على آخر بعد الطهارة بالماء وقبل الحدث، فهذا يمسح على الجورب الأعلى قولًا واحدًا عند الجمهور القائلين بجواز لبس الخف على الخف.

الثانية: أن يلبس الجورب الأول ثم يُحدث، ثم يلبس جوربًا آخر وهو مُحدث قبل أن يتوضأ، فهذا يمسح على الجورب الأسفل، ولا يمسح على الأعلى على قول الجمهور؛ لأنه لم يلبسه على طهارة، وإنما لبسه وهو مُحدث.

= الخفين» للدكتور إبراهيم الصبيحي رَحِمَهُ اللَّهُ ص(٥٢).

(١) رواه البخاري (٢٠٦)، ومسلم (٢٧٤)، من حديث المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) المراد الخفاف جمع خُفٍّ، وهو ما يصنع من الجلد، والكنادر جمع كُندرة، وهي كلمة دخيلة في العربية من اللهجة التركية. انظر: «الدخيل في اللغة العربية الحديثة ولهجاتها» ص(١٢٤).

الثالثة: أن يلبس الجورب الأول ثم يحدث، ثم يتوضأ، ويمسح على الأول، ثم يلبس الجورب الثاني، فهذا ـ أيضًا ـ يمسح الجورب الأسفل، ولا يمسح الأعلى، وهو قول الجمهور؛ لأن الأعلى لم يُلبس على طهارة مائية، وهي شرط في المسح على الخف.

والقول الثاني: له أن يمسح الأعلى، وهو قول في مذهب المالكية، وأصح الوجهين عند الشافعية[(١)]، وأشار إليه ابن مفلح في «الفروع» فقال: (ويتوجه الجواز؛ وفاقًا لمالك)[(٢)]. وقال النووي: «وهو الأظهر المختار؛ لأنه لُبس على طهارة، وقولهم: إنها طهارة ناقصة، غير مقبول»[(٣)]، واختار هذا القول الشيخ محمد بن عثيمين[(٤)]، قالوا: لأنه إذا كان المسح على الجوربين رافعًا للحدث، فإنه إذا لبس الجورب الأعلى بعد المسح، يصدق عليه أنه أدخل رجليه وهما طاهرتان، وهذا التعليل فيه نظر.

والذي يظهر ـ والله أعلم ـ أن جواز مسح الجورب الأعلى خاص بالحالة الأولى، وهي ما إذا لبس الثاني على طهارة الماء قبل أن يحدث؛ لظاهر قوله ﷺ: «**دعهما؛ فإني أدخلتهما طاهرتين**»[(٥)]، أما إذا لبس الثاني بعد الحدث، فإنه لا يمسح عليه، سواء لُبِسَ على حدث كما في الحالة الثانية، أو على طهارة مسحٍ كما في الحالة الثالثة؛ لأنه لم يلبس الثاني على طهارة مائية، وهي شرطٌ في المسح على الخف، كما يدل عليه الحديث.

(١) انظر: «المجموع» (١/٥٠٦)، «حاشية الدسوقي على الشرح الكبير» (١/١٤٢).
(٢) (١/١٩٨).
(٣) «المجموع» (١/١٠٦).
(٤) انظر: «الشرح الممتع» (١/٢٥٧)، «فتاوى ابن عثيمين» (١١/١٩٢)، «موسوعة أحكام الطهارة» (٥/٤٤٣)، «مسائل المسح على الخفين» للصبيحي ص(١٣٥).
(٥) تقدم تخريجه.

وإذا نزع إنسان شرَّابه ثم أعادها وهو على طهارته التي غسل فيها رجليه، جاز له أن يمسح عليها إذا توضأ، أما إذا كان هذا الوضوء وضوءًا مَسَحَ فيه على شرَّابه ثم خلعها فليس له أن يعيدها ويمسح عليهما، بل لا بد أن يغسل رجليه.

وإذا مسح الإنسان وهو مقيم ثم سافر، فإنه يتم مسح مسافر على القول الراجح، إذا بقي من مدة مسحه شيء قبل أن يسافر، وإذا مسح وهو مسافر ثم قدم البلد أتم مسح مقيم على القول الراجح، إن كان بقي من مدته شيء(١).

وصفة الجورب الذي يمسح عليه أن يكون ساترًا للكعبين؛ لأن الذي لا يستر الكعبين لا يسمى جوربًا؛ لأن الكعب مفروضٌ غسله، فما ظهر ففرضه الغسل. كما يشترط أن يكون صفيقًا لا يُشف البشرة، وأن يكون سليمًا من التخريق؛ لأن هذا هو الأصل في مسمى الجورب، ومن الفقهاء من أجاز المسح على ما فيه خرق يسير؛ لأن الجوارب لا تخلو من الخرق غالبًا، وهذا ينبغي أن يكون عند الحاجة، وإلا فالجورب السليم هو المتيقن(٢).

وصفة المسح أن يبل يده بالماء ثم يمسح على الشرَّاب من أطراف الأصابع إلى الساق فقط، اليد اليمنى تمسح ظهر الرجل اليمنى، واليسرى تمسح اليسرى(٣).

وعلى الإنسان أن يتأكد من نظافة جواربه بغسلها أو تبديلها؛ لئلا تنبعث منها رائحة تؤذي الآخرين في المساجد وغيرها. والله تعالى أعلم.

---

(١) «فتاوى ابن عثيمين» (٤/ ١٧٥ ـ ١٧٦)
(٢) راجع: «فقه الدليل» لراقمه (١/ ١٧٠)، «مسائل المسح على الخفين» ص(٧٩).
(٣) «فتاوى ابن عثيمين» (٤/ ١٧٧).

المسألة الرابعة: تنشيف الأعضاء بعد الوضوء أو الغسل:

قد يحتاج المتوضئ بعد الوضوء إلى تنشيف أعضائه بمنديل ونحوه في أيام الشتاء أكثر من احتياجه في أيام الصيف، لبرودة الجو، وهذا أمر جائز لا حرج فيه، قال النووي بعد أن ذكر وجوه الاختلاف في المسألة: «والثالث: أن التنشيف مباح يستوي فعله وتركه، وهذا هو الذي نختاره؛ فإن المنع أو الاستحباب يحتاج إلى دليل ظاهر»[١]، وقال الشيخ محمد العثيمين: «تنشيف الأعضاء لا بأس به، لأن الأصل عدم المنع، والأصل فيما عدا العبادات من العقود والأفعال والأعيان الحِل والإباحة حتى يقوم دليل على المنع»[٢]. وقد جاء في حديث ميمونة ﵂ في صفة غُسل النبي ﷺ من الجنابة: «ثم أتيته بالمنديل فردَّه»[٣].

قال بعض العلماء: «في هذا دليل على أنه ﷺ كان يتنشف بعد الوضوء، ولولا ذلك لم تأته بالمنديل»[٤]، وقد وردت أحاديث أن النبي ﷺ كان له خرقة يتنشف بها بعد الوضوء، لكن لا يثبت منها شيء، كما قال الحافظ الترمذي[٥]. والله تعالى أعلم.

المسألة الخامسة: التيمم لبرودة الماء:

يجب على المكلف من مسلم أو مسلمة أن يتوضأ أو يغتسل من الجنابة أو الاحتلام أو الحيض في فصل الشتاء ولا يجوز له أن يتيمم أو

---

(١) «شرح صحيح مسلم» (٣/ ٢٣٦).
(٢) «فتاوى الشيخ العثيمين» (٤/ ١٥٣).
(٣) رواه البخاري (٢٤٩). ومسلم (٣١٧).
(٤) انظر: «فتح الباري» لابن رجب (١/ ٢٩٤)، وابن حجر (١/ ٣٦٣)، «مجموع فتاوى الشيخ العثيمين» (٤/ ١٥٣).
(٥) انظر: «جامع الترمذي» (١/ ٩٨)، وقد تكلم الألباني على هذه الأحاديث وبيَّن ضعفها، لكنه يرى أن الحديث حسن باجتماع شواهده. انظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٠٩٩).

يؤخر الغسل إلى طلوع الشمس فيترك صلاة الفجر في وقتها، والاغتسال ـ بفضل الله ـ أمر ميسور في هذا الزمن ـ غالبًا ـ لتيسر المكان والماء الدافئ في أكثر المنازل، كما سيأتي ـ إن شاء الله تعالى ـ.

فإن كان الإنسان في الصحراء فلا يجوز له أن يتيمم بسبب تأذيه من برودة الماء بل عليه أن يصبر ويتوضأ؛ لأن التأذي من برودة الماء ليس بعذر مبيح للتيمم، لأن الغالب ـ لا سيما في الصحراء في أيام الشتاء ـ شدة برودة الماء، وهذه مشقة طبيعية لا تنفك عنها العبادة، كما تقدم.

أما إذا كان يخشى أن يتضرر باستعماله وذلك بمرض أو هلاك ولم يجد ما يسخن به الماء فإنه يتيمم ويصلي ولا إعادة عليه، وعلى هذا ففرقٌ بين مجرد التأذي من الماء البارد، وبين خشية الضرر. ففي الأول لا يتيمم، وفي الثاني يتيمم.

أما الغسل للجنابة أو الاحتلام فإن كانت الليلة باردة والماء باردًا فإنه يجوز له أن يتيمم ويصلي، ولا يؤخر صلاة الفجر عن وقتها، بشرط ألا يكون عنده ما يسخن به الماء، فإن أمكنه أن يسخنه، وجب عليه ذلك، ولا يجوز له أن يتيمم، وهذا يغلب في المخيمات الكبيرة أو الثابتة التي يكون فيها حمَّامات ووسائل لتسخين الماء، وإذا تيمم للجنابة أو الاحتلام، فإنه يكون طاهرًا ولا يلزمه أن يتيمم عن الجنابة لكل وقت؛ لأن تيمُّمه الأول رفع حدثه حتى يجد الماء الذي يستطيع أن يغتسل به، فإذا وجده وجب عليه الغسل[(١)].

ومثل هذا لو كان الماء بعيدًا وخاف على نفسه ضررًا إذا ذهب يطلب الماء، لكون البرد شديدًا فإنه يتيمم، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا

(١) «فتاوى الشيخ ابن عثيمين» (٤/ ٢٣٢).

أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩]. وقال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ﴾ [الحج: ٧٨] [١].

ويجوز التيمم بكل ما تصاعد على وجه الأرض من تراب أو رمل أو حجارة، سواءٌ أكانت الأرض يابسة أم نَدِيَّة؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [النساء: ٤٣]، والصعيد: وجه الأرض، وهو كل ما تصاعد على وجه الأرض، فالإنسان يتيمم في الأرض التي هو فيها، مهما كان وصفها؛ لعموم قوله ﷺ: «**جُعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا**» [٢].

والتيمم ضربة واحدة على الأرض، ثم يمسح كلَّ وجهه بيديه، ويمسح كفيه براحتيه. والله تعالى أعلم.

المسألة السادسة: ما يصيب الثياب من الوحَل [٣]:

إذا نزلت الأمطار في فصل الشتاء فإنه يكثر في الطرق الطين والوحل، فتصاب به الثياب، وهذا قد كان كثيرًا في الزمن القديم، والآن قلَّ بسبب رَصْفِ الشوارع، لكنه موجودٌ قطعًا ببعض الأماكن، فما أصاب الثياب من الطين والوحل فهو طاهر، لا يجب غسل ما أصاب الثوب منه؛ لأن الأصل الطهارة.

وقد جاء عن علي رضي الله عنه أنه خاض في طين المطر، ثم دخل المسجد فصلى ولم يغسل رجليه [٤].

(١) «الشرح الممتع» (١/ ٣٧٩).
(٢) رواه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).
(٣) الوَحَلُ: بالفتح هو الطين الرقيق، ونص الجوهري والصاغاني على أن التسكين لغة رديئة. انظر: «الصحاح» (٥/ ١٨٤٠)، «المصباح المنير» ص(٦٥١)، «تاج العروس» (٣١/ ٧٠).
(٤) رواه ابن أبي شيبة (١/ ١٧٧)، وابن المنذر في «الأوسط» (٧٣٨ ـ ٧٣٩).

وروى عبد الرزاق عن عدد من التابعين «أنهم كانوا يخوضون الماء والطين في المطر، ثم يدخلون المسجد فيصلون»[(١)].

وقد كانت المساجد قديمًا غير مفروشة، وإنما فيها الرمل، فالدخول إليها إثر الطين، أو الوحل لا يؤثر عليها، وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية عن لبس النعال في المسجد: «إذا عُلمت طهارتها، لم تكره الصلاة فيها باتفاق المسلمين»[(٢)] أما الآن فتجب مراعاة فرش المساجد والعناية بنظافتها، قال ابن عابدين: «إذا خشي تلويث فُرش المسجد، ينبغي عدم الصلاة بالنعال وإن كانت طاهرة»[(٣)] وإذا لم يظهر في طين الشوارع أثر نجاسة فالأمر واضح، وإن تيقن أن النجاسة فيه فقد نصَّ العلماء ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية على أنه يعفى عن يسيره[(٤)].

والله تعالى أعلم.

(١) «المصنف» (١/ ٢٨ ـ ٣٠).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ١٢١).

(٣) «حاشية ابن عابدين» (٢/ ٣٤٤).

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٤٨٢)، «المسائل الماردينية» ص(٢٤)، «إغاثة اللهفان» (١/ ٢٦٨).

المطلب الثاني

الأحكام المتعلقة بالصلاة

وفيه تسع مسائل:

المسألة الأولى: المحافظة على صلاة الفجر في الشتاء:

صلاة الفجر أمرها عظيم، جاء التنويه بفضلها والتحذير من التساهل فيها في أحاديث كثيرة، فعَنْ جَرِيرِ بن عبد الله ﵄ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَنَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةً ـ يَعْنِي الْبَدْرَ ـ فَقَالَ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ، كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ، لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا. ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩]»(١).

وتتأكد المحافظة عليها والحرص على أدائها في المساجد مع المسلمين في فصل الشتاء.

وقد ثبت الوعيد العظيم فيمن تساهل في الصلاة، فصلّاها قبل دخول وقتها أو صلاها بعد خروج وقتها لغير عذر، قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ۝٥٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـًٔا﴾ [مريم: ٥٩، ٦٠].

فقوله: ﴿أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: أهملوها إما بتركها بالكلية، وإما بترك

(١) رواه البخاري (٥٥٤، ٥٧٣).

شيء من واجباتها[(١)].

وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤، ٥]، أي: غافلون مُعرِضون إما عن فعلها بالكلية، وإما عن فعلها في الوقت المقدر لها شرعًا، فيخرجها عن وقتها بالكلية، كأن يصلي الفجر بعد طلوع الشمس أو يصلي العصر بعد غروبها، وإما عن وقتها الأول فيؤخرها إلى آخره دائمًا أو غالبًا، وإما عن أدائها بأركانها وشروطها على الوجه المأمور به، كأن يصلي بلا طهارة، أو يصلي بغير طمأنينة، أو نحو ذلك، وإما عن الخشوع فيها والتدبر لمعانيها، فاللفظ يشمل هذا كله، ولكل من اتصف بشيء من ذلك قسط من هذه الآية، ومن اتصف بجميع ذلك، فقد تم نصيبه منها، وكمل له النفاق العملي[(٢)].

وعن سَمُرة بن جندب رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يعني مما يكثر أن يقول لأصحابه: «**هل رأى أحد منكم من رؤيا؟**» قال: فيقص عليه ما شاء الله أن يقص. وإنه قال لنا ذات غداة: «**إنه أتاني الليلة آتيان وإنهما ابتعثاني، وإنهما قالا لي: انطلق. وإني انطلقت معهما، وإنا أتينا على رجل مضطجع، وإذا آخر قائم عليه بصخرة، وإذا هو يهوي بالصخرة لرأسه فَيَثْلَغُ رأسه فيتدهده الحجر هاهنا، فيتبع الحجر فيأخذه فلا يرجع إليه حتى يصح رأسه كما كان ثم يعود عليه فيفعل به مثل ما فعل به المرة الأولى. قلت لهما: سبحان الله! ما هذان؟ قال: قالا لي: انطلق انطلق**... وساق الحديث بطوله.. إلى أن قال: **أما الرجل الأول الذي أتيت عليه يُثلغ رأسه بالحجر، فإنه الرجل يأخذ بالقرآن، وينام عن الصلاة المكتوبة**... الحديث[(٣)].

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٥/ ٢٣٩ ـ ٢٤٠).

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٦٦٢ ـ ٦٦٣).

(٣) رواه البخاري (١٣٨٦، ٧٠٤٧).

والواجب على المسلم إذا نام أن يتخذ الأسباب للاستيقاظ لصلاة الفجر، ويتأكد ذلك في الأسفار والرحلات البرية في فصل الشتاء، وقد كان النبي ﷺ يسافر مع أصحابه فيعيِّن النبي ﷺ من يوقظهم للصلاة مع ما في سفرهم من شدة وعناء[(١)].

وإنما تأكد أمر صلاة الفجر وعظم أجرها ـ والله أعلم ـ لأمور، منها:

الأول: أن وقت صلاة الفجر وقت لذة النوم، كما قيل:

أَلَذُّ الكَرَى[(٢)] عِنْدَ الصَّبَاحِ يَطِيْبُ

والقيام فيه ـ بوجه عام ـ أشق على النفس من القيام في غيره، والمسلم إذا حافظ على صلاة الفجر مع الجماعة، فالظاهر من حاله أن محافظته على غيرها من الصلوات أشد[(٣)].

الثاني: أن النفس تألف الفراش والغطاء الدافئ، وتتألم بالقيام عن ذلك في شدة البرد.

الثالث: أن إسباغ الوضوء في شدة البرد لصلاة الفجر فيه مشقة، ولا سيما في الزمن القديم، ولهذا كان إسباغ الوضوء في شدة البرد من أفضل الأعمال، كما تقدم في قوله ﷺ: «**أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللهُ بِهِ الْخَطَايَا وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟ قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ**

---

(١) انظر: «فتح الباري» لابن رجب (٣/ ١٥٠، ٢٤٩)، «روضة الأفهام في شرح زوائد المحرر على بلوغ المرام» (١/ ٣٠٥).

(٢) على وزن عصا، هو النعاس. «المصباح المنير» ص(٥٣٢).

(٣) انظر: «عمدة القاري» (٤/ ١٩١)، والشطر المذكور عجز بيت ذكره ياقوت مع بيت قبله في «معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب» (٣/ ١٤٠٢).

الصَّلَاةِ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ»، وفي رواية: «**فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ**»(١).

وروى سعيد بن المسيِّب عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «إسباغ الوضوء على المكاره، وإعمال الأقدام إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة تغسل الخطايا غسلًا»(٢).

وأصل الرباط: ملازمة الثغور في الجهاد في سبيل الله، وحفظ بلاد الإسلام، وقد شُبه به ما ذكر من الأعمال الصالحة؛ لبيان أن المواظبة على الطهارة والصلاة كالجهاد في سبيل الله، وقيل: إن الرباط هنا: اسم لما يُربط به الشيء، أي: يُشد. والمعنى: أن هذه الخلال تربط صاحبها عن المعاصي وتكفه عنها(٣)، وما أحسن قول القائل!:

قُمْ للصلاةِ إذا المؤذنُ نادى وحَذارِ تُسلمُ للرُّقودِ قِيادَا
إنَّ الصلاة هي الحياة لمؤمنٍ يرجو إلى باري الحياة مَعَادَا

المسألة الثانية: الجمع للمطر والثلج:

يجوز الجمع بين المغرب والعشاء إذا نزل مطر يبل الثياب ويلحق الناس بخروجهم إلى المساجد لصلاة العشاء مشقة، قال الشيخ محمد العثيمين: «ومعنى: يبل الثياب: أن الثوب يحتاج إلى عصر من هذا المطر، ليس مجرد أن تقع القطرة من الماء ثم يبتل الثوب، هذا ليس عذرًا، أما مجرد الرذاذ فإنه لا يبيح الجمع»(٤). ومثل المطر الثلج؛ لأن

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) رواه ابن عبد البر في «التمهيد» (٢٠/ ٢٢٤).
(٣) انظر: «النهاية» (٢/ ١٨٥ ـ ١٨٦).
(٤) «سلسلة لقاءات الباب المفتوح» (٥/ ٤٠٩) بتصرف. وانظر: «البيان» للعمراني (٢/ ٤٩٢).

الجمع شُرع للحاجة، وفي حديث ابن عباس ﵄ قال: «جمع رسول الله بين الظهر والعصر والمغرب والعشاء بالمدينة في غير خوف ولا مطر»، قلت لابن عباس: لم فعل ذلك؟ قال: «كي لا يُحْرِجَ أمته»(١). فهذا استدل به العلماء على مشروعية الجمع للمطر وتساقط الثلج إذا كان الجمع يرفع الحرج عن الناس، ووجه الاستدلال: أن قوله: «في غير خوف ولا مطر» دليل على جواز الجمع للمطر والخوف، كما دلت الرواية الثانية: «في غير خوف ولا سفر» على الجمع للسفر؛ لأن النبي ﷺ إذا جمع ليدفع الحرج الحاصل بدون خوف ولا سفر ولا مطر، فالحرج الحاصل بهذه أولى أن يدفع(٢).

ثم إن الجمع للمطر ثابت عن بعض الصحابة ﷺ والتابعين، ولم ينقل أن أحدًا من الصحابة والتابعين أنكر ذلك، فقد روى مالك وابن أبي شيبة وعبد الرزاق عن نافع أن عبد الله بن عمر ﵄ كان إذا جمع الأمراء بين المغرب والعشاء في المطر جمع معهم(٣). قال الخطابي: «وقد اختلف الناس في جواز الجمع بين الصلاتين للممطور في الحضر، فأجازه جماعة من السلف، روي ذلك عن ابن عمر ﵄، وفعله عروة وابن المسيب وعمر بن عبد العزيز وأبو بكر بن عبد الرحمن وأبو سلمة وعامة فقهاء المدينة، وهو قول مالك والشافعي وأحمد»(٤).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية بعد أن ذكر ما يدل على مشروعية الجمع للمطر: «فهذه الآثار تدل على أن الجمع للمطر من الأمر القديم

(١) رواه مسلم (٧٠٥).
(٢) «مجموع فتاوى ابن تيمية» (٢٤/ ٧٦).
(٣) «الموطأ» (١/ ١٤٥)، «مصنف ابن أبي شيبة» (٢/ ٢٣٤)، وعبد الرزاق (٢/ ٥٥٦)، وهو صحيح كما في «إرواء الغليل» (٣/ ٤١)، وانظر: «المنتقى» للباجي (١/ ٢٥٨).
(٤) «معالم السنن» (١/ ٢٦٤)، «المغني» (٣/ ١٣٢)، وانظر: «إرواء الغليل» (٣/ ٤٠).

المعمول به في المدينة زمن الصحابة والتابعين، مع أنه لم ينقل أن أحدًا من الصحابة والتابعين أنكر ذلك، فعلم أنه منقول عندهم بالتواتر جواز ذلك»[(١)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ترك الجمع مع الصلاة في البيوت بدعة مخالفة للسُّنَّة، إذ السُّنَّة أن تصلى الصلوات الخمس في المساجد جماعة، وذلك أولى من الصلاة في البيوت باتفاق المسلمين، والصلاة جمعًا في المساجد أولى من الصلاة في البيوت مفرقة، باتفاق الأئمة الذين يجوِّزون الجمع، كمالك والشافعي وأحمد، والله تعالى أعلم»[(٢)].

وعلى إمام المسجد إذا شك في المطر هل هو يبيح الجمع أو لا؟ ألا يجمع؛ لأن الأصل أداء الصلاة في وقتها، ولا يعدل عن هذا الأصل إلا بيقين، وهو العذر الواضح البين، ولَأَنْ يخطئ الإمام في عدم الجمع وهو ممن يجوز له الجمع، أولى بأن يجمع وهو لا يجوز له. يقول الشيخ محمد العثيمين: «إذا علمنا أنه لا حرج في ترك الجمع صار الجمع حرامًا، وإذا علمنا أن فيه تركه حرجًا صار الجمع جائزًا بل سنة، وإذا شككنا صار الجمع حرامًا؛ لأن الأصل وجوب فعل الصلاة في وقتها، فلا نعدل عن هذا الأصل إلا بأمر متيقن»[(٣)].

وعلى الإمام أن يبين لجماعته أحكام الجمع؛ لأن بعض المأمومين قد لا يفقه أحكام الجمع، وعلى الإمام أن يكون ذا شخصية قوية مبنية على علم؛ لئلا يكون مسجده مكان نزاع وجدال في مسألة الجمع أو غيرها، وعلى المأمومين ألا ينازعوا إمامهم وألا يجعلوا مسجدهم مكانَ جدالٍ وخلاف.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٤/ ٨٣).
(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٤/ ٢٩ ـ ٣٠).
(٣) «سلسلة لقاءات الباب المفتوح» (٥/ ٤١٢ ـ ٤١٣).

ولا يجوز الجمع لأجل مطر خفيف لا يبل الثياب أو مطر سابق لم ينتج عنه وَحَلٌ؛ كما لا يجوز الجمع لأجل الضباب؛ لأن مثل ذلك لا مشقة فيه وقت حضور الصلاة، ولأن هذا قد يهوِّن عند الناس أمر الدين، ولا سيما الصلاة، بحيث يعتادون الجمع لأدنى سبب، بخلاف ما إذا لزموا الأصل، وهو فعل الصلاة في وقتها إلا لعذر واضح، لا شبهة فيه.

وأما الجمع لأجل الوَحَل ـ وهو: الطين والزَّلَق ـ يكون في الشوارع بعد نزول المطر، فإنه يجوز ـ على القول الراجح من قولي أهل العلم ـ إذا كان فيه مشقة بحيث يؤذي الناس، كما في بعض الأحياء التي تتجمع المياه في شوارعها؛ لأن الوحل يلوِّث الثياب والنعال، ويتعرض الإنسان فيه للزَّلَق، فيتأذى في نفسه وثيابه، وذلك أعظم من البلل الحاصل بالمطر، والوحل كان موجودًا في زمنٍ مضى بكثرة عندما كانت الشوارع ضيقة مظلمة ومملوءة من الطين الذي يختلط بالماء إذا سقطت الأمطار، فإن مشى الإنسان في وسطها تلوث بدنه وثيابه، وإن سار على جوانبها فهو مظنة الزَّلَقِ والسقوط، وأما اليوم فالشوارع في معظم الأحياء بخلاف ذلك.

أما الأحياء العالية أو التي لا تجتمع المياه في شوارعها لكونها مرصوفة بالقار فلا معنى للجمع للوَحَلِ في حق أهلها، على أن الجمع للوحل ليس محلَّ إجماع، فهو سبب للجمع عند الحنابلة، لكنهم قيدوه بالعشاءين، وعزا النووي القول بجواز الجمع للوحل إلى بعض الشافعية، ثم قال: «وهذا الوجه قوي جدًّا»، وأما المشهور من مذهب الشافعية، فهو عدم جواز الجمع للوحل، وأما المالكية فالوحل سبب للجمع إذا اقترن بالظلمة، والمقصود بها ظلمة الليل من غير قمر، فلو غطى

السحاب القمر، فليس بظلمة، فلا يجمع لذلك، وأما الوحل وحده فالمشهور أنه ليس سببًا للجمع(١).

ومن فقه الإمام ووعيه أن ينزل رخصة الجمع للمطر على واقعه مع جماعة مسجده، وهذا ليس له ضابط معين، ولا تتساوى فيه المساجد؛ لاتساع المدن في زماننا هذا، ولاختلاف قوة المطر وضعفه من مكان لآخر في البلد نفسه، واختلاف أحوال الأحياء، كما تقدم.

وإذا صلى الإمام المغرب ثم اتضح له أن يجمع للحاجة إلى الجمع، فله ذلك وإن لم ينو الجمع عند الشروع في الصلاة الأولى؛ لأن الجمع لا يحتاج إلى نية على الراجح من قولي أهل العلم(٢).

ولا خلاف بين القائلين بجواز الجمع للمطر في الجمع بين العشاءين، وأما الجمع بين الظهر والعصر، فهو موضع خلاف، فعند المالكية والحنابلة في المشهور عندهم لا يجوز الجمع بين الظهرين، مستدلين بالأدلة التي نُص فيها على المغرب والعشاء، كحديث مالك عن نافع أن ابن عمر رضي الله عنهما كان إذا جمع الأمراء بين المغرب والعشاء جمع معهم، وقد تقدم ذلك، قال الأثرم: «قيل لأبي عبد الله ـ أي الإمام أحمد ـ: الجمع بين الظهر والعصر في المطر؟ قال: لا، ما سمعت»(٣).

والقول الثاني: أنه يجوز، وهو قول الشافعية، ورواية عن الإمام أحمد، واختاره القاضي، وأبو الخطاب، وشيخ الإسلام ابن تيمية، واستدلوا بعموم حديث ابن عباس رضي الله عنهما المتقدم: «لئلا يُحرج أمته». مع أن المشقة في الظهرين أقل من المشقة في العشاءين.

---

(١) انظر: «الأم» (٢/ ١٧٥)، «حاشية العدوي» (١/ ٢٩٥)، «المجموع» (٤/ ٣٧٨، ٣٨١، ٣٨٣)، «المغني» (٣/ ١٣٣)، «الإنصاف» (٢/ ٣٣٨).

(٢) انظر: «البدر السافر في أحكام صلاة المسافر» لكاتبه ص(١٢٨).

(٣) «المغني» (٣/ ١٣٢ ـ ١٣٣).

وقد نقل الشيخ محمد بن إبراهيم عن أئمة الدعوة أنه لا يجمع بين الظهرين؛ حيث إن المشقة في النهار أخف بكثير من المشقة في الليل، وقَوَّى الشيخ هذا القول[١].

ويتفرع على هذه المسألة مسألة جمع صلاة الجمعة مع العصر لعذر المطر جمع تقديم، فمن يمنع الجمع بين الظهرين ـ وهما المالكية والحنابلة في إحدى الروايتين ـ يمنع جمع الجمعة مع العصر، وهو اختيار المشايخ الثلاثة: الشيخ محمد بن إبراهيم، وعبد العزيز ابن باز، ومحمد العثيمين، وأما من يجيز جمعهما ـ وهم الشافعية والحنابلة في الرواية الأخرى ـ فهم يقولون بجواز جمع الجمعة مع العصر لعذر المطر، ويؤيد ذلك عموم العلة وهي دفع المشقة، وحديث ابن عباس رضي الله عنهما المتقدم: «لئلا يحرج أمته» يشهد لذلك[٢].

وإذا جمع بين العشاءين صلَّى سنَّة المغرب، ثم سنَّة العشاء، ولو لم يدخل وقت العشاء.

وأما الوتر ففيه خلاف، فمن أهل العلم من قال: إذا صلى العشاء مع المغرب جمع تقديم فقد دخل وقت الوتر بالنسبة له بعد فراغه من صلاة الجمع، وهو قول الشافعية، والحنابلة؛ لعموم حديث: «**الوتر ما بين صلاة العشاء إلى طلوع الفجر**»[٣]، وهذا عام في العشاء في وقتها،

---

(١) انظر: «المدونة الكبرى» (١/ ١١٠)، «المجموع» (٤/ ٣٨١)، «المغني» (٣/ ١٣٢ ـ ١٣٣)، «الإنصاف» (٢/ ٣٣٧)، «مجموع فتاوى الشيخ ابن براهيم» (٢/ ٣٢٨).

(٢) «البيان» للعمراني (٢/ ٤٩٤)، «المجموع» (٤/ ٣٨٣)، «فتاوى ابن إبراهيم» (٢/ ٣٢٧)، «فتاوى ابن باز» (١٢/ ٣٠٠، ٣٠٢)، «فتاوى ابن عثيمين» (١٥/ ٣٧١)، «الشامل في فقه الخطيب والخطبة» ص(٣٧٤).

(٣) رواه أبو داود (١٤١٨)، والترمذي (٤٥٢)، وابن ماجه (١١٦٨)، وله شواهد.

والعشاء المجموعة مع المغرب، مما يدل على أن الوتر تابع لصلاة العشاء، ولأن وقت الصلاة المجموعة وقت لما يجمع إليها، وعند الحنفية والمالكية: لا يدخل وقت الوتر إلا بمغيب الشفق، لأن الوتر ـ عندهم ـ تابع للوقت، وهو ما بين صلاة العشاء إلى طلوع الفجر، والقول الأول فيه وجاهة، والقول الثاني أحوط لمن وثق من نفسه أن يصلي الوتر بعد مغيب الشفق[(١)].

وعذر الجمع نوعان:

١ ـ عذر عام: كالمطر والبرد والوحل.

٢ ـ وعذر خاص: كالمرض، والحَرَج الخاص، وغير ذلك.

والفرق بينهما أن العذر العام ـ كالمطر ـ مختص بمن يصلي في جماعة، لوجود المشقة، أما من لا يصلي في جماعة كالمرأة في بيتها، والموظف الذي يصلي في محل عمله، كالحارس ونحوه، فليس له أن يجمع للمطر؛ إذ لا مشقة عليه في أداء الصلاة في وقتها، وقد نص على هذا الشافعي في «الأم»[(٢)]، بخلاف العذر الخاص ـ كالمرض ـ، فلا فرق فيه بين الرجل والمرأة.

وبعض الناس يتساهل في الجمع فيظن أن الجمع متعلق بالقصر، فكلما قَصَرَ جَمَعَ، وهذا خلاف ما قرره المحققون من أهل العلم؛ لأن القصر سنة ثابتة، والجمع رخصة عارضة[(٣)]، **والناس بالنسبة للقصر والجمع لهم أربع حالات:**

---

(١) انظر: «بدائع الصنائع» (١/ ٢٧٢)، «المغني» (٣/ ١٤٠)، «روضة الطالبين» (٢/ ٤٠٢) «المجموع» (٤/ ١٣)، «الفواكه الدواني» (١/ ٢٧٣)، «إسعاف أهل العصر بما ورد في أحكام الوتر» ص(٣٢)، «الشرح الممتع» (٤/ ١٥)، «فتاوى اللجنة الدائمة» (٨/ ١٤٤).

(٢) (٢/ ١٦٦)، «المجموع» (٤/ ٣٨١).

(٣) انظر: «البدر السافر في أحكام صلاة المسافر» لكاتبه ص(١١٠).

الأولى: من يجمع ويقصر: وهذا المسافر إذا كانت المسافة مسافة سفر عرفًا أو قَدْرًا.

الثانية: من لا يجمع ولا يقصر: وهو المقيم في الحضر بلا عذر، أو من قطع مسافة لا يصدق عليها أنها مسافة قصر.

الثالثة: من يقصر ولا يجمع: وهو المسافر الذي يقصر ولا يحتاج للجمع، لأن الرسول ﷺ لم يجمع في حجه إلا في عرفة ومزدلفة.

الرابعة: من يجمع ولا يقصر: وهذا خاص بالحضر إذا وجد ما يدعو للجمع كالمطر والوحل ونحوهما. والله تعالى أعلم.

المسألة الثالثة: الصلاة في الرِّحال:

جاء في «الصحيحين» من طريق مالك عن نافع أن ابن عمر رضي الله عنهما أَذَّنَ بالصلاة في ليلة ذات برد وريح، فقال: «**ألا صلُّوا في الرحال**» ثم قال: «كان رسول الله ﷺ يأمر المؤذن إذا كانت ليلةٌ باردة ذات مطر يقول: **ألا صلوا في الرحال**»[(١)].

فهذا الحديث يدل على أن البرد أو المطر عذر في التخلف عن صلاة الجماعة في الليل، وأن المؤذن يقول في أذانه: «**صلوا في الرحال**». سواءٌ قالها بعد الفراغ من الأذان أو قالها في أثناء الأذان مع الحيعلة، أو بدونها، فالأمر واسع، لورود السنة بهذا وهذا.

قال الترمذي: «وقد رَخَّصَ أهل العلم في القعود عن الجماعة والجمعة في المطر والطين، وبه يقول أحمد وإسحاق»[(٢)]، وقال ابن

(١) صحيح البخاري (٦٦٦) صحيح مسلم (٦٩٧).
(٢) «جامع الترمذي» (١/ ٤٣٤ ـ ٤٣٥).

بطال على قول البخاري: باب «الرخصة في المطر والعلة أن يصلي في رَحْلِهِ»: والأحاديث الواردة في الباب: «أجمع العلماء على أن التخلف عن الجماعات في شدة المطر والظلمة والريح وما أشبه ذلك مباح بهذه الأحاديث»[(١)].

وهذا لا يختص بالسفر فيجوز في الحضر[(٢)]، وأما في السفر فالأمر واضح، لأن السفر مظنة المشقة، والمسافرون عادة يكونون متفرقين، وقد يكون اجتماعهم في مكان واحد للصلاة، فيه مشقة لوجود طين ومياه تحول بينهم وبين هذا المكان، وكذا لو كانوا في البر نازلين وهم عدة خيام بحيث يشق اجتماعهم.

وأما في الحضر فإنه أخف من السفر، والجماعة فيه آكد، لكن لو عمل بهذا الحديث وما في معناه عند حصول المشقة في الحضر، كان متجهًا، وذلك في حالة نزول المطر بعد دخول وقت الصلاة الأولى، أو قبل دخول وقتها مع استمراره، وكذا الرياح الباردة الشديدة، وأحاديث الجمع إذا أمكن الإتيان إلى المساجد، لكون المطر لم ينزل وقت الصلاة الأولى. وبهذا نكون قد عملنا بجميع الأدلة؛ لأن الملحوظ في زماننا أنه ـ في الغالب ـ لا يُعمل بأحاديث الصلاة في الرحال.

ومن أهل العلم من يرى أن العمل بأحاديث الصلاة في الرحال مقدم مطلقًا على أحاديث الجمع للمطر؛ لأن لفظة: «ولا مطر» الواردة في حديث ابن عباس رضي الله عنهما المتقدم طعن فيها بعض الحفاظ[(٣)]. لكن لا بأس بالجمع لما تقدم من أن الجمع ثابت عن بعض الصحابة والتابعين.

---

(١) «شرح ابن بطال» (٢/ ٢٩١).
(٢) انظر: «المحلى» (٣/ ١٦٢)، «التمهيد» (١٣/ ٢٧١).
(٣) انظر: «روضة الأفهام» (٢/ ١٧٦).

وقد ذكر الحافظ ابن رجب في مقدمة شرحه للأحاديث الواردة في هذا الموضوع: «أن المطر والطين وإن كان عذرًا في التخلف عن الجماعة في المسجد، إلا أنه عذرٌ لآحاد الناس، وأما الإمام فلا يترك الصلاة لذلك في المسجد، ويصلي جماعة في المسجد بمن حضر، وكذلك يوم الجمعة لا يترك الخطبة وصلاة الجمعة في المسجد بمن حضر فيه، إذا كانوا عددًا تنعقد بهم الجمعة، وإنما يباح لآحاد الناس التخلف عن الجمعة والجماعات في المطر ونحوه، إذا أقيم شعارهما في المساجد.

وعلى هذا، فلا يبعد أن يكون إقامة الجماعات والجُمع في المساجد في حال الأعذار كالمطر فرض كفاية، لا فرض عين، وأن الإمام لا يدعهما»[(١)].

المسألة الرابعة: الجمع للبرد والرياح الشديدة والغبار:

أجمع أهل العلم استنادًا للنصوص المتواترة على أنه يجب على كل مسلم أن يؤدي الصلوات الخمس في أوقاتها التي حددها الله تعالى في كتابه الكريم، وبيّنها رسوله ﷺ في سنته القولية والفعلية، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوۡقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣]، أي: فرضًا مؤقتًا بوقت محدد، فلا يجوز تقديمها عليه ولا تأخيرها عنه.

وروى ابن جرير بسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: (إن للصلاة وقتًا كوقت الحج)[(٢)].

وقال تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ

(١) «فتح الباري» (٤/ ٧٧).
(٢) «تفسير الطبري» (٩/ ١٩٩).

ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]، ودلوك الشمس: زوالها وميلها عن وسط السماء إلى جهة المغرب. وغسق الليل: اشتداد ظلمته، وفي هذا بيان وقت الظهر والعصر والمغرب والعشاء، وأوقاتها متصل بعضها ببعض، ثم قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ﴾ أي: وأقم قرآن الفجر، وهي: صلاة الفجر، وفَصَلَهَا عما قبلها؛ لعدم اتصال وقتها بما قبلها وما بعدها من الصلوات، وعبَّر عن هذه الصلاة بالقرآن لمزيد العناية به فيها وإطالته، وهي صلاة مشهودة تشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار.

وفي حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**صلِّ الصلاة لوقتها**...»[(١)]، وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**صلوا الصلاة لميقاتها**...»[(٢)].

ودخول الوقت من أهم شروط الصلاة؛ لأنه سبب لوجوب الصلاة، وشرط لأدائها، فمن صلى قبل الوقت أو بعده لغير عذر فصلاته غير صحيحة، سواء أكان عالمًا أم جاهلًا، فإن كان عالمًا أثم، وإن كان جاهلًا أو ناسيًا لم يأثم، مع وجوب أداء الصلاة عليه إذا دخل وقتها؛ لأن فعل الصلاة في غير وقتها من تعدي حدود الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

وصح عن عمر رضي الله عنه أنه كتب إلى عامل له: «ثلاث من الكبائر: الجمع بين صلاتين إلا من عذر، والنَّهبُ، والفرارُ من الزحف»[(٣)].

---

(١) رواه مسلم بتمامه (٦٤٨).

(٢) رواه مسلم بتمامه (٥٣٤).

(٣) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٨٩)، وأورده ابن كثير في «التفسير» (٣/ ٧٩)، وقال: «هذا إسناد صحيح». ورواه الترمذي (١٨٨)، مرفوعًا، وسنده ضعيف جدًّا. وانظر: «مصنف عبد الرزاق» (١/ ٥٣٥ ـ ٥٣٦)، «مجموع فتاوى ابن تيمية» (٢٤/ ٨٤)، «مختصر الفتاوى المصرية» ص(١٦٠).

ومجرد البرد ليس عذرًا في الجمع، ولا مشقة في إتيان الناس إلى المساجد في هذا الزمان، لما يلي:

١ ـ أن مشقة البرد بصفة عامة مشقة لا تنفك عنها العبادة، إذا كان الناس في فصل الشتاء، فلا توجب التخفيف؛ لأن التخفيف فيها عندئذٍ إهمال وتفريط، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك.

٢ ـ تقارب المساجد وكثرتها في الأحياء السكنية، فالمشي إليها لا مشقة فيه مع وجود البرد، أضف إلى ذلك وجود وسائل التدفئة في المساجد.

٣ ـ أن الله تعالى قد أنعم على كثير من الناس في هذا الزمان بالوسائل التي يحتمون بها من البرد من الملابس الداخلية والخارجية.

لكن من يتأذى بخروجه إلى المسجد لضعف بدنه عن تحمل البرد، أو لعدم وجود ما يكفيه لتدفئة بدنه من الملابس أو وسائل التدفئة، فهذا له أن يصلي في بيته، لوجود المشقة عليه، ويكون ذلك عذرًا له في ترك الجماعة.

٤ ـ أن الناس لو جمعوا لأجل البرد، فإن غالبهم لن يلزموا بيوتهم إلى صلاة الفجر، بل الغالب منهم يخرجون لقضاء حوائجهم، وفتح محلاتهم، بل منهم من يذهب إلى المستراحات وأماكن الاجتماعات والزيارات إلى ساعة متأخرة من الليل، وإذا كان البرد لا يمنعهم عن مثل هذه التصرفات، فكيف يكون مانعًا من الخروج لأداء صلاة العشاء؟!

وانظر إلى حركة السير وانتشار الناس في الأسواق حتى مع شدة البرد، ولو جئت إلى بيوت الحي بعد صلاة المغرب التي جُمعت إليها العشاء لشدة البرد ما وجدت فيها من الرجال والشباب إلا القليل.

إن الجمع لأجل البرد قد يكون حاجة في زمنٍ مضى عندما كان

الناس يلزمون مساكنهم، إضافةً إلى ما هم عليه من قلة الحال، أما اليوم فقد اختلف الأمر، والحكم يدور مع العلة وجودًا وعدمًا.

والحاصل أن البرد ليس من الأعذار التي تبيح الجمع؛ لأن البرد يمكن أن يتوقاه الإنسان بالثياب التي تُدفِّئه، إلا إذا كان مصحوبًا برياح شديدة[1] خارجة عن العادة بحيث يتأذى بها الناس عند خروجهم إلى المساجد فلهم أن يجمعوا أو يصلوا في بيوتهم على ما تقدم في المطر، وعلامة تأذي الناس أن يلزم غالبهم بيوتهم مع الحرص على وسائل التدفئة، ولا يخرجوا إلا لصلاة الفجر، وأما خروجهم من منازلهم وكون هذه الليلة التي حصل فيه الجمع كغيرها من الليالي، فهذا يدل على أنهم لم يتأذوا ولم يقعوا في الحرج.

والمشهور عند الفقهاء أن البرد عذر من الأعذار التي تبيح الجمع بين الصلاتين، وأن المعتبر وجود المشقة في الجملة، لا لكل فرد من أفراد المصلين، ومن المعلوم أن الجمع رخصة عارضة للحاجة، توجد بوجود أسبابها وتزول بزوال ذلك، وعلى هذا ينزَّل حكم الجمع للبرد.

وأما الغبار فلم يتعرض له الفقهاء كثيرًا، وإنما يذكرون الرياح الشديدة، ويبدو ـ والله أعلم ـ أنه ليس من الظواهر الكونية البارزة في زمانهم، بخلاف زماننا هذا فقد صار الغبار من الظواهر المألوفة عند الناس، ولا سيما إذا كان خفيفًا، وعليه فالذي يظهر ـ والله أعلم ـ أنه لا يجوز الجمع لأجل الغبار الخفيف؛ لأن الجمع ـ كما قرر شيخ الإسلام ابن تيمية ـ شُرع رخصةً ودفعًا للحرج والمشقة، والغبار الخفيف الذي اعتاده الناس لا مشقة فيه، ولا سيما مع وجود الوسائل المانعة من آثار الغبار مثل الكمامات ونحوها.

---

(١) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٢٤/ ٢٩)، «الشرح الممتع» (٤/ ٣٩٢).

أما إذا كان الغبار كثيرًا وقويًّا وعادةً ما يكون مصحوبًا بظلمة مع رياح شديدة تحمل الأتربة، فهو عذرٌ في التخلف عن الجماعة مطلقًا، ومن الفقهاء من قيَّد ذلك بالليلة المظلمة خاصة[١]، وللناس أن يصلُّوا في بيوتهم، وللمؤذن أن يقول: «صلُّوا في رحالكم»[٢]. والله تعالى أعلم.

المسألة الخامسة: الصلاة على الراحلة أو السيارة إذا خاف من تلوثه بالطين والبلل:

الأصل في الفريضة أنها تصلى على الأرض، ولا تُصلى على السيارة مطلقًا لا في الحضر ولا في السفر، لقلة الفرائض بالنسبة للنوافل، ولأنها آكد[٣]؛ ولهذا لما ذكر ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا تنفل النبي ﷺ في السفر على راحلته، قال: «غير أنه لا يصلي عليها المكتوبة»[٤] وفي رواية: «إلا الفرائض»[٥] فإن حصل ضرورة في حال السفر، جاز للإنسان أن يصلي الفريضة على الراحلة أو السيارة مثل: أن تكون السماء تمطر والأرض فيها ماء وطين بحيث لا يمكن النزول على الأرض، أو يخاف على نفسه أو أهله لو نزل يصلي، أو يخاف الانقطاع عن الرفقة، أو لا يستطيع أن يركب إن نزل، أو نحو ذلك من الأعذار، فإنه والحال هذه يصلي على السيارة فيومئ بالركوع والسجود[٦]. وقد روي عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

(١) انظر: «فتح الباري» لابن رجب (٤/ ٧٥).
(٢) انظر: «المغني» (٣/ ١٣٤)، «الشرح الممتع» (٤/ ٣٩٢).
(٣) انظر: «إحكام الأحكام» (١/ ٥٣٠).
(٤) رواه البخاري (١٠٩٧)، ومسلم (٧٠٠).
(٥) رواه البخاري (١٠٠٠).
(٦) ورد في ذلك حديث يعلى بن مرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رواه الترمذي (٤١١)، وأحمد (٢٩١١٢)، وسنده ضعيف. قال ابن العربي: «حديث يعلى ضعيف السند، صحيح المعنى»، انظر: عارضة الأحوذي (٢/ ٢٠١).

أنه صلى بجماعة في ماءٍ وطين على الراحلة[١]، وفعله جابر بن زيد، وأمر به طاوس، وعُمارة بن غزية[٢]. وروى عبد الرزاق عن ابن جريج قال: قلت لعطاء: قومٌ مسافرون أمامهم مطر، يصلون على دوابهم؟ قال: «نعم، إن شاؤوا»[٣].

قال الترمذي: «والعمل على هذا عند أهل العلم، وبه يقول أحمد وإسحاق»[٤]. والله تعالى أعلم.

المسألة السادسة: استقبال النار في الصلاة:

قد تكون النار وقت الشتاء في قبلة المصلي إما في غرفة أو في البر في المخيمات ونحوها، وقد نصَّ أهل العلم على كراهة استقبال النار في الصلاة، والأصل التحريم؛ لأن في ذلك تشبهًا بعُبَّاد النار في الصورة الظاهرة، وكُره ذلك وإن كان المصلي يصلِّي لله، كما كُرهت الصلاة في وقت طلوع الشمس وغروبها، لمشابهة سجود المصلي في هذا الوقت سجودَ عُبَّاد الشمس في الصورة، وكما تُكره الصلاة إلى صنم وإلى صورة مصورة[٥].

وقد كره ابن سيرين الصلاة إلى التنور وقال: هو بيت نار[٦]. وقال سفيان: «يُكره أن يوضع السراج في قبلة المسجد». وكذا قال الإمام

(١) رواه عبد الرزاق (٢/ ٧٣).
(٢) ذكره في «المغني» (٢/ ٣٢٣)، وانظر: «الاختيارات» ص(٧٤).
(٣) «المصنف» (٢/ ٥٧٣).
(٤) جامع الترمذي (٢/ ٢٦٨).
(٥) «فتح الباري» لابن رجب (٢/ ٣٣٣).
(٦) رواه ابن أبي شيبة (٢/ ٣٨٠)، ومن طريقه أخرجه حرب بن إسماعيل في «مسائله» ص(٥٣٢).

أحمد[١]، وقال حرب بن إسماعيل: قلت لإسحاق بن راهويه: الرجل يُصلي وبين يديه سراج أو كانون[٢] عليه نار؟ قال: السراج لا بأس به، والكانون أكرهه[٣].

واستثناء إسحاق للسراج استدل له حرب بما خرَّجه من طريق أسباط، عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينما رسول الله ﷺ يصلي على حصير وبين يديه مصباح. قال فجاءت الفأرة، فأخذت الفتيلة، فألقتها على الحصير، فأحرقت منه قدر الدرهم، فقال رسول الله ﷺ: «**إن الفويسقة لتضرم على أهل البيت**»[٤]. وعلى هذا فلا تُستقبل النار في الصلاة؛ بل يجب الانحراف عنها إذا أمكن.

أما الدفايات الكهربائية فيجوز وضعها في المساجد ولو أمام المصلين في جهة القبلة، وهو قول الشيخ عبد العزيز ابن باز، والشيخ محمد ابن عثيمين رحمهما الله[٥]، وبه تفتي اللجنة الدائمة، وهذا لا يدخل في استقبال النار؛ لأن النار المكروه استقبالها هي النار المشتعلة ذات اللهب، وهي التي يعبدها المجوس، بخلاف هذه الدفايات، فليس لها لهب، بل هي طاقة مستقلة متولدة من عدة مصادر، ثم إن الناس في

(١) «فتح الباري» لابن رجب (٢/ ٣٣٢).
(٢) الكانون: الموقد يطبخ فيه أو يصطلى عليه. «المصباح المنير» ص(٥٤٢)، «والمعجم الوجيز» ص(٥٤٣).
(٣) «مسائل حرب بن إسماعيل الكرماني. الطهارة والصلاة» ص(٥٣٢).
(٤) «مسائل حرب بن إسماعيل الكرماني. الطهارة والصلاة» ص(٥٣٢). والحديث رواه أبو داود (٥٢٤٧)، وليس عنده ذكر الصلاة على الحصير ولا أن بين يديه مصباحًا كما ذكر الحافظ ابن رجب، والحديث سنده ضعيف؛ أسباط ـ وهو ابن نصر الهمداني ـ صدوق كثير الخطأ، ورواية سماك عن عكرمة فيها اضطراب.
(٥) «فتاوى اللجنة الدائمة» (٨/ ٧٧)، المجلد الثالث: المجموعة الثانية ص(٣٦٦)، «الحلل الإبريزية» (١/ ١٣٨)، «نوازل المساجد» ص(٩٠٩).

حاجة إليها، وَوَضْعُها خلفهم أو في اليمين أو الشمال يفوت الفائدة منها للجميع، ثم إنها لا تكون أمام الإمام وإنما أمام المصلين، وهذا يخفف أمرها، ولو استغني عنها بالدفايات الزيتية التي تظهر حرارتها بدون أثر فهو أحوط[(١)]. والله تعالى أعلم.

المسألة السابعة: اللثام في الصلاة:

اللثام: على وزن كتاب: ما يُغطّى به الفم أو الأنف[(٢)]، وكان من عادة العرب التلثم بالعمائم على الأفواه، فنهي المصلي عن ذلك[(٣)].

ومن الناس من يأتي المسجد ولا سيما في صلاة الفجر في الشتاء وقد لف غترته أو شماغه على فمه وأنفه من غير عذرٍ أو حاجة، والجمهور من أهل العلم على أن التلثم في الصلاة مكروه كراهة تنزيه[(٤)]، لما ورد في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ نهى عن السدل في الصلاة، وأن يغطي الرجل فاه»[(٥)]، فحملوا النهي على الكراهة دون التحريم؛ ولعل الذي دفعهم إلى ذلك أن النهي من قبيل الآداب، وأن سند الحديث فيه مقال، وأنه لا يصح في هذا الباب عن النبي ﷺ شيء، وذهب بعض الحنفية إلى أن التلثم في الصلاة محرم، وهو مقتضى كلام شيخ الإسلام ابن تيمية، فقد نقل شيخ الإسلام ابن

(١) «فتاوى الشيخ ابن عثيمين» (١٣/ ٣٣٧)، «سلسلة لقاءات الباب المفتوح» (٥/ ٦٥، ٧٠).
(٢) «المصباح المنير» ص(٥٤٩)، «تاج العروس» (٣٣/ ٣٩٨).
(٣) «معالم السنن» (١/ ٣٢٦).
(٤) انظر: «المبسوط» (١/ ٣١)، «المجموع» (٣/ ١٧٩)، «الإنصاف» (١/ ٤٧٠)، «التاج والإكليل» (١/ ٥٠٢)، «لباس الرجل أحكامه وضوابطه في الفقه الإسلامي» (٢/ ١٠٧٣)، «الشرح الممتع» (٢/ ١٩٣).
(٥) رواه أبو داود (٦٤٣)، والترمذي (٤٧٨)، وابن ماجه (٩٦٦)، وأحمد (١٣/ ٣١٦)، وصححه ابن خزيمة (٥٧٢)، والحاكم (١/ ٢٥٣)، بعضهم يذكر الأمرين وبعضهم يقتصر على أحدهما. وفي سنده ضعف. انظر: «فضل الرحيم الودود» (٧/ ٢٤٩).

تيمية عن بعض العلماء أن هذا من فعل المجوس عند نيرانهم التي يعبدونها[(١)].

قال ابن المنذر: «كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ يَكْرَهُ تَغْطِيَةَ الفَمِ فِي الصَّلَاةِ، وَمِمَّنْ رُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ كَرِهَ ذَلِكَ ابْنُ عُمَرَ، وَأَبُو هُرَيْرَةَ، وَبِهِ قَالَ عَطَاءٌ، وَابْنُ المُسَيِّبِ وَالنَّخَعِيُّ، وَسَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، وَالشَّعْبِيُّ، وَحَمَّادُ بْنُ أَبِي سُلَيْمَانَ، وَالأَوْزَاعِيُّ، وَمَالِكٌ، وَأَحْمَدُ، وَإِسْحَاقُ، وَاخْتَلَفَ فِيهِ عَنِ الحَسَنِ، فَرُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ كَرِهَ ذَلِكَ، وَذَكَرَ الْأَشْعَثُ أَنَّهُ كَانَ لَا يَرَى بِهِ بَأْسًا»[(٢)].

فعلى المسلم إذا جاء إلى الصلاة ودخل المسجد أن ينتبه لهذا، ويزيل اللثام عن فمه وأنفه، لما تقدم، ولكون المطلوب من المصلي أن يكون على أحسن صفة، واللثام ليس من الزينة المأمور بها عند الصلاة، فيكون منهيًّا عنه من هذا الوجه، ولا معنى للثام بعد دخول المسجد، بخلافه قبل دخوله وفي طريقه فقد يحتاجه.

وقد اتفق الفقهاء على أن التلثم في الصلاة يباح للحاجة، كمن عرض له تثاؤب لا يستطيع كظمه إلا بتغطية فمه وأنفه، أو تَلَثَّمَ لدفع غبار أو مرور عاصفة، أو لمرض يقتضي تغطية الفم وعدم كشفه، إلى غير ذلك من الحاجات التي تعرض للإنسان في صلاته، فلا يستطيع دفعها إلا بتغطية فمه وأنفه[(٣)]. والله تعالى أعلم.

المسألة الثامنة: لبس القفازين في الصلاة:

يجوز لبس القفازين ـ وهما شرَّاب لتدفئة اليدين ـ والصلاةُ فيهما، وأما قوله ﷺ: «**أُمِرْتُ أَنْ أَسْجُدَ عَلَى سَبْعَةِ أَعْظُمٍ، عَلَى الْجَبْهَةِ** ـ وَأَشَارَ

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٣٤٤)، وانظر: «المغني» (٢/ ٢٩٨).
(٢) «الأوسط» (٣/ ٢٦٤).
(٣) انظر: «لباس الرجل أحكامه وضوابطه في الفقه الإسلامي» (٢/ ١٠٧٣).

بِيَدِهِ عَلَى أَنْفِهِ ـ وَالْيَدَيْنِ، وَالرُّكْبَتَيْنِ، وَأَطْرَافِ الْقَدَمَيْنِ، وَلَا نَكْفِتَ الثِّيَابَ وَالشَّعَرَ»[(١)]، وأنه يدل على وجوب كشف اليدين مثل كشف الوجه، فهذا قد قال به الشافعي في أحد قوليه، وهو رواية عن أحمد.

والقول الثاني له: أنه لا يجب كشفهما. وهو أصح، وهو قول الجمهور، كما قال النووي[(٢)]، قال ابن دقيق العيد: «قَدْ يُسْتَدَلُّ بِهَذَا عَلَى أَنَّهُ لَا يَجِبُ كَشْفُ شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْأَعْضَاءِ، فَإِنَّ مُسَمَّى السُّجُودِ يَحْصُلُ بِالْوَضْعِ، فَمَنْ وَضَعَهَا فَقَدْ أَتَى بِمَا أُمِرَ بِهِ. فَوَجَبَ أَنْ يَخْرُجَ عَنِ الْعُهْدَةِ... وَأَمَّا الْيَدَانِ، فَلِلشَّافِعِيِّ تَرَدُّدٌ فِي وُجُوبِ كَشْفِهِمَا»[(٣)].

ونصَّ فقهاء الحنابلة على أنه يستحب للمصلِّي مباشرة المصلَّى بباطن كفيه، فلا يكون عليهما حائل، ويكره ترك المباشرة باليدين، إلا لعذر كشدة برد ونحوه، فإن كان عذر فلا كراهة، وصلاته صحيحة رواية واحدة[(٤)]. والله تعالى أعلم.

المسألة التاسعة: صلاة الاستسقاء:

الاستسقاء: طلب السُّقيا من الله تعالى، أي: إنزال الغيث على البلاد والعباد، والاستصحاء: طلب الصحو، وتشرع صلاة الاستسقاء عند القَحْطِ، وهو: احتباس المطر والناس بحاجة إليه[(٥)].

---

(١) رواه البخاري (٨١٢)، رواه مسلم (٤٩٠).
(٢) «المجموع» (٤/٤٥٣)، «فتح الباري» (١/٤٩٣).
(٣) «إحكام الأحكام» (٢/٦٠ ـ ٦١).
(٤) انظر: «مسائل أحمد وإسحاق» (٢/٥٦٢)، «المغني» (٢/١٩٧)، «فتح الباري» لابن رجب (٢/٢٠٦)، «الإنصاف» (٢/٦٧).
(٥) انظر: «تهذيب اللغة» (٤/٢٩)، «المطلع» ص(١١٠).

وغالبًا ما تكون صلاة الاستسقاء في فصل الشتاء؛ لأنه يتبين إجداب الأرض واحتباس المطر، فإذا أُمر بإقامة صلاة الاستسقاء فإنه لا ينبغي التساهل بها وعدم العناية بحضورها، بل يحرص المسلم على مشاركة المسلمين صلاتهم ودعاءهم وتضرعهم إلى الله تعالى لرفع البلاء، حتى ولو كان القحط في غير أرضهم؛ لحصول الضرر به[(١)].

وإقامتها في الصحراء أفضل من إقامتها في الجوامع؛ تأسيًا بالنبي ﷺ، ولأنه أبلغ في الافتقار والتواضع، ولأنها أوسع للناس.

فيخرج الناس على الصفة المسنونة، وهي التبذل والتخشع والتضرع، لقول ابن عباس رضي الله عنهما: «خرج رسول الله ﷺ متواضعًا متبذلًا متخشعًا متضرعًا، فصلى ركعتين كما يصلي في العيدين»[(٢)]، وينبغي حث الناس على تقوى الله تعالى، والتوبة من المعاصي، والخروج من المظالم، والصدقة والإحسان، فما نزل بلاءٌ إلا بذنب، ولا رُفِعَ إلا بتوبة[(٣)].

فيصلي الإمام بالناس ركعتين، ثم يخطب خطبةً واحدة يُكثر فيها من الاستغفار وقراءة الآيات التي فيها الأمر بذلك، ويكثر من الدعاء رافعًا يديه، وكذا المأموم، والمأثور من الأدعية أحسن، وهو ما دعا به النبي ﷺ، ثم يحول الإمام رداءه؛ لفعل النبي ﷺ، ويحول الناس أرديتهم؛ لأن ما ثبت في حق النبي ﷺ ثبت في حق غيره، ما لم يقم

---

(١) انظر: «كشاف القناع» (٣/ ٤٣٧).

(٢) أخرجه أبو داود (١١٦٥)، والترمذي (٥٥٨)، والنسائي (٣/ ١٦٣)، وابن ماجه (١٢٦٦)، وأحمد (١/ ٢٣٠)، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٣) هذه الكلمة مروية عن عدد من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم كالعباس بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب وعمر بن عبد العزيز. «مجموع فتاوى ابن تيمية» (٨/ ١٦٣)، «الداء والدواء» ص(٤٩)، «فتح الباري» (٢/ ٤٩٧).

دليل على اختصاصه، كيف وقد عُقل المعنى! وهو التفاؤل بتحول ما بهم من الجدب إلى الخِصْبِ.

وصفة تحويل الرداء ومثله عباءة الرجل، ـ والمرأةِ إذا صلت في مكانٍ خاص ـ أن يجعل أيمنه أيسرَه، لأن الحديث بذلك أصح وأصرح، ولأن فعله أيسر وأسهل، وقد ذكر ابن مفلح أن الناس يتركون الرداء محولًا حتى ينزعوه مع ثيابهم لعدم نقل إعادته[(١)]، أما الغترة والشماغ فالظاهر أنهما بمنزلة العمامة، وعلى هذا فلا يشرع قلبهما[(٢)].

وإن سقوا قبل خروجهم للاستسقاء فلا حاجة للخروج؛ لحصول المقصود من الصلاة، وعليهم أن يشكروا الله تعالى ويسألوه المزيد من فضله، وأن يُنزل البركة بما أنزل الله عليهم.

وإذا فاتت الإنسان صلاة الاستسقاء فليس في قضائها سنَّة عن النبي ﷺ، لكن لو صلى ودعا فلا بأس، فإن جاء والإمام في الخطبة صلى تحية المسجد، ثم جلس لاستماع الخطبة والتأمين على دعاء الإمام[(٣)].

ومما يحسن التنبه له والتنبيه عليه أن يعلم الجميع أن لنزول الغيث ورحمةِ الله تعالى لخلقه أسبابًا، ومن أهمها تقوى الله تعالى، والاستقامة على أمره، والتوبة إليه من جميع الذنوب، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتعاون على البر والتقوى، والتناصح والتواصي بالحق والصبر عليه، ورحمة الفقراء والمساكين ومواساتهم والإحسان إليهم، قال تعالى:

---

(١) «الفروع» (٢/ ١٦٢).
(٢) انظر: «فتاوى الشيخ محمد العثيمين» (١٦/ ٣٥٢)، «فقه الدليل» لراقمه (٢/ ٢١٥) الطبعة الثالثة.
(٣) «سلسلة لقاءات الباب المفتوح» (٥/ ٥٥٣، ٥٥٩).

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال نوح عليه السلام لقومه: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح: ١٠ ـ ١٢][١].

قال ابن تيمية: «وَمَنْ تَدَبَّرَ أَحْوَالَ الْعَالَمِ وَجَدَ كُلَّ صَلَاحٍ فِي الْأَرْضِ فَسَبَبُهُ تَوْحِيدُ اللهِ وَعِبَادَتُهُ وَطَاعَةُ رَسُولِهِ ﷺ، وَكُلَّ شَرٍّ فِي الْعَالِمِ وَفِتْنَةٍ وَبَلَاءٍ وَقَحْطٍ وَتَسْلِيطِ عَدُوٍّ وَغَيْرِ ذَلِكَ؛ فَسَبَبُهُ مُخَالَفَةُ الرَّسُولِ ﷺ وَالدَّعْوَةُ إِلَى غَيْرِ اللهِ. وَمَنْ تَدَبَّرَ هَذَا حَقَّ التَّدَبُّرِ وَجَدَ هَذَا الْأَمْرَ كَذَلِكَ فِي خَاصَّةِ نَفْسِهِ وَفِي غَيْرِهِ عُمُومًا وَخُصُوصًا، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ»[٢].

والله تعالى أعلم.

❁ ❁ ❁

(١) انظر: «فتاوى الشيخ ابن باز» (١٣/ ٧١).

(٢) «فتاوى ابن تيمية» (١٥/ ٢٥).

المطلب الثالث

من الأدعية والأذكار في فصل الشتاء

الدعاء من أعظم العبادات وأجلِّ الطاعات، بل إن الدعاء هو العبادة؛ لأنه دالٌّ على التعلق بالله تعالى، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه، وهو أمر يسير، لأن حركة اللسان أخف حركات الجوارح وأيسرها، والدعاء: هو الالتجاء إلى الله تعالى بطلب ما ينفع الداعي أو طلب ما يكشف ضره أو يدفعه.

وهو سلاح المؤمن، وهو من أنفع الأدوية، وأقوى الأسباب في دفع المكروه وحصول المطلوب(١).

وقد جاءت بعض الأدعية ـ وكذلك الأذكار ـ عند رؤية بعض الأمور الكونية في فصل الشتاء، ومنها:

١ ـ الدعاء عند اشتداد البرد:

ذكر بعض العلماء أنه يستحب عند وجود الحر الشديد أو البرد الشديد أن يستعيذ الإنسان من نار جهنم التي هي مصدر ذلك ـ كما تقدم أول الكتاب ـ؛ لأن ما يحصل من الحر والبرد يُذكِّر بحرٍّ جهنم وزمهريرها، فناسب الاستعاذة من ذلك.

والأحاديث الواردة في ذلك كلها ضعيفة، ولم يرد في كتب السنة المشهورة شيء منها، ومع ذلك نصَّ أهل العلم كالحافظ ابن رجب على استحباب الدعاء(٢).

---

(١) انظر: «الداء والدواء» ص(٩).

(٢) انظر: «فتح الباري» لابن رجب (٣/٥٦)، «لطائف المعارف» ص(٣٦٤).

ومن ذلك حديثُ أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «**إذا كان يوم حار، فإذا قال الرجل: لا إله إلا الله، ما أَشَدَّ حَرَّ هذا اليوم!، اللهم أجرني من حر جهنم، قال الله لجهنم: إن عبدًا من عبيدي استجارني من حَرِّكِ، وأنا أُشهدكِ أني قد أجرته، وإذا كان يوم شديد البرد، فإذا قال العبد: لا إله إلا الله، ما أشد برد هذا اليوم!، اللهم أجرني من زمهرير جهنم، قال الله لجهنم: إن عبدًا من عبادي قد استعاذني من زمهريرك، فإني أُشهدكِ أني قد أجرته**». قالوا: وما زمهرير جهنم؟ قال: «**بيت يلقى فيه الكافر فيتميز من شدة برده**»[(١)].

ولعل من قال بالاستحباب رأى ـ والله أعلم ـ أن مثل هذه الأحاديث واردة في باب الدعاء، وليس في معناها ما يستنكر، ومجال الاجتهاد في باب الدعاء مفتوح، وقد نصَّ بعض العلماء على أنه لا يشترط صحة الحديث في باب الدعاء، بل يجوز العمل بالضعيف، إذا قُيِّد بالضوابط الشرعية، ولم يجزم الداعي بأن النبي ﷺ قد قاله[(٢)]، فما المانع من قول الإنسان في يوم شديد حرُّه: اللهم أجرني من حر جهنم. أو قوله في يوم شديد برده: اللهم أجرني من زمهرير جهنم؟! والله تعالى أعلم.

٢ ـ الدعاء عند حصول الجدب:

يُسن الدعاء عند حصول القحط والجدب، فيدعو كل واحد من الناس بإنزال الغيث ورفع ما حلَّ بالمسلمين في الصلاة وخارجها على

---

(١) رواه البيهقي في «الأسماء والصفات» ص(١٧٧)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» رقم: (٣٠٦) وفي سنده دراج أبو السمح عن أبي الهيثم، وهو ضعيف، وأخرجه السهمي في «تاريخ جرجان» (٩٧٨) بإسنادٍ آخر عن أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) انظر: «العلل» لابن أبي حاتم رقم: (١٣)، «سبل السلام» (١/ ١٥٢)، «مجموع الرسائل الحديثية» للشيخ المعلمي (١٥/ ١٤٣)، «فضل الرحيم الودود» (١/ ١١١)، «أفراد الثقات» ص(٧٤٩).

غير سنة الاستسقاء؛ لأنه دعاء مجرد كسائر الأدعية، وقد ذكر ابن القيم أن الرسول ﷺ استسقى وهو جالس في المسجد فرفع يديه[(١)]، فكل إنسان يستسقي في سجوده، وفي قيامه من الليل، وغير ذلك، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وَكَذَلِكَ «الِاسْتِسْقَاءُ» يُجَوِّزُونَ [أي: أهل السنة] الْخُرُوجَ إلَى الصَّحْرَاءِ لِصَلَاةِ الِاسْتِسْقَاءِ وَالدُّعَاءِ كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَيُجَوِّزُونَ الْخُرُوجَ وَالدُّعَاءَ بِلَا صَلَاةٍ، كَمَا فَعَلَهُ عُمَرُ رضي الله عنه بِمَحْضَرٍ مِنَ الصَّحَابَةِ. وَيُجَوِّزُونَ الِاسْتِسْقَاءَ بِالدُّعَاءِ تَبَعًا لِلصَّلَوَاتِ الرَّاتِبَةِ كَخُطْبَةِ الْجُمُعَةِ وَنَحْوِهَا كَمَا فَعَلَهُ النَّبِيُّ ﷺ»[(٢)]. والله تعالى أعلم.

٣ ـ الدعاء عند هيجان الريح:

عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهَا قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا عَصَفَتِ الرِّيحُ قَالَ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَهَا، وَخَيْرَ مَا فِيهَا، وَخَيْرَ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا، وَشَرِّ مَا فِيهَا، وَشَرِّ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ**»[(٣)].

وقوله: «أسألك خيرها» يعني خير ذاتها بحيث لا تكون عاصفة تقلع الأشجار وتهدم الديار. «**وخير ما فيها**» مما تحمله من المنافع. «**وخير ما أرسلت به**» أي: بخصوصها في وقتها؛ لأنها قد ترسل بخير وقد ترسل بِشَرٍّ..[(٤)].

وقد نهى النبي ﷺ عن سبِّ الريح فقال: «**لَا تَسُبُّوا الرِّيحَ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ مَا تَكْرَهُونَ فَقُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هَذِهِ الرِّيحِ وَخَيْرِ مَا**

---

(١) انظر: «زاد المعاد» (١/ ٤٥٧).
(٢) انظر: «المحلى» (٥/ ٩٣)، «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» (٢٤/ ٣٢).
(٣) رواه مسلم (٨٩٩).
(٤) انظر: «البحر المحيط الثجاج» (١٧/ ٥٧٧)، تعليق الشيخ محمد العثيمين على «صحيح مسلم» (٤/ ٦١٥).

فِيهَا وَخَيْرِ مَا أُمِرَتْ بِهِ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ الرِّيحِ وَشَرِّ مَا فِيهَا وَشَرِّ مَا أُمِرَتْ بِهِ»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**الرِّيحُ مِنْ رَوْحِ اللهِ،** ـ قَالَ سَلَمَةُ [أحد الرواة]: فَرَوْحُ اللهِ ـ **تَأْتِي بِالرَّحْمَةِ وَتَأْتِي بِالْعَذَابِ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهَا فَلَا تَسُبُّوهَا، وَسَلُوا اللهَ خَيْرَهَا، وَاسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ شَرِّهَا**»(٢).

وقوله: «**من روح الله**» بفتح الراء بمعنى الرحمة، أي: يرسلها الله تعالى من رحمته بعباده، ولطفهِ بهم(٣).

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لا تسبوا الريح؛ فإنها تجيء بالرحمة، وتجيء بالعذاب، قولوا: اللهم اجعلها رحمةً، ولا تجعلها عذابًا»(٤).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه خرج من المسجد فاستقبلته ريح شديدة، فسبَّها رجل من القوم، فقال ابن مسعود: «لا تسبُّوا الريح فإنها بُشْرٌ ونُذُرٌ ولواقح، ولكن استعيذوا بالله من شر ما أرسلت به»(٥).

قال الشافعي: «لا ينبغي لأحد أن يسب الريح؛ فإنها خلق لله عز وجل مطيع، وجند من أجناده، يجعلها الله رحمة ونقمة إذا شاء»(٦).

---

(١) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٧١٩)، والترمذي (٢٢٥٢)، والنسائي في «الكبرى» (٩/ ٣٤١)، وأحمد (٣٥/ ٧٥)، من حديث أُبي بن كعب رضي الله عنه مرفوعًا، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح» وفي رفعه كلام، وقد صوَّب النسائي وقفه، كما نقله عنه الطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٢/ ٣٨١) لكن مثل هذا لا يقال من قبيل الرأي. قال الترمذي: «وفي الباب عن عائشة، وأبي هريرة، وعثمان بن أبي العاص، وأنس، وابن عباس، وجابر رضي الله عنهم».

(٢) رواه أبو داود (٥٠٩٧)، والنسائي في «الكبرى» (٩/ ٣٤٠)، وابن ماجه (٣٧٢٧)، وأحمد (١٢/ ٣٧٥)، وسنده حسن، ويشهد له ما قبله.

(٣) انظر: «النهاية» (٢/ ٢٧٢)، «شرح سنن أبي داود» لابن رسلان (١٩/ ٣٤٨).

(٤) رواه ابن أبي شيبة (١٥/ ١١٥)، وابن أبي الدنيا في «المطر والرعد» «موسوعة ابن أبي الدنيا» (٥/ ٥٧٧).

(٥) رواه ابن أبي الدنيا (٥/ ٥٧٩).

(٦) «الأم» (٢/ ٥٥٦).

٤ ـ الدعاء عند رؤية السحاب:

عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا كَانَ يَوْمُ الرِّيحِ وَالْغَيْمِ، عُرِفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، وَأَقْبَلَ وَأَدْبَرَ، فَإِذَا مَطَرَتْ، سُرَّ بِهِ، وَذَهَبَ عَنْهُ ذَلِكَ، قَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: فَسَأَلْتُهُ، فَقَالَ: «**إِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ عَذَابًا سُلِّطَ عَلَى أُمَّتِي**»، وَيَقُولُ إِذَا رَأَى الْمَطَرَ: «**رَحْمَةٌ**»[(١)]. قال النووي: «وكان خوفه ﷺ أن يُعاقبوا بعصيان العصاة، وسروره لزوال سبب الخوف»[(٢)].

وعَنْها ـ أيضًا ـ رضي الله عنها، قَالَتْ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ، إِذَا رَأَى مَخِيلَةً فِي السَّمَاءِ، أَقْبَلَ وَأَدْبَرَ، وَدَخَلَ وَخَرَجَ، وَتَغَيَّرَ وَجْهُهُ، فَإِذَا أَمْطَرَتِ السَّمَاءُ سُرِّيَ عَنْهُ، فَعَرَّفَتْهُ عَائِشَةُ ذَلِكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَا أَدْرِي لَعَلَّهُ كَمَا قَالَ قَوْمٌ**: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤]»[(٣)].

وعنها رضي الله عنها قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا رَأَى نَاشِئًا فِي أُفُقٍ مِنْ آفَاقِ السَّمَاءِ تَرَكَ عَمَلَهُ، وَإِنْ كَانَ فِي صَلَاةٍ، فَإِنْ كَشَفَهُ اللهُ حَمِدَ اللهَ، وَإِنْ أَمْطَرَتْ قَالَ: «**اللَّهُمَّ سَيْبًا نَافِعًا**»[(٤)].

٥ ـ الدعاء عند سماع الرعد:

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قَالَ: كُنَّا مَعَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه فِي سَفَرٍ فَأَصَابَنَا رَعْدٌ وَبَرْقٌ وَبَرَدٌ، فَقَالَ لَنَا كَعْبٌ: مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ الرَّعْدَ:

---

(١) رواه مسلم (٨٩٩)، (١٤)، وانظر: «البحر المحيط الثجاج» (١٧/ ٥٧٤).

(٢) «شرح صحيح مسلم» (٦/ ٤٩٩).

(٣) رواه البخاري (٣٢٠٦)، ومسلم (٨٩٩)، (١٥).

(٤) رواه أبو داود (٥٠٩٩)، والنسائي في «الكبرى» (١٨٣٠)، وابن ماجه (٣٨٨٩)، وأحمد (٤٢/ ٣٦٨)، من طريق المقدام بن شريح عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها وسنده صحيح، المقدام وأبوه ثقتان.

«سُبْحَانَ مَنْ يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ـ ثَلَاثًا ـ» عُوفِيَ مِمَّا يَكُونُ فِي ذَلِكَ الرَّعْدِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﵄: فَقُلْنَا فَعُوفِينَا، ثُمَّ لَقِيتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ﵁ فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ فَإِذَا بَرَدَةٌ قَدْ أَصَابَتْ أَنْفَهُ فَأَثَّرَتْ بِهِ، فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا هَذَا؟ فَقَالَ: بَرَدَةٌ أَصَابَتْ أَنْفِي فَأَثَّرَتْ بِي، فَقُلْتُ: إِنَّ كَعْبًا حِينَ سَمِعَ الرَّعْدَ قَالَ لَنَا: مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ الرَّعْدَ: «سُبْحَانَ مَنْ يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ» عُوفِيَ مِمَّا يَكُونُ فِي ذَلِكَ الرَّعْدِ، فَقُلْنَا فَعُوفِينَا، فَقَالَ عُمَرُ ﵁: فَهَلَّا أَعْلَمْتُمُونَا حَتَّى نَقُولَهُ[(١)].

وعَنْ عَامِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ عن أبيه ﵁ أَنَّهُ كَانَ إِذَا سَمِعَ الرَّعْدَ تَرَكَ الْحَدِيثَ، وَقَالَ: «سُبْحَانَ الَّذِي يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ» ثُمَّ يَقُولُ: «إِنَّ هَذَا لَوَعِيدٌ لِأَهْلِ الْأَرْضِ شَدِيدٌ»»[(٢)].

وروى الإمام الشافعي عن سفيان بن عيينة عن طاوس أنه كان يقول إذا سمع الرعد: «سبحان من سبَّحت له». قال الشافعي: «كأنه يذهب

---

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في «فضائل الصحابة» (٢/ ٩٨٦)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٧٨٨)، والطبراني في «الدعاء» (٩٨٥). قال الحافظ ابن حجر: «هذا موقوف حسن الإسناد، وهو وإن كان عن كعب وهو تابعي، فقد أقره ابن عباس وعمر، فدلَّ على أن له أصلًا». «نتائج الأفكار» نسخة دار الكتب المصرية المخطوطة. وانظر: «الفتوحات الربانية» (٤/ ٢٨٦).

(٢) رواه مالك في «الموطأ» [رواية أبي مصعب] (٢٠٩٤)، ومن طريقه البخاري في «الأدب المفرد» (٥٥٦)، وابن أبي شيبة (١٥/ ١١٢)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٧٨٧)، وغيرهم، عن عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه... وهو موقوفٌ صحيح، والمحفوظ أنه عن عبد الله بن الزبير ﵁، لا عن ابنه عامرٍ، وجاء في رواية يحيى إسقاط لفظة: «عن أبيه»، قال ابن عبد البر في «الاستذكار» (٨/ ٥٨٨): «ورواه غيره من رواة الموطأ فقالوا فيه: مالك عن عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه». وذكر ابن أبي شيبة في «المصنف» (١٥/ ١١١)، والطبري في «تفسيره» (١٣/ ١٢٤) عدة آثار عن السلف فيما يُقال عند سماع الرعد.

إلى قول الله ﷻ: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الرعد: ١٣]»[١]، أي: إنه عملٌ بما جاء في القرآن. والله تعالى أعلم.

٦ ـ استحباب الدعاء بالبركة والنفع عند نزول المطر:

عن عائشة ؓ أن رسول الله ﷺ كان إذا رأى المطر قال: «**صَيِّبًا نَافِعًا**»، وفي لفظ: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ صَيِّبًا نَافِعًا**»[٢]، وفي لفظٍ ـ كما تقدم ـ: «**اللَّهُمَّ سَيْبًا نَافِعًا**»، والصيِّب: هو المطر، وقيل: المطر الشديد، من صاب المطر يصوب صوبًا: إذا انحدر ونزل، وقوله: «**سَيْبًا**»: يجوز أن تكون السين مبدلة من الصاد، وقيل: بل هو بالسين وسكون الياء، ومعناه: العطاء[٣].

فهذا يدل على استحباب الدعاء عند نزول المطر بهذا الدعاء العظيم الجامع، وهو أن يجعله الله تعالى مطر رحمةٍ ونفع للبلاد والعباد، لا مطر عذابٍ ولا هدم ولا غرق، وهذا هو الصيب النافع.

وقوله: «نافعًا» عامٌّ للإنسان والحيوان والأرض والنبات، وغير ذلك.

وتقدم في حديث عائشة ؓ أن النبي ﷺ كان إذا رأى المطر قال: «**رحمةٌ**». وهو بالرفع خبرٌ لمبتدأ محذوف، أي: هذا رحمة من الله ﷻ لعباده، ويحتمل أن يكون منصوبًا بفعل محذوف، أي: اجعله رحمةً لا عذابًا[٤].

٧ ـ الدعاء وقت نزول المطر:

ذكر بعض العلماء أن الدعاء بخيرَي الدنيا والآخرة مستحب عند

---

(١) «الأم» (٢/ ٥٥٧)، ومن طريقه ابن أبي شيبة (١٥/ ١١٢)، والبيهقي (٣/ ٦٢)، والطبراني في «الدعاء» (٩٨٣) من طريق سفيان قال: قلت لابن طاوس: ما كان أبوك يقول...؟ ورواه عبد الرزاق (١١/ ٨٩) عن معمر، عن ابن طاوس به.

(٢) رواه البخاري (١٠٣٢)، والنسائي (٣/ ١٦٤)، واللفظ الثاني له، والثالث تقدم تخريجه.

(٣) انظر: «تفسير الطبري» (١/ ١٤٨)، «فتح الباري» لابن رجب (٦/ ٢٤١).

(٤) انظر: «شرح النووي على صحيح مسلم» (٦/ ٤٤٩)، «البحر المحيط الثجاج» (١٧/ ٥٧٣ ـ ٥٧٤).

نزول المطر[(١)]، وأن ذلك من مواطن الإجابة؛ لما روي عن مكحولٍ أن النبي ﷺ قال: «**اطْلُبُوا اسْتِجَابَةَ الدُّعَاءِ عِنْدَ الْتِقَاءِ الْجُيُوشِ، وَإِقَامَةِ الصَّلَاةِ، ونُزُولِ الْغَيْثِ**»[(٢)]. قَالَ الشَّافِعِيُّ: وَقَدْ حَفِظْتُ عَنْ غَيْرِ وَاحِدٍ، الإِجَابَةَ عِنْدَ نُزُولِ الغَيْثِ، وَإِقَامَةِ الصَّلَاةِ[(٣)].

وعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**ثِنْتَانِ لَا تُرَدَّانِ، أَوْ قَلَّمَا تُرَدَّانِ: الدُّعَاءُ عِنْدَ النِّدَاءِ وَعِنْدَ البَأْسِ حِينَ يُلْحِمُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا**»، قَالَ مُوسَى: وَحَدَّثَنِي رِزْقُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «**وَتَحْتَ الْمَطَرِ**»[(٤)].

٨ ـ دعاء الاستصحاء:

إذا كثرت الأمطار، وخيف الضرر من زيادتها، سُنَّ الدعاء بما ثبت

---

(١) انظر: «الأذكار» للنووي ص(٦٢٨)، «زاد المعاد» (١/ ٤٦١).

(٢) رواه الشافعي في «الأم» (٢/ ٥٥٤)، قال: أخبرني من لا أتهم، ومن طريقه البيهقي في المعرفة (٥/ ١٨٦) برقم: (٧٢٣٦)، وهو مع إرساله فيه جهالة شيخ الشافعي، فإنه لم يسمَّ، وقد لا يكون ثقة؛ فإن في شيوخه من اتُّهم. لكن له شواهد ذكرها المنذري في «الترغيب والترهيب» (١/ ١١٦)، وابن القيم في «الزاد» (١/ ٤٦١)، وانظر: «السلسلة الصحيحة» (١٤٦٩).

(٣) «الأم» (٢/ ٥٥٤)، وانظر: «زاد المعاد» (١/ ٤٦١).

(٤) رواه أبو داود (٢٥٤٠)، والدارمي (١٢٠٣)، وابن خزيمة (٤١٩)، وابن الجارود (١٠٦٥)، والطبراني في «الكبير» (٥٧٥٦)، والحاكم (٢/ ١١٣ ـ ١١٤)، والبيهقي (١/ ٤١٠)، من طُرُق، عن موسى بن يعقوب الزمعي، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد رضي الله عنه مرفوعًا. وهذا إسناد حسن في الشواهد والمتابعات، موسى بن يعقوب متكلم فيه، وقد تابعه جماعة. وقد اختلف في رفعه ووقفه، ولفظة: «**وتحت المطر**» عند أبي داود والحاكم والطبراني، والظاهر أنها زيادة منكرة لا تثبت، تفرد بها رزق [أو رزيق] بن سعيد، وهو مجهول. قال الألباني: «الحديث له شواهد... وهي وإن كانت مفرداتها ضعيفة، إلا أنها إذا ضُمت إلى مرسل الشافعي أخذ بها قوة، وارتقى إلى مرتبة الحسن إن شاء الله تعالى». «السلسلة الصحيحة» (١٤٦٩)، وانظر: «نتائج الأفكار» (١/ ٣٦٩)، «تخريج أحاديث الذكر والدعاء» لياسر فتحي (١/ ١٤٤)، وانظر: «التعليق على منتقى ابن الجارود» للحويني.

في السنة، فقد جاء في حديث أنس رضي الله عنه في استسقاء النبي ﷺ على المنبر يوم الجمعة، وفيه: ثم دخل رجلٌ من ذلك الباب في الجمعة المقبلة ورسول الله ﷺ قائمٌ يخطب، فاستقبله قائمًا فقال: يا رسول الله، هلكت الأموال، وانقطعت السبل، فادع الله يمسكها، قال: فرفع رسول الله ﷺ يديه ثم قال: «**اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا، اللَّهُمَّ عَلَى الآكَامِ وَالظِّرَابِ، وَبُطُونِ الْأَوْدِيَةِ وَمَنَابِتِ الشَّجَرِ**...». الحديث[1].

قال ابن بطال: «فيه الدعاء إلى الله في الاستصحاء، كما يدعى في الاستسقاء؛ لأن كل ذلك بلاء يُفزع إلى الله في كشفه، وقد سمَّى الله كثرة المطر أذًى، فقال: ﴿إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ﴾ [النساء: ١٠٢]»[2].

ومعنى «**حوالينا**» أي: قريبًا منَّا، وهي منصوبة بفعل محذوف، والتقدير: اجعلها حوالينا، و«**الآكام**» مرتفعات الأرض، و«**الظراب**» الجبال الصغار، و«**بطون الأودية**» مجاري الشعاب، و«**منابت الشجر**» أمكنة نباتها.

وهذا فيه دلالة على أدب النبي ﷺ وخُلُقه العظيم في الدعاء، ومقابلة كل حال بما يليق بها، إذ لم يدعُ عليه السلام برفع المطر عنهم جملة، إذا كان غياثًا من الله ورحمة؛ لئلا يرد على الله فضله وبركته وما رغب إليه فيه، ولكن دعا بكشف ما يضر بهم عنهم، وتصييره حيث يبقى نفعه، ويوجد خِصْبه، ولا يستضِر به ساكن ولا ابن سبيل، فيجب التأدب بأدبه في مثل هذه النوازل[3]. والله تعالى أعلم.

❁ ❁ ❁

(١) رواه البخاري (١٠١٤)، ومسلم (٨٩٧). (٢) «شرح ابن بطال» (٣/ ١٢).
(٣) «إكمال المعلم» (٣/ ٣٢١)، «شرح ابن بطال» (٣/ ١٣).

الفصل الرابع

من أحكام الشتاء العامة

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: وجوب نسبة المطر إلى الله تعالى.

المطلب الثاني: استحباب التعرض للمطر.

المطلب الثالث: النزهة بعد نزول المطر.

المطلب الأول

وجوب نسبة المطر إلى الله تعالى

تجب نسبة المطر وإضافته إلى الله تعالى؛ فإنه هو الذي خلقه وأنشأه وتفضل به على عباده، وأنزله عليهم رحمة بهم؛ لاحتياجهم إليه، وسؤالهم لربهم بلسان الحال والمقال، فينزل الغيث بحكمته ورحمته في الوقت المناسب لحاجتهم وضرورتهم، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ [النور: ٤٣].

وقد يرد على ألسنة بعض الناس نسبة المطر إلى الأنواء وهي النجوم، أي: بطلوع نجم كذا، وهذه النسبة ثلاثة أقسام:

١ ـ **نسبة إيجاد**: بمعنى أن القائل: «مُطرنا بنوء كذا» يعتقد أن النوء هو المُنزل للمطر والخالق له والمنشئ للسحاب من دون الله تعالى، فهذا كفرٌ صريح يُخرج عن الملة، ولا يكاد يعتقده مؤمن.

٢ ـ **نسبة سبب**: أي: إن هذه الأنواء سبب لنزول الأمطار، مع اعتقاده أن الله هو المنزل وهو الخالق له، وهذا شرك أصغر؛ لأنه أنكر نعمة الله ونَسَبَها إلى سبب لم يجعله الله سببًا، والقاعدة: أن كلَّ من جعل سببًا لم يجعله الله سببًا لا بوحيه ولا بقدره، فهو مشركٌ شركًا أصغر(١).

---

(١) «المجموع الثمين من فتاوى الشيخ محمد العثيمين» (٢/ ١٤٠).

٣ ـ **نسبة وقت**: أي: إن هذا المطر جاءنا في هذا النوء، أي: في وقته، فهذا جائز؛ ولهذا قال العلماء: يحرم أن يقول: مُطرنا بنوء كذا، ويجوز أن يقول: مُطرنا في نوء كذا، والأفضل من هذا أن يقول العبد كما جاء في الحديث: «**مُطرنا بفضل الله ورحمته**»(١).

وهذا يدل على عناية الشريعة بالعقيدة اعتقادًا وقولًا وعملًا، حيث جاءت بالنهي عن استعمال الألفاظ الدالة على محذور شرعي، كل ذلك من باب صيانة التوحيد وحفظ الإنسان من أن يتكلم بما لا ينبغي مما سيحاسب عليه يوم الدين، قال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ [الإنفطار: ١٠، ١١].

وقد جاء عن السلف ما يدل على كراهة الكلام الذي فيه أدنى مدخل من جهة الاعتقاد، أو هو مما ينبغي تركه، قَالَ بِشْرٌ الحَافِي: كَانَ المُعَافَى صَاحِبَ دُنْيَا وَاسِعَةٍ، وَضِيَاعٍ كَثِيْرَةٍ، قَالَ مَرَّةً رَجُلٌ: مَا أَشَدَّ البَرْدَ اليَوْمَ، فَالتَفَتَ إِلَيْهِ المُعَافَى، وَقَالَ: أَسْتَدْفَأْتَ الآنَ؟! لَوْ سَكَتَّ، لَكَانَ خَيْرًا لَكَ.

قال الذهبي: «قَوْلُ مِثْلِ هَذَا جَائِزٌ، لَكِنَّهُم كَانُوا يَكْرَهُوْنَ فُضُولَ الكَلَامِ، وَاخْتَلَفَ العُلَمَاءُ فِي الكَلَامِ المُبَاحِ، هَلْ يَكْتُبُهُ المَلَكَانِ، أَمْ لَا يَكْتُبَانِ إِلَّا المُسْتَحَبَّ الَّذِي فِيْهِ أَجْرٌ، وَالمَذْمُوْمَ الَّذِي فِيْهِ تَبِعَةٌ؟ وَالصَّحِيْحُ كِتَابَةُ الجَمِيْعِ...»(٢).

---

(١) انظر: «الاستذكار» (٧/ ١٥٦ ـ ١٥٧)، «شرح ابن بطال على صحيح البخاري» (٣/ ٢٩)، «فتح الباري» لابن رجب (٦/ ٢٦١)، «تيسير العزيز الحميد» ص(٤٠٢)، «القول المفيد على كتاب التوحيد» (٢/ ١٢٨)، والحديث رواه البخاري (٨٤٦)، ومسلم (٧١) من حديث زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه.

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٩/ ٨٤).

وقد روي عن الحسن البصري أنه سمع رجلًا يقول: طَلَعَ سُهيل، وبَرَدَ الليل. فكره ذلك، وقال: «إن سُهيْلًا لم يأتِ بحرٍّ ولا ببرد قطُّ»[(١)].

قال الجاحظ: «وهذا كلامٌ مجازهُ قائم، وقد كرهه الحسن كما ترى، وكأنهم من خوفهم عليهم العودَ في شيء من أمر الجاهلية احتاطوا في أمورهم، فمنعوهم من الكلام الذي فيه أدنى مُتَعلَّق»[(٢)].

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن: «والصحيح: أنه يحرم نسبة ذلك إلى النجم ولو على طريق المجاز، فقد صرح ابن مفلح في «الفروع»: بأنه يحرم قول: «مُطرنا بنوء كذا». وجزم في «الإنصاف» بتحريمه ولو على طريق المجاز، ولم يذكر خلافًا. وذلك أن القائل لذلك نسب ما هو من فعل الله تعالى الذي لا يقدر عليه غيره إلى خلق مسخر لا ينفع ولا يضر، ولا قدرة له على شيء، فيكون ذلك شركًا أصغر. والله أعلم»[(٣)].

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي: «الأنواء ليست من الأسباب لنزول المطر بوجه من الوجوه، وإنما السبب عناية المولى ورحمته، وحاجة العباد وسؤالهم لربهم بلسان الحاجة ولسان المقال، فينزل عليهم الغيث بحكمته ورحمته بالوقت المناسب لحاجتهم وضرورته»[(٤)].

---

(١) «الاستذكار» (٧/ ١٥٨).

(٢) «الحيوان» للجاحظ (١/ ٣٤١).

(٣) «فتح المجيد» ص(٣٢٤)، وانظر: «الفروع» (٣/ ٢٣٤)، «الإنصاف» (٢/ ٤٦١)، «مجموع فتاوى الشيخ ابن باز» (١٣/ ٦٣).

(٤) «القول السديد في مقاصد التوحيد» ص(١٣٣).

المطلب الثاني

استحباب التعرض للمطر

وذلك بأن يحسر الإنسان ثوبه ويكشف عن بعض بدنه كرأسه أو ذراعيه أو ساقه، ونحو ذلك ليصيبه المطر، وهذا من الفرح بنعمة الله تعالى؛ ولأن المطر لا يزال على طهارته ونقاوته لم تصبه الأرض ولم يختلط بغيره، وقد روى الإمام مسلم في «صحيحه» عن أنس رضي الله عنه قال: أصابنا ونحن مع رسول الله ﷺ مطر قال: فحسر ثوبه. حتى أصابه من المطر وقال: «**إنه حديثُ عهد بربه تعالى**»[(١)]. قال القرطبي: «أي: بإيجاد ربه له، وهذا منه ﷺ تبرُّك بالمطر، واستشفاءٌ به؛ لأن الله تعالى قد سمَّاه رحمة، ومباركًا، وطهورًا، وجعله سبب حياة، ومبعدًا عن العقوبة، ويستفاد منه احترام المطر، وترك الاستهانة به»[(٢)].

قال الشيخ عبد العزيز ابن باز: «ويستحب للمسلم أن يكشف بعض جسده عند نزول المطر حتى يصيبه المطر لفعل النبي ﷺ، فيكشف بعض الشيء من جسده كذراعه أو رأسه حتى يصيبه المطر»[(٣)].

---

(١) (٨٩٨).
(٢) «المفهم» (٢/٥٤٦).
(٣) «مجموع فتاوى الشيخ ابن باز» (١٣/٦٣ ـ ٦٤).

المطلب الثالث

النزهة بعد نزول المطر

إذا نزل المطر، أخذت الأرض زينتها، وأظهرت بهجتها، وتزينت الرياض بِنَوْرِها وأزاهيرها، وإذا سالت الأودية، دخل على الناس من ذلك كله السرور والبهجة، وبدأوا يتسابقون لرؤية الأودية ومجاري السيول، وقد أخبر الله تعالى عن فرح الناس واستبشارهم وسرورهم بنزول الغيث، قال تعالى: ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الروم: ٤٨] أي: يبشّر بعضهم بعضًا بنزوله، ويتناقلون خبره وينشرونه، وذلك لشدة حاجتهم وضرورتهم إليه، وتأمل التعبير بـ«إذا» الفجائية في قوله: ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾، إشارة إلى أنه يفاجئهم الاستبشار وأن سرورهم لا يتأخر، مما يدل على سرعة تغيرٍ ومفاجأةٍ في حالهم من اليأس والإبلاس إلى الفرح والاستبشار(١).

والنفس تتروَّح بالخروج إلى الصحراء وتنشرح برؤية الأمطار والنبات، ويسرح النظر في مسارح الفكر ومطالعة أجزاء الأرض، والصعود على التلاع والجبال أبلغ في ترويح النفس ورؤية آيات الله في الآفاق(٢).

والخروج إلى النزهة والاستجمام والفُرجة بعد نزول المطر حق مشروع، ومطلب مرغوب، ودين الإسلام دين يسر وسهولة وفسحة وسماحة، وقد قال النبي ﷺ: «**إن لنفسك عليك حقًّا، ولأهلك عليك**

(١) تفسير «البحر المحيط» لأبي حيان (٢١/ ٧٣).
(٢) «شرح سنن أبي داود» لابن رسلان (١١/ ١٤ ـ ١٥).

حقًّا»[١]، فينبغي للإنسان القادر أن يجعل لأهله وأولاده نصيبًا من هذا الاستجمام وهذه المشاهدات، فيخرج بهم إلى البر حيث النباتات وأثر الأمطار ومجاري الأودية.

وروي عن المقدام بن شريح عن أبيه قال: سألت عائشة عن البَدْوِ، قلت: وهل كان النبي ﷺ يبدو؟ فقالت: «نعم إلى هؤلاء التلاع»[٢].

وعلى من خرج بأهله للنزهة مراعاة الضوابط والآداب والالتزام بالحشمة والحجاب، والبعد عن تجمعات الرجال.

وينبغي للناس إذا خرجوا لرؤية الأمطار وجريان الأودية وظهور زينة الأرض، ألا يكون همهم التصوير، أو يكون نظرهم مجردًا عن التفكر والاعتبار، والتأملِ في آيات الله في هذا الكون الفسيح، وشُكْرِ الله تعالى على نعمة الغيث ثم إحياء الأرض بعد موتها.

---

(١) رواه البخاري (١٩٦٨).

(٢) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٥٨٠)، وأبو داود (٢٤٧٨)، (٤٨٠٨)، وأحمد (٤٠/ ٣٥٣)، وابن أبي شيبة (١٣/ ٢٤)، (١٧/ ٥٠٣)، وابن حبان (٢/ ٣١٠ ـ ٣١١)، مطولًا ومختصرًا، من طريق شريك، عن المقدام، عن أبيه به. وهذا سند ضعيف، فيه شريك بن عبد الله النخعي، وهو متكلم فيه من قِبل سوء حفظه، وقد تابعه إسرائيل بن يونس عند أحمد (٤١/ ٣١٤ ـ ٣١٥)، ورقبة بن مصقلة عند البزار (٢/ ٤٠٤ «الزوائد»)، لكن ذكر البداوة والخروج إلى التلاع مما تفرد به شريك، وقد رواه بنحوه مسلم (٢٥٩٤)، من طريق شعبة بن الحجاج، عن المقدام بن شريح به، وليس فيه ذكر البداوة، وعليه فالحديث بهذا السياق ضعيف؛ لتفرد شريك به. وقد صححه الألباني في «صحيح الأدب» ص(١٥٩)، وذكره في «الصحيحة» (٥٢٤). وانظر: «الأدب المفرد» تعليق الشيخ: عبد الله السعد ص(٣٩٤).

والبدو: الخروج إلى البادية، والتلاع: مجاري أعلى الأرض إلى بطون الأودية، واحدتها تلعة. انظر: «غريب الحديث» لأبي عبيد (٥/ ٢)، «شرح سنن أبي داود» لابن رسلان (١١/ ١٤).

وقد روي أن عمر رضي الله عنه كتب إلى أمراء الأجناد: مروا الناس أن يخرجوا إلى الصحاري أيام الربيع، فينظروا إلى آثار رحمة الله، كيف يحيي الأرض بعد موتها[(١)].

وعليهم إذا خرجوا للنزهة سواء في البر، أو في المخيمات التي تُعَدُّ لمثل ذلك أن يشكروا الله على نعمة الأمن والاستقرار ورغد العيش والصحة، ويشكروه على نعمة المراكب التي تقلهم وتوصلهم حيث شاءوا، وعليهم أن يحذروا الاستعانة بنعم الله على الأشر والبطر والطغيان، فإن هذا سبب العقوبة والخسران، والابتلاءُ بالنعمة أشد من الابتلاء بالنقمة، نسأل الله السلامة.

وعليهم في حال رجوعهم إلى منازلهم وقد احتاجوا للدفء أو الوقاية من المطر أو الرياح أن يذكروا نعمة الله عليهم بهذه المنازل، وما فيها من وسائل الحفظ، والتدفئة والراحة.

---

(١) «محاضرات الراغب» (٢/٢٥٣)، «سرور النفس» ص(٢١٩).

الفصل الخامس

في التذكير بنعم اللّٰه وفضل الصدقة

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: في نعم الله تعالى في فصل الشتاء.

المطلب الثاني: في فضل الصدقة في فصل الشتاء.

المطلب الأول

في نعم الله تعالى في فصل الشتاء

للّه تعالى على عباده نِعم عظيمة على الدوام، لا يمكن أن يحصوها، وذلك لكثرتها واستمرارها ويسرها وتتابع إنعام الله بها، ومن هذه النعم نِعم الله تعالى في فصل الشتاء، وهذه النعم منها ما هو موجود طوال السنة، ولكن لا يظهر نفعها ويتبين أثرها وحاجة الإنسان إليها إلا في فصل الشتاء؛ لأنها تعين بفضل الله تعالى على اتقاء البرد، وحماية البدن منه، والقيام بالوظائف الدينية والدنيوية.

والمؤمن اليقظ صاحب القلب الحي، يتذكر نعم الله تعالى عليه، وذِكْرُ نعم الله تعالى وآلائه على عبده سبب الفلاح والسعادة؛ لأن ذلك لا يزيده إلا محبة لله وحمدًا وشكرًا وطاعةً وشهودَ تقصيره ـ بل تفريطه ـ في القليل مما يجب لله عليه، قال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩][١].

قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الفكرة في نعم الله: أفضل العبادة»[٢]، وإنما كانت الفكرة في نعم الله أفضل العبادة، لأن التفكر فيها يؤدي إلى استحضارها والإحساس بها، وهذا سيؤدي ـ بتوفيق الله تعالى ـ إلى شكرها بالقلب واللسان والجوارح.

والإنسان لا يستطيع أن يكافئ نعم الله عليه، ولا أن يقوم

(١) «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٦٥٣).
(٢) «حلية الأولياء» (٥/ ٣١٤).

بشكرها، لأنه لا يستطيع أن يحصيها، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨]، قال بعض السلف: «أصبح بنا من نعم الله ﷻ ما لا نحصيه مع كثرة ما نعصيه، فما ندري أيهما نشكر؟ أَجَمِيلَ ما ظَهَرَ أم قَبِيحَ ما سَتَرَ؟»[١].

والمال في الشتاء نعمة عظيمة، لأنه سبب في حياة سعيدة، يستطيع الإنسان أن يستدفئ به، في طعام أو لباس أو وسائل تدفئة، وقد أشار بعض الشعراء إلى هذا بقوله:

يَقُولُونَ كَافَاتُ الشِّتَاءِ كَثِيْرَةٌ ... ومَا هِيَ إِلَّا وَاحِدٌ غَيْرُ مُفْتَرَى
إِذَا صَحَّ كَافُ الكِيْسِ فَالكُلُّ حَاصِلٌ ... لَدَيْكَ، وَكُلُّ الصَّيْدِ يُوجَدُ فِي الفَرَا[٢]

ولذا فإن العرب يرون أن فصل الصيف زمن الكدِّ والتعب، وتحصيل المعاش؛ لقوة الأبدان، وفصل الشتاء زمن الراحة والاستمتاع وضعف الأبدان، لأن البرد يمنع الناس من التصرف، وما قد يصاحب ذلك من أمطار ورياح قد يكون لها أثر في قلة البذل والعمل، ولذا عَظُمَ شأن الصدقة في فصل الشتاء، كما سيأتي ـ إن شاء الله ـ.

ومن أمثال العامة: من غلى دماغه في الصيف، غلى قِدره في الشتاء[٣].

---

(١) «كتاب الشكر» لابن أبي الدنيا ص(٦٦).
(٢) «وفيات الأعيان» (٤/ ٤١٣). وكافات الشتاء سبعٌ، وردت في بيتين من الشعر، لابن سُكَّرَة (٣٨٥)، وذكرهما الحريري في «مقاماته» ص(١٨٧) المقامة (٢٥)، وقد رغبت عن ذكرهما. انظر: «وفيات الأعيان» (٤/ ٤١٠). وآخر الشطر الثاني مثل من أمثال العرب. والفَراء: بالفتح الحمار الوحشي. وهو يضرب لمن يُفَضَّلُ على أقرانه. انظر: «مجمع الأمثال» (٣/ ١١ ـ ١٢).
(٣) تقدم ذكره ومعناه ص(١٨).

ومن أوضح نعم الله تعالى في فصل الشتاء:

١ ـ نعمة المساكن:

امتن الله تعالى على عباده بنعمة البيوت؛ يستتر الإنسان فيها من حر الصيف وبرد الشتاء، ويحفظ فيها حَرَمَهُ وأولاده وماله، يأوي إليها ويرتاح من عمل النهار، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [النحل: ٨٠].

وقد أفادت هذه الآية أن البيوت نوعان:

النوع الأول: بيوت ثابتة مستقرة، وهي الدور والقصور، وغالب بيوت الناس في هذا الزمان بيوت محكمة، مغلقة بالأبواب القوية، والنوافذ المتينة، لا تتأثر ـ من فضل الله تعالى ـ بالرياح ولا بالأمطار، تحفظ من البرد المهلك، وتقي من الحر المؤذي.

النوع الثاني: بيوت متنقلة غير مستقرة، وهي الخيام ونحوها التي تصنع من جلد الحيوان أو مما نبت عليه من صوف وشعر ووبر، ومن صفاتها أنها عظيمة النفع، خفيفة الحمل، وهي من نعم الله تعالى على عباده في السفر والمنازل التي لا قصد لهم في استيطانها. فتقيهم من الحر والبرد والمطر والرياح، ولا سيما في الصحاري والمتنزهات حيث تظهر الحاجة الشديدة إلى ما يقي الإنسان من الأحوال العارضة، كالبرد والمطر والرياح.

فإذا كانت البيوت نعمة، وجب علينا شكرها، بجعل هذه البيوت موضعًا لطاعة الله تعالى الذي يسَّرها، وتطهيرها من كل ما يُغضب الله أو يتنافى مع الشكر، من آلات اللهو ووسائل الفساد المسموعة والمرئية.

والواجب على المؤمن أن يستشعر هذه النعمة العظيمة، ويدرك فضل الله عليه بهذا المسكن الواسع الذي يرتاح فيه، ويحتمي به من البرد، وعليه أن يتذكر أن له إخوانًا لا يملكون من المساكن ما يحميهم من برد الشتاء أو مطر السماء، وكثير من الناس في بيوتهم لا يحسون ببرد،، ولا يتأذون بمطر ولا رياح، فما أعظم نعم الله علينا عمومًا وفي فصل الشتاء خصوصًا!، نسأل الله أن يرزقنا شكرها بملازمة الطاعات ومجانبة الزلَّات.

٢ ـ نعمة اللباس:

اللباس نعمة عظيمة من نِعم الله تعالى على خلقه، يستر البدن، ويحفظه من عاديات الجو وتقلباته، ويحفظه من الحر ويقيه من البرد، إضافة إلى أنه زينة وجمال، وقد تنوعت الملابس، فهناك الملابس الصيفية لفصل الصيف، والملابس الشتوية لفصل الشتاء، ثم تعددت أنواع ملابس الشتاء وألوانها، فمنها: ما يدفئ الرِّجلين، ومنها ما يدفئ اليدين، ومنها ما يدفئ بقية البدن من ملابس داخلية وخارجية.

انظر إلى محلات بيع الملابس، ما أكثرها! وتأمل تعدد الملابس الشتوية في أنواعها وألوانها وطرق تفصيلها وخياطتها تعددًا لا يقارن بالملابس الصيفية، كل ذلك تلبية لحاجة البدن، فللرأس غطاء، وللرِّجلين واليدين وقاء، ولبقية البدن شعار، وهي الملابس الداخلية من القطن والصوف، ودثار وهي الملابس التي فوقها.

وقد ذكر الله تعالى ما يُدفع به البرد، فقال تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل: ٥]، فانظر كيف أفرد الدفء بالذكر، وخصَّه بالتنويه مع أنه من جملة المنافع، وما ذلك ـ والله أعلم ـ إلا لأهميته في حياة الناس وكون الجميع يحتاجونه، ولا ينافي ذلك

أن التقديم قد يكون رعاية لأسلوب الترقي إلى الأعلى. فإن الله تعالى ذكر الدفء ثم المنافع، وهي: ألبانها وما تصرَّف منها، ودهونها، وحرثها، والنضح عليها، وغير ذلك؛ ثم ذكر الأكل الذي هو من جميعها[١].

والدفء: السَّخَانَةُ والسخونة وذهاب البرد بالأكسية والأغطية.

والدفء: اسم لكل ما يستدفأ به، وفسره ابن عباس رضي الله عنهما فيما أخرجه عنه ابن جرير بالثياب، وقيل: المراد به: ما يعم اللباس والبيت الذي يُتخذ من أوبارها وأصوافها[٢].

وهذه الآية: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ﴾ [النحل: ٥] جاءت في أول سورة النحل، وهي سورة النِّعَم، وقد ذكر الله في أولها أصول النعم التي لا بد منها، ولا تقوم الحياة إلا بها، وذكر في أثنائها تمام النعم، فقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١].

فذكر في أولها ما يقي البرد من أصول النعم في قوله: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ﴾ والبرد من المهلكات، وقد مات خلقٌ من البرد، بخلاف الحر فإنه يؤذي، والموت منه غير معتاد، ولذا قال بعض العرب: «البرد بؤسٌ، والحر أذى»[٣]، فلما ذكر في أثنائها تمام النعم، ذكر الظلال وما يقي الحر، وذكر ما يقي القتل، ولم يذكر ـ هنا ـ وقاية البرد؛ لأنه تقدم أول السورة، ولما ذكر في أثنائها تمام النعم قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ﴾[٤].

---

(١) «المحرر الوجيز» (٥/٣٢٨).
(٢) «تفسير الطبري» (١٤/٧٩)، «روح المعاني» (١٤/٩٨).
(٣) انظر: «سرور النفس بمدارك الحواس الخمس» ص(٢٤٠).
(٤) انظر: «مجموع فتاوى ابن تيمية» (١٦/١٥٤، ١٥٩ ـ ١٦١) (٢٢/١٥١ ـ ١٥٢).

ولو لم يكن للباس من الأهمية في حياة البشر إلا أنه يقيهم البرد ـ وكذا الحر ـ، لكفى ذلك إشعارًا بأهميته وعظيم نعمة الله تعالى به على عباده(١).

ويجوز للرجل لُبس الثياب الملونة كالأزرق والرصاصي والكحلي والأسود والقاتم وغيرها من الألوان، ومن مزايا الألوان السوداء والقاتمة أنها تمتص حرارة الشمس التي تدفئ البدن.

وحكم الملابس باقٍ على الأصل، إذ الأصل في الملبوسات الحِل، إلا ما قام الدليل على المنع منه وتحريمه، قال النووي: «يجوز لُبس الثوب الأبيض والأحمر والأصفر والأخضر والمخطط، وغيرها من ألوان الثياب، ولا خلاف في هذا ولا كراهة في شيء منه»(٢).

وجاء في حديث أبي جُحيفة رضي الله عنه في إقامة النبي صلى الله عليه وسلم في الأبطح في حجة الوداع: قال: خرج النبي صلى الله عليه وسلم في حُلَّةٍ حمراء مشمرًا فصلى إلى العَنَزَةِ بالناس ركعتين(٣). قال ابن بطال نقلًا عن المهلب: «فيه إباحة لباس الحمرة في الثياب، والرد على من كره ذلك، وأنه يجوز لباس الثياب الملونة للسيد الكبير والزاهد في الدنيا، والحمرةُ أشهر الملونات وأجلّ الزينة في الدنيا... ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، فدخل فيه كل زينة مباحة»(٤).

ومن شكر هذه النعمة أن يتذكر الإنسان أن له إخوانًا يعانون من

---

(١) «لباس الرجل أحكامه وضوابطه» (١/ ٧٣ ـ ٧٤).
(٢) «المجموع» (٤/ ٤٥٢)، والنووي يتكلم عن المذهب الشافعي، وإلا ففي جواز لبس الرجال للأحمر خلاف. انظر: «لباس الرجل أحكامه وضوابطه» (١/ ٢١٤ ـ ٢١٥).
(٣) رواه البخاري (٣٧٦)، ومسلم (٥٠٣)، (٢٥٠).
(٤) «شرح صحيح البخاري» (٢/ ٣٩).

شدة البرد معاناةً شديدةً؛ لأنهم لا يجدون ما يتقون به برد الشتاء، ومن هؤلاء نساء وأطفال ويتامى، هم بأمسّ الحاجة إلى اللباس الداخلي، الذي له أثر في تدفئة البدن، كما أنهم بأمس الحاجة إلى الطعام والدواء، فإن منهم المرضى وكبار السن وأولات أحمال.

٣ ـ نعمة الفُرُش والأغطية:

ومن نعم الله تعالى في فصل الشتاء: الفُرُش الوثيرة، والأغطية الناعمة الدافئة التي تحفظ البدن وتقيه من البرد، فينام الإنسان دافئًا ليالي الشتاء الطويلة الباردة، ويقوم آخر الليل أو لصلاة الصبح صحيحًا معافى، وقد ارتاح جسمه وفكره من عناء النهار والتقلب في هذه الحياة، ولا يدرك قيمة هذه النعمة إلا من سهر ليله لعارض من العوارض أو لشدة البرد الذي لا ينام الإنسان معه وقد يضره، ونحن غافلون عن شكر هذه النعمة العظيمة نعمة النوم على هذه الصفة، لا نُحس بها عندما نتمدد في فرشنا ونستدني اللحاف، لأننا ألفناها فلا نشعر بها إلا حين نفقدها لسبب من الأسباب.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٧]، قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقوله: ﴿وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتًا﴾ أي: قَطْعًا للحركة؛ لراحة الأبدان، فإن الأعضاء والجوارح تَكِلُّ من كثرة الحركة في الانتشار بالنهار بالمعايش، فإذا جاء الليل وسكن سكنت الحركات فاستراحت، فحصل النوم الذي فيه راحة الروح والبدن معًا»[(١)].

وتأمل عظم هذه النعمة ـ نعمة الفُرُش والأغطية ـ حينما يخرج الإنسان في الرحلات البرية أيام الشتاء، فينام ليله الطويل دافئًا مرتاحًا لا يحس ببرد ولا يشكو من أذى، وما حاله لو نسي فراشه أو كان فراشًا

(١) «تفسير ابن كثير» (٦/ ١٢٣).

قليلًا أو خفيفًا لا يفي بالمقصود، وبات ليله يعاني من شدة البرد وطول الليل؟!

وقد كان الناس قديمًا لا يجدون الفُرش والأغطية لأهل البيت جميعًا، فكان بعض الأولاد منهم ينامون في مكان يطلق عليه في زمانهم «الخان»(١) يجمعون فيه التبن(٢) طعامًا للحيوان، فيأتي الشاب وينغمر في التبن فيجده دافئًا على ما فيه من خطر الحشرات، إضافةً إلى القلق وعدم الراحة، حدثني بذلك من ناموا كذلك، وقد يجعلون حفرًا صغيرة في التراب، يستكنُّ فيها الإنسان من البرد، ويطلق عليها: الدُّحُول(٣) والقراميص. قال الشاعر:

جَاءَ الشِّتَاءُ ولَـمَّا أَتَّخِذْ رَبَضًا   يَا وَيْحَ كَفِّيَ مِنْ حَفْرِ القَرَامِيْصِ(٤)

يريد أنه جاء الشتاء ببرده وزمهريره، وليس له ما يقيمه من القوت ويكفيه، أو ليس له امرأة تُرْبضه ويسكن إليها، فعليه أن يستعد لحفر القراميص لينام فيها، وهو يتوجع لكفيه مما سيحصل لهما.

إن على الإنسان حين ينام على فراشه ويلتحف بالأغطية الدافئة أن يتذكر نعم الله عليه فينام شاكرًا ذاكرًا عازمًا على القيام لصلاة الفجر، وعليه أن يعلم أن له إخوة في العقيدة هم بأمس الحاجة إلى ما يدفئ أبدانهم عند النوم، لأن منهم من يفترش الأرض ويلتحف السماء، لا يجدون ما يدفئ أبدانهم ولا أبدان نسائهم وأطفالهم.

---

(١) الخان: كلمة فارسية مُعَرَّبة، تعني في الأصل: ما ينزله المسافرون. «المُعَرَّب» للجواليقي ص(٢٨٧).

(٢) التبن: ساق الزرع بعد دياسه، والمَتْبن والمَتْبنة: بيت التبن. «المصباح المنير» ص(٧٢).

(٣) كلمة عربية لها عدة معانٍ. انظر: «تاج العروس» (٢٩/ ٤٧٣).

(٤) انظر: «تهذيب اللغة» (١٢/ ٢٥)، «الأزمنة والأمكنة» ص(٢٦٧).

٤ ـ نعمة الأطعمة:

ومن نِعم الله تعالى علينا هذه الخيرات الوفيرة من صنوف الأطعمة وأنواع المآكل التي نصنعها في بيوتنا أو تُجلب إلينا من شتى بقاع الأرض، وأكثرها بثمن ميسور.

وفي الشتاء تظهر شهية الطعام ويحتاج البدن إلى الأكل الدافئ والمشروب الساخن أكثر من فصول أخرى[(١)]، وقد جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُوعِ، فَإِنَّهُ بِئْسَ الضَّجِيعُ**...»[(٢)].

والضجيع: من ينام في فراشك، وأطلق على الجوع ضجيعًا للزومه الإنسان ليلًا ونهارًا في النوم واليقظة، فيمنع صاحبه من الهجوع ـ وهو النوم ـ وهو في ليالي الشتاء أشد، كما يمنع وظائف العبادات؛ لأنه يشوش الدماغ، ويضعف البدن ويمنعه راحته[(٣)].

فالواجب شكر هذه النعم شكرًا عمليًّا يظهر على الجوارح، قال

---

(١) انظر: «سرور النفس» ص(٢١٨، ٢٣٧).

(٢) رواه أبو داود (١٥٤٧)، والنسائي (٥٤٦٨)، من طريق محمد بن عجلان، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا. وهذا سند حسن، ابن عجلان ثقة، لكنه اختلطت عليه أحاديث سعيد فيما رواه عن مشايخه، فجعلها ابن عجلان كلها عن سعيد عن أبي هريرة رضي الله عنه وهذا ـ كما يقول ابن حبان ـ لا يضر؛ لأن الصحيفة كلها في نفسها صحيحة. وقد تابع ابن عجلان أبو معشر ـ نجيح بن عبد الرحمن السندي ـ عند الطبراني في «الدعاء» (١٣٦٠) وهو إن كان ضعيفًا إلا أن حديثه يكتب في الشواهد والمتابعات. والحديث رواه ابن ماجه (٣٣٥٤) وفي سنده ليث بن أبي سليم وهو ضعيف، وشيخه كعب وهو أبو عامر المدني مجهول. لكنه يعضد ما قبله. انظر: «عمل اليوم والليلة» للنسائي ص(١٧٩)، «جامع الترمذي» (٢٧٤٧)، «الثقات» (٧/ ٣٨٧)، «تخريج أحاديث الذكر والدعاء» لياسر بن فتحي (٣/ ١١٥٢).

(٣) انظر: «شرح الطيبي» (٥/ ١٩٣)، «المنهل العذب المورود» (٨/ ٢٠٧)، «حاشية السندي على النسائي» (٨/ ٢٦٣).

شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الأصل في الأطعمة الحل لمسلم يعمل صالحًا؛ لأن الله تعالى إنما جعل الطيبات لمن يستعين بها على طاعته لا معصيته، لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٩٣]... ومن أكل من الطيبات ولم يشكر فهو مذموم، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨] أي: عن الشكر عليه، والكافر لم يشكر على النعيم الذي أنعم الله عليه به، فيعاقبه على ذلك، والله إنما أباحها للمؤمنين، وأمرهم معها بالشكر، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٢]»(١).

وما أحسن ما قاله بعض السلف في يوم عيد: «أصبحتم زُهْرًا وأصبح الناس غُبْرًا، أصبح الناس ينسجون وأنتم تلبسون، وأصبح الناس يُعْطُون وأنتم تأخذون، وأصبح الناس يُنْتِجون وأنتم تركبون، وأصبح الناس يزرعون وأنتم تأكلون»، فبكى وأبكاهم(٢).

وعلى الإنسان أن يتذكر عند تناول هذه النعم وتلذذه بها أن له إخوة في العقيدة هم بأمسِّ الحاجة إلى الطعام، ولاسيما في أيام الشتاء، لأن الأكل يدفع البرد ويدفئ البدن، فينام الإنسان ليالي الشتاء الطويلة الباردة دفآنَ شبعانَ ريَّانَ.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٧/ ٤٤)، «الاختيارات» ص(٣٢١).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «الشكر» ص(٣٥) عن عبد الله بن محمد الشرعبي، ورواه ابن سعد في «الطبقات» (٧/ ٤٥١) عن عبد الله بن مخمر، وذكره ابن القيم في «عدة الصابرين» ص(٢٤٩)، وقوله: «زُهْرًا» و«غُبْرًا» جمع: أزهر وأغبر، على حد قول ابن مالك في «ألفيته»: «فُعْلٌ لِنَحْوِ أَحْمَرٍ وحَمْرَا». والأغبر: الذي لونه مثل لون الغبار. «تهذيب اللغة» (٨/ ١٢٢).

٥ ـ وسائل التدفئة:

ومن نعم الله على عباده في فصل الشتاء: أن هيأ الله لهم في هذه الأزمان في غالب البلدان وسائل التدفئة بواسطة الكهرباء أو الغاز ونحوهما، وقد كانت في الزمن القديم مقصورة على النار التي توقد بالحطب والفحم وغيرهما، وهذه الوسائل الحديثة أيسر وأسهل من الحطب، وأكثر أمانًا، لكن مع هذا لابد من الحذر والاحتياط في استعمالها، وسيأتي هذا ـ إن شاء الله تعالى ـ.

والشمس في النهار من وسائل التدفئة، تدفئ الجسم كله بلا كلفة، وفي أي مكان يجدها الإنسان، وتأمل نفع الشمس وأثرها في فصل الشتاء عندما يشتد البرد، ويظهر الضباب، وتنخفض درجة الحرارة في الليل وفي الصباح إلى أدنى معدل لها، فإذا طلعت الشمس أدفأت الكون بما فيه من إنسان وحيوان ونبات، وصارت درجة الحرارة ترتفع شيئًا فشيئًا، فامتد الناس في أمور معاشهم، ورتع الحيوان في المرعى.

وانظر إلى حال الناس في الشتاء إذا تراكمت الغيوم وتكاثفت السحب مع برودة الجو، كيف يشتاق الناس إلى الشمس، وإلى ضيائها ودفئها؟! ولا تسأل عن سرورهم بظهورها وانجلاء ما يحجبها، وقد كُنَّا نعيش ذلك في الأزمان الماضية عندما تتراكم السحب ويشتد البرد عدة أيام تصل إلى سبعة أو عشرة لا نرى فيها شمسًا، ثم يأذن الله تعالى بتفرق السحب وظهور الشمس، وقد تقدمت الإشارة إلى شيء من فوائد الشمس.

وتنبغي العناية بفتح نوافذ الغرف لتدخلها الشمس، فتدفئها وتعقمها، وقديمًا قيل: «البيت الذي تدخله الشمس لا يدخله الطبيب».

٦ ـ وسائل تسخين الماء:

ومن نعم الله على عباده في فصل الشتاء في هذه الأزمان في غالب البلدان: وسائل تسخين الماء بواسطة الكهرباء أو غيره، وهي وسيلة سهلة وميسرة لا تحتاج إلى عناء، ولا تستدعي تكلفة، بل بمجرد أن يفتح صنبور[(١)] الماء على اتجاه معين ينزل الماء الدافئ فيتوضأ أو يغتسل دون تعب في إعداد الماء، ولا مشقة ولا ضرر في وضوء ولا اغتسال.

وقد كان الناس قديمًا يُعانون من الوضوء، أو الغسل بالماء البارد، كما يعانون من تسخين الماء بالحطب ونحوه مما يشق أيام الشتاء.

٧ ـ نعمة الصحة:

الصحة من نعم الله في جميع الأزمان، لأنها تساعد البدن ـ بتوفيق الله ـ على أداء وظيفته بصورة أفضل، فيقوم العبد بوظائفه الدينية والدنيوية على أكمل وجه، ويظهر قدر الصحة في زمان الشتاء، لأن بعض الأمراض وعوارض البدن لا يدفأ معها الجسم بل يظل يحس بالبرد ويتأذى به، وهذا إما لفقد شهية الطعام الذي يدفئ بدنه، أو لنقص بعض الفيتامينات في البدن، أو وجود بعض الآثار أو الجروح في الأعضاء، فتتأثر بالبرد والماء البارد، وبعض الجروح قد يتأخر برؤها في فصل الشتاء.

فليحمد الله تعالى من عافاه الله ويعرف قدر نعمة الصحة ولباس العافية، إذا نام ليالي الشتاء الطويلة الباردة صحيحًا مُعافى، وقد قال النبي ﷺ: «**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ**»[(٢)]،

(١) وهو المعروف بالبزبوز. انظر: «تاج العروس» (١٢/ ٣٥٥)، (١٥/ ٣٣).
(٢) رواه البخاري (٦٤١٢).

وعليه أن يستحضر هذه النعمة في حركاته وسكناته، ليقوم بشكرها، وذلك بتسخير هذا البدن الصحيح فيما يرضي الملك الوهاب بامتثال أوامره واجتناب مناهيه.

وإذا حصل للإنسان أَرَقٌ من غير شكوى في بعض ليالي الشتاء الطويلة، وقد منَّ الله عليه بالصحة والعافية، فعليه أن يتذكر نعمة الله في بقية الليالي، وكيف تمضي الساعات الطويلة وهو يَغِطُّ في سُبَاتٍ عميق؟، وعليه أن يتذكر من يسهر الليالي من مهموم ومريض وغيرهما ممن ينتظر طلوع الفجر، ولو استفاد من ساعات الأرق في تلاوة كتاب الله أو صلاة ما تيسر من النوافل لكان أفضل.

وقد جاء في الحديث عن عبادة بن الصامت ﵁ عن النبي ﷺ قال:

«مَن تَعارَّ مِنَ اللَّيْلِ، فَقالَ: لا إلَهَ إلَّا اللهُ وحْدَهُ لا شَرِيكَ له، له المُلْكُ وله الحَمْدُ، وهو علَى كُلِّ شيءٍ قَديرٌ، الحَمْدُ لِلَّهِ، وسُبْحَانَ اللهِ، ولَا إلَهَ إلَّا اللهُ، واللهُ أكْبَرُ، ولَا حَوْلَ ولَا قُوَّةَ إلَّا باللهِ، ثُمَّ قالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، أوْ دَعَا؛ اسْتُجِيبَ له، فإنْ تَوَضَّأَ وصَلَّى قُبِلَتْ صَلَاتُهُ»[(١)].

٨ ـ وسائل النقل:

ومن نعم الله على عباده في فصل الشتاء: وسائل النقل؛ كالسيارات التي يركبها الإنسان دون أن يتأثر بالمطر أو ببرودة الجو ولفح الهواء، بل هي بالإضافة إلى كونها مغلقة هي أيضًا مزودة بالهواء الدافئ شتاءً والبارد صيفًا، فيسير عليها راكبها داخل المدن وخارجها، ويقطع

---

(١) رواه البخاري (١١٥٤). والتعار: السهر والتمطي، والتقلب على الفراش ليلًا. انظر: «الفائق في غريب الحديث» (٢/٤١٨)، «مطالع الأنوار» (٤/٣٩٩)، «فتح الباري» (٣/٤٠).

المسافات الطويلة وكأنه جالس في غرفة مغلقة، لا يؤثر عليه برد ولا هبوب رياح، ولا يؤذيه مطرٌ ولا طَلٌّ.

وما حاله لو كان يسير على ظهر الإبل ونحوها ويريد قطع مسافات بعيدة مع شدة البرد أو هطول الأمطار أو الرياح الباردة العاصفة أو الغبار الشديد الذي لا يرى معه ما حوله؟! ألا فلنحمد الله على هذه النعمة نعمة وسائل النقل، ونشكره عليها، لتكون عونًا لنا على طاعته وعلى ما أباح لنا.

المطلب الثاني

في فضل الصدقة في فصل الشتاء

للصدقة في فصل الشتاء شأنٌ عظيم، فإننا كما نُحس بشدة البرد والرغبة في تدفئة البدن باللباس والطعام والغطاء؛ اتقاءً لشدته، أو خوفًا من أضراره، فإن لنا إخوة في العقيدة يستقبلون قبلتنا ويصلون صلاتنا، ولا يجدون ما نجد مما يُتقى به شدة البرد أو ضرره.

والآيات والأحاديث في الحث على الصدقة كثيرة جدًّا، ولا سيما عند الحاجة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد: ١١ ـ ١٦]، ففي الآية دليل وحثٌّ على فعل الخيرات، ومن ذلك الصدقة ـ وقت المجاعة ـ على اليتيم والمسكين، وصلة الأرحام، والمبادرة إلى ذلك في أوقات المجاعات، وقال تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥] ومن أنواع الإحسان: الإحسان إلى الفقراء والمحتاجين.

وقد روي عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أيُّما مؤمن أطعم مؤمنًا على جوع أطعمه الله يوم القيامة من ثمار الجنة، وأيما مؤمن سقى مؤمنًا على ظمإٍ سقاه الله يوم القيامة من الرحيق المختوم، وأيما مؤمن كسا مؤمنًا على عري كساه الله من خضر الجنة**»(١).

---

(١) رواه أبو داود (١٦٨٢)، والترمذي (٢٤٤٩)، وأحمد (١٧/١٦٦ ـ ١٦٧)، من طريق عطية العوفي، ونبيح العنزي، كلاهما عن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعًا، وفي سياقه تقديم =

وروى ابن أبي الدنيا في «اصطناع المعروف» بسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «يحشر الناس يوم القيامة أعرى ما كانوا قطُّ، وأجوعَ ما كانوا قط، وأظمأَ ما كانوا قط، وأنصبَ ما كانوا قط، فمن كسا لله كساه الله، ومن أطعم لله أطعمه الله، ومن سقى لله سقاه الله، ومن عمل لله أغناه الله تعالى»(١).

وهذا الحديث وما قبله، وما في معناهما دليل واضح على فضل كسوة العاري وإطعام الجائع، وأسانيدها لا تخلو من مقال، وهي باجتماعها تقوى؛ لتعدد رواتها ومخارجها، وهي مؤيدة بأدلة كثيرة فيها الحث على الصدقة وبيان فضلها، كما أنها مؤيدة بعموم الأدلة على أن الجزاء من جنس العمل، والجنة دار الكرامة ودار النعيم، ودار الجزاء والإحسان، والله تعالى يجازي العامل بعمله وأكثر من عمله، تفضلًا منه سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾ [النبأ: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمٰن: ٦٠]، فمن كسا كُسي من خُضْرِ الجنة، وهي أنفس ثيابها وأغلاها، وأحسنها وأهداؤها في العين، ومن أطعم أُطعم من ثمار الجنة، ومن سقى سُقي من الرحيق المختوم الذي آخره وعاقبته مسك، أي: يختم شرابهم برائحة المسك، والرحيق: صفة الخمر الذي لا غش فيه(٢).

والصدقة إذا وافقت حاجة من المتصدَّق عليه كان أثرها أكثر، ونفعها أعظم، وأجرها أجزل عند الله تعالى.

= وتأخير، وهذا لفظ الترمذي، قال الترمذي: «وقد روي هذا عن عطية عن أبي سعيد موقوفًا، وهو أصح عندنا وأشبه»، وقال أبو حاتم ـ كما في «العلل» لابنه (٢٠٠٧) ـ: «الصحيح موقوف، الحفاظ لا يرفعونه».

(١) «موسوعة ابن أبي الدنيا» (١/ ٢٧٨) وهو حديث ضعيف.

(٢) انظر: «تفسير الطبري» (٣٠/ ١٠٧).

والصدقة على الفقراء والمحتاجين دليل على كمال الإيمان، وحسن الإسلام، والطاعة لله تعالى وللرسول ﷺ، وهي سببٌ لحفظ الإنسان في ماله وبدنه وأهله، وهي دليل ـ أيضًا ـ على التكافل الاجتماعي والتراحم بين الخلق، وهي برهان على اعتراف العبد بفضل الله تعالى عليه وشكره على نعمه، فينبغي للإنسان أن يتصدق باللباس الفاضل عن حاجته، أو بالأطعمة، أو الأغطية التي يستفاد منها؛ ليجد ذلك عند الله تعالى مدَّخرًا له أحوج ما يكون إليه.

ومما يناسب ذكره ـ هنا ـ أن العرب تسمي القَحْطَ شتاءً، لأن المجاعات أكثر ما تصيبهم في الشتاء، إذا قَلَّ مطره، واشتد برده، ذلك أن الناس في الشتاء يلزمون بيوتهم، ولا يخرجون للانتجاع، يقال: أشتى القوم، فهم مُشْتُونَ: إذا أصابتهم مجاعة. قال الحطيئة ـ وقد جعل الشتاء قَحْطًا ـ:

إِذَا نَـزَلَ الـشِّـتَـاءُ بِـدَارِ قَـوْمٍ   تَـجَنَّبَ جَارَ بَيْتِهِمُ الشِّتَاءُ[(١)]

فأراد بالشتاء: المجاعة[(٢)]؛ لأن العرب تكني بالشتَوات عن المجاعات والشدائد والأزمات؛ لأنها أكثر ما تكون في ذلك الزمن.

وكانت العرب تفتخر بالإطعام زمن الشتاء، وتتحدث به، قال الشاعر:

أَخُو شَتَواتٍ يَعْلَمُ النَّاسُ أَنَّهُ   سَيَكْثُرُ مَا فِي قِدْرِهِ وَيَطِيْبُ[(٣)]

وقد تقدم قول طَرَفَة:

نَحْنُ فِي المَشْتَاةِ نَدْعُو الجَفَلَى   لَا تَرَى الآدِبَ فِيْنَا يَنْتَقِرْ[(٤)]

---

(١) «ديوان الحطيئة» ص(٥٧)، وفي «ديوان الحطيئة» رواية وشرح ابن السكيت ص(٨٨): «بجار قوم»، وفي رواية: «تجنب دار جارهم»، قال ابن قتيبة: «أقام الشتاء مقام الضيق؛ لأنه وقت له» ومعنى البيت: أنه إذا نزل البرد والجهد فإن جارهم في غنى وكفاية، لا يجد للشتاء مسًّا؛ لإفضالهم عليه. «شرح ابن السكيت» ص(٨٨).
(٢) «اللسان» (١٤/ ٤٢٢).
(٣) «سمط اللآلي» (٢/ ٧٧٣).
(٤) انظر: ص(١٨).

وقال حاتم الطائي يأمر غلامه بإيقاد النار:

أَوْقِدْ فَإِنَّ اللَّيلَ لَيلٌ قَرُّ   والرِّيحَ يَا مُوْقِدُ رِيْحٌ صِرُّ
عَسَى يَرَى نَارَكَ مَنْ يَمُرُّ   إِنْ جَلَبْتَ ضَيْفًا فَأَنْتَ حُرُّ(١)

كما كانوا يذمُّون من يبخل بالإطعام، أو ينسى جيرانه، وقد تقدم قول الأعشى:

تَبِيتُونَ فِي المَشْتَى مِلَاءً بُطُونُكُمْ   وَجَاراتُكُمْ جَوْعَى يبِتْنَ خَمَائِصَا(٢)

وعلى الإنسان أن يحرص على إنفاق الطيب والجيد من المال من طعام أو لباس أو لحاف، أو غير ذلك مما يستفاد منه، قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٩٢] أي: لن تنالوا البر حتى تكون نفقتكم في سبيل الخير من المال المحبوب، وهو النفيس العزيز على النفس؛ لأن الإنفاق منه دليل على السخاء لوجه الله تعالى، وفي ذلك تزكية للنفس من بقية ما فيها من الشح، قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩] وفي ذلك صلاح عظيم للأمة، إذ تجود أغنياؤها على فقرائها بما تطمح إليه نفوسهم من نفائس الأموال، فتشتد بذلك أواصر الأخوة، ويهنأ عيش الجميع(٣).

وقد نهى الله تعالى عباده المؤمنين أن يقصدوا الرديء فينفقوا منه، ويضرب لهم مثلًا بأنهم لا يرضونه لأنفسهم لو دُفع إليهم عن حقٍّ واجب. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

---

(١) «ديوانه» ص(٢٩). وقوله: (قَرُّ): أي: شديد البرد، و(صِرُّ): شديدة البرد.
(٢) تقدم في ص(١٨).
(٣) انظر: «التحرير والتنوير» (٤/٦).

قال ابن العربي: «لا خلاف بين أهل التفسير أنها نزلت في الرجل كان يأتي بالقِنْوِ من الحَشَفِ فيعلقه في المسجد، يأكل منه الفقراء»[(١)].

فقوله: ﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ﴾ أي: لستم بآخذي هذا الرديء، ﴿إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِۚ﴾ أي: تتساهلوا فيه وتأخذوه على كرهٍ، فإذا كنتم لا ترضون بأخذه ولا تقبلونه إلا على سبيل التغاضي والتساهل، فكيف ترضونه لله تعالى؟!، والله تعالى إنما أمركم بالإنفاق لمصلحتكم ونجاتكم، لم يطلب الإنفاق منكم لحاجته إليه، بل هو سبحانه ﴿غَنِيٌّ﴾ أي: كثير الخير غير محتاج لما تنفقون، ﴿حَمِيدٌ﴾ أي: محمود عند خلقه؛ لكثرة خيره وسعة جوده وكرمه[(٢)].

قال ابن القيم: «فإنه سبحانه طيب لا يقبل إلا طيبًا، ثم ختم الآية بصفتين يقتضيهما سياقهما، فقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ فغناه وحمده يأبى قبوله الرديء؛ فإن قابل الرديء الخبيث: إما أن يقبله لحاجته إليه، وإما أن نفسه لا تأباه؛ لعدم كمالها وشرفها، وأما الغني عنه، الشريف القدر الكامل الأوصاف، فإنه لا يقبله»[(٣)].

ومما يعين على الصدقة في فصل الشتاء: وجود مراكز في الأحياء السكنية للجمعيات الخيرية التي تنبه الناس بين حين وآخر على استعدادها لجمع ما تيسر عند الناس من الملابس والمفارش والأغطية والأحذية وغيرها، ويتم ذلك باستلامها عند أبواب المنازل وإيصالها للمحتاجين، فجزى الله القائمين على هذه المراكز خيرًا، والدال على الخير كفاعله.

❁ ❁ ❁

(١) «أحكام القرآن» (١/ ٢٣٤).
(٢) «الإلمام ببعض آيات الأحكام» (٣/ ٦ ـ ٧).
(٣) «طريق الهجرتين» (٢/ ٨١٤).

الفصل السادس

في الاستفادة من فصل الشتاء
وبعض ما أُثر عن السلف في ذلك

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: ما جاء في أن الشتاء ربيع المؤمن.

المطلب الثاني: من أقوال السلف في فصل الشتاء.

المطلب الأول

ما جاء في أن الشتاء ربيع المؤمن

روى الإمام أحمد من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «**الشتاء ربيع المؤمن**». وخرَّجه البيهقي وغيره، وزاد فيه: «**طال ليله فقامه، وقَصُرَ نهاره فصامه**»[١].

قال ابن رجب: «وإنما كان الشتاء ربيع المؤمن؛ لأنه يرتع فيه في بساتين الطاعات، ويسرح في ميادين العبادات، وينزه قلبه في رياض الأعمال الميسرة فيه، كما ترتع البهائم في مرعى الربيع، فتسمن وتصلح أجسادها، فكذلك يصلح دين المؤمن في الشتاء بما يسَّر الله فيه من الطاعات»[٢].

ففي الشتاء يقصر النهار، ويبرد الجو، فيكون الصيام سهلًا ميسورًا لا مشقة فيه ولا كلفة تحصل من جوعٍ ولا عطش، وقد روى الترمذي والإمام أحمد وغيرهما من حديث عامر بن مسعود رحمه الله قال: قال رسول الله ﷺ: «**الصوم في الشتاء الغنيمة الباردة**»[٣].

---

(١) «المسند» (١٨/ ٢٤٥)، «السنن الكبرى» (٤/ ٢٩٧)، ورواه غيرهما، وسنده ضعيف، وله ما يشهد بصحة معناه، وهو من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، انظر: «المقاصد الحسنة» (٢٥٠).

(٢) «لطائف المعارف» ص(١٧٢).

(٣) «جامع الترمذي» (٧٩٧)، «المسند» (٣١/ ٢٩٠)، ورواه ـ أيضًا ـ ابن أبي شيبة (٦/ ٣٢٨) وهو حديث ضعيف، قال الترمذي: «هذا مرسل، عامر بن مسعود لم يدرك النبي ﷺ»، ثم هو مجهول الحال، وفي سنده ـ أيضًا ـ نمير بن عَريب مجهول ـ أيضًا ـ، ومع ذلك صححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٦٣٩)، والحديث له =

فيحرص المسلم على صيام التطوع كصيام الاثنين والخميس، وثلاثة أيام من كل شهر، والأفضل أن تكون أيام البيض، وغيرها مما يشرع صيامه، وقد دلت النصوص من السنة على فضل ذلك، وهو مقرر في موضعه[(١)]، والإنسان إذا صام في الشتاء وعاش لذة الصيام، وأحس بسهولته، وأدرك عظيم ثوابه، ربما رغب فيه، وداوم عليه طوال السنة، فيكون صومه في الشتاء سببًا لامتداد الطاعة ومواصلة العبادة.

وفي الشتاء يطول الليل، فتأخذ النفس حظها من النوم، فيقوم العبد بعد ذلك إلى الصلاة وهو نشيط، فيجتمع له في ليل الشتاء نومه المحتاج إليه مع إدراك ورده من القرآن، فتكمل له مصلحة دينه وراحة بدنه، وهذا بخلاف ليل الصيف فإنه لقصره وحرِّه يغلب النوم فيه، فلا تكاد النفس تأخذ كُلَّ حَظِّها بدون نومه، فيحتاج القيام فيه إلى مجاهدة.

والقيام في ليل الشتاء يشق على النفوس من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن صلاة الليل بصفة عامة أشق على النفوس، فإن الليل محل النوم والراحة من التعب بالنهار، فترك النوم مع ميل النفس إليه مجاهدة عظيمة.

الثاني: من جهة تألم النفس بالقيام من الفراش في شدة البرد.

= شاهد من حديث أبي هريرة ﵁ رواه عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» ص(١٧٧)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٣٨١)، والبيهقي في «سننه» (٤/ ٢٩٧)، وقال: «هذا موقوف»، ورواه الطبراني في «الصغير» من حديث أنس ﵁ (٧١٦)، وسنده ضعيف، وذكره السخاوي في «المقاصد الحسنة» (٥٨٨) ضمن الأحاديث المشتهرة على الألسنة. وانظر: «علل ابن أبي حاتم» (٧٤٢)، «سلسلة الأحاديث الضعيفة» (١٩٢٢).

(١) انظر: «منحة العلام» (٥/ ٦٧) وما بعدها.

الثالث: فيما يحصل من إسباغ الوضوء في شدة البرد من المشقة[١].

وفي زماننا هذا تمت نعم الله علينا، فلا يتأذى الإنسان غالبًا بالقيام من نومه، ولا يتألم من الوضوء؛ لوجود وسائل التدفئة ووسائل تسخين الماء، فالحمد لله على نعمه.

وكون الشتاء ربيع المؤمن عاشه السلف الصالح من هذه الأمة وأحسُّوا به وعبَّروا عنه، وكذا من جاء بعدهم من العبَّاد والزهاد إلى يومنا هذا، يتلذذون بقيام ليله الطويل، ويفرحون بصيام يومه القصير، وهذا عندهم من نعيم الدنيا قبل الآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤]، قال ابن القيم: «لا تَحْسَبْ هذا مقصورًا على نعيم الآخرة وجحيمها فقط، بل في دورهم الثلاثة هم كذلك، أعني: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار، فهؤلاء في نعيم، وهؤلاء في جحيم، وهل النعيم إلا نعيم القلب؟ وهل العذاب إلا عذاب القلب؟»[٢].

«فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل، فأتاهم من رَوْحِها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها، والمسابقة إليها»[٣] حتى قال قائلهم: «لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن عليه لجالدونا عليه بالسيوف»[٤].

قال ابن القيم: «أجمع عقلاء كل أمة على أن النعيم لا يُدرك

(١) انظر: «لطائف المعارف» ص(٤٦، ٣٧٢).
(٢) «الداء والدواء» ص(١٨٤ ـ ١٨٥).
(٣) «الوابل الصيب» ص(١١٠).
(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٣٧٠)، والبيهقي في «الزهد» (٢/ ٨١) عن إبراهيم بن أدهم رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

بالنعيم، وأن من آثر الراحة فاتته الراحة، وأن بحسب ركوب الأهوال واحتمال المشاق تكون الفرحة والملذة، فلا فرحة لمن لا هَمَّ له، ولا لذة لمن لا صبر له، ولا نعيم لمن لا شقاء له، ولا راحة لمن لا تعب له، بل إذا تعب العبد قليلًا استراح طويلًا، وإذا تحمل مشقة الصبر ساعة قاده لحياة الأبد، وكل ما فيه أهل النعيم المقيم فهو ثمرة صبر ساعة، والله المستعان، ولا قوة إلا بالله»[١].

❁ ❁ ❁

(١) «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٨٩٥).

المطلب الثاني

من أقوال السلف في فصل الشتاء

نُقل عن السلف الصالح من هذه الأمة في فصل الشتاء وقفات وتأملات، وأقوال وحِكَم، فيها ربط بين أحوال الدنيا وتقلباتها وتصرف أيامها، وبين أحوال الآخرة وعواقب الأعمال؛ تذكرةً وعبرةً واستعدادًا، كما أن فيها الحث على الأعمال الصالحة في فصل الشتاء، ولا سيما صيام النهار وقيام الليل، نظرًا لقصر النهار وطول الليل، وهذا أوضح دليل على قوة الإيمان وحياة القلب، والحرص على اغتنام أوقات العمر فيما ينفع ويفيد، ما دام العبد في زمن الإمكان، ومن كثر خوفه قَلَّ نومه، واشتد عزمه، وقد كان الواحد من العُبَّادِ يفرح بالليل إذا أقبل وطال، ويحزن إذا تقلص وزال.

فهذا الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «الشتاء غنيمة العابدين»(١).

وهذا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول: «مرحبًا بالشتاء، تنزل فيه البركة، أما ليله فطويل للقيام، وأما نهاره فقصير للصيام»(٢).

---

(١) رواه أحمد في «الزهد» ص(١١٨)، وابن أبي شيبة (٦/ ٣٢٩) (١٩/ ١٤٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٥١)، وابن أبي الدنيا في «التهجد» ص(١١٧)، والسيوطي في «أحاديث الشتاء» ص(٨٠)، وهو أثر صحيح، وقد جاء في معناه حديث أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعًا: «الشتاء ربيع المؤمن» رواه أحمد (١٨/ ٢٤٥) وغيره، وتقدم الكلام عليه.

(٢) «لطائف المعارف» ص(٣٧١)، وقد روي مرفوعًا، أخرجه ابن عدي في «الضعفاء» =

وعن الحسن ﵁ قال: «نعم زمان المؤمن الشتاء، ليله طويل يقومه، ونهاره قصير يصومه»(١).

وعن عبيد بن عمير ﵀ أنه كان إذا جاء الشتاء قال: «يا أهل القرآن طال الليل لصلاتكم، وقصر النهار لصيامكم، فاغتنموا»(٢).

وعن إبراهيم النخعي قال: «قِصَرُ أيام الشتاء في طول ليله، وقِصَرُ ليل الصيف في طول نهاره»(٣).

ومن كلام يحيى بن معاذ ﵀: «الليل طويل فلا تُقَصِّرْهُ بمنامك، والإسلام نَقِيٌّ فلا تُدَنِّسْهُ بآثامك»(٤).

هذه وصية السلف، وهذا منهجهم، وشتان بين من يتلذذون بالتلاوة والذكر والدعاء والمناجاة والقيام، ومن يبيت غافلًا لاهيًا ساهرًا ساهيًا كأنه قد نسي يوم الحساب، شتان ثم شتان بين أقوام: ﴿يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ [الفرقان: ٦٤]، ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧، ١٨]، ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩].

يتذكرون بالشتاء زمهرير جهنم: ﴿رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ

= (٣/ ٤٥٨)، ونقل عن الساجي أن هذا حديث منكر. وانظر: «لسان الميزان» (٨/ ٢٩٠). وقال الحافظ ابن رجب: «روي عنه مرفوعًا ولا يصح رفعه».

(١) «لطائف المعارف» ص(٣٧١).

(٢) رواه ابن أبي شيبة (٦/ ٣٢٩)، وعبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» ص(٣٧٩)، وابن أبي الدنيا في «التهجد» ص(١١٤)، وأبو نعيم (٣/ ٢٦٧)، والسيوطي في «أحاديث الشتاء» ص(٩٥).

(٣) رواه ابن جرير في «تفسيره» (٢٧/ ٢١٧)، والسيوطي في «أحاديث الشتاء» ص(٨٥) وقال: «هذا إسناد صحيح».

(٤) «اللطائف» ص(٣٧١).

عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝٦٥ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥، ٦٦]، شتان بينهم وبين أقوام آخرين غافلين، وفي السهر القاتل تراهم غارقين، يقطعون الليل الطويل في سَمَرٍ مُهلك، بالعكوف على ما لا يحل من مسموع ومقروء ومشاهد، وإعطاء النفس ما تشتهي من أصناف المطاعم والمشارب، فيكثر النوم في النهار، ويكون السهر من أسباب التخلف عن صلاة الفجر، فيا لَخسارةِ الغافلين، ويا لَندامةِ المقصرين![١].

وقد ثبت في السُّنَّة ما يدل على: فضل صلاة الليل وأنها أفضل الصلاة بعد الصلاة المفروضة، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل**»[٢]. وهي أفضل من صلاة النهار، وذلك ـ والله أعلم ـ لما فيها من صفاء المناجاة، وتواطؤ القلب واللسان، وقلة الشواغل، والإخلاص، والبعد عن الرياء، لأنها في وقت الراحة والسكون ومحبة النوم، والفراش الدافئ ليالي الشتاء، فهي شاقَّةٌ، ﴿إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ۝٤٥ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٥، ٤٦].

قيام الليل ولو كان قليلًا من أهم المولدات الإيمانية، بما يضفي على صاحبه من نور الوجه، ويقظة القلب، وحلاوة الإيمان، وهو سبب من أسباب دخول الجنة كما ثبت في السُّنَّة عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه، وقيل: قدم رسول الله ﷺ، فجئت في الناس لأنظر إليه، فلما استبنتُ وجه رسول الله ﷺ عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، وكان أول شيء تكلم

(١) استفدت شيئًا في هذا الموضوع من خطبة الشيخ صالح بن حميد ـ وفقه الله ـ يوم الجمعة ١٧/ ٢/ ١٤٣٥هـ مع زيادات وتوثيق.
(٢) رواه مسلم (١١٦٣).

به أن قال: «**يا أيها الناس، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلُّوا والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام**»(١).

فينبغي للمؤمنين أن يكون لهم نصيب من قيام الليل، ولا سيما في ليالي الشتاء الطويلة؛ لأن دقائق الليل غالية، فلا تُرْخَصُ بالغفلة، قال ابن عبد البر: (قيام الليل سنة مسنونة، لا ينبغي تركها، فطوبى لمن يُسِّرَ لها، وأُعينَ عليها؛ فإن رسول الله ﷺ قد عمل بها، وندب إليها)(٢).

يَا رِجَالَ اللَّيْلِ جِدُّوا ... رُبَّ دَاعٍ لا يُرَدُّ
مَا يَقُومُ اللَّيلَ إِلَّا ... مَنْ لَهُ عَزْمٌ وَجِدُّ
لَيْسَ شَيْءٌ كَصَلَاةِ الْـ ... ـلَيْلِ لِلْقَبْرِ يُعَدُّ(٣)

۞ ۞ ۞

(١) رواه الترمذي (٢٤٨٥)، وابن ماجه (١٣٣٤) وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».
(٢) «التمهيد» (١٣/ ٢٠٩).
(٣) انظر: «البداية والنهاية» (١٦/ ٧١٣)، «لطائف المعارف» ص(٥٠ ـ ٥١).

الفصل السابع

في المحافظة على الصحة والاحتماء عن المؤثرات

وفيه سبعة مطالب:

المطلب الأول: في الاحتياط في حفظ البدن من البرد.

المطلب الثاني: وجوب الاحتياط عند إيقاد النار.

المطلب الثالث: وجوب الاحتياط فيما يتعلق بوسائل التدفئة.

المطلب الرابع: الأطعمة في فصل الشتاء.

المطلب الخامس: شرب الماء في الشتاء.

المطلب السادس: في الاستحمام في فصل الشتاء.

المطلب السابع: من أمراض فصل الشتاء.

المطلب الأول

في الاحتياط في حفظ البدن من البرد

يجب الاحتياط للشتاء والحذر من التفريط في حفظ البدن من البرد؛ لأن البرد سريعٌ دخوله بطيء خروجه، ودخول البرد للبدن له أضرار جسيمة قد يصعب علاجها، وقد تكون أمراضًا لا يُرجى بُرؤها، فتجب العناية بالملابس الداخلية وتدفئة البدن وعدم التساهل في ذلك، وتناول المشروبات الساخنة لتدفئة الجسم، والبعد عن الرياح الشديدة، والتيارات الباردة؛ لأن حفظ النفس من الضروريات التي جاءت الشريعة بحفظها.

وعلى كل وليِّ أمرٍ أن يحرص مع بداية الشتاء على حفظ نفسه وأهله وأولاده ومن ولّاه الله تعالى أمرهم، وذلك بشراء وإعداد ما يحتاجونه من الملابس والأغطية ووسائل التدفئة، ولا يبخل عليهم بشيء من ذلك، ما لم يصل إلى حد الإسراف؛ فإنه مع النية الصالحة يؤجر على ذلك، ويتأكد هذا في حق كبار السن كالوالد والوالدة، لأن الغالب أن كبير السن يحس بالبرد ويتأثر به أكثر من الشباب، ولذا ترى بعض الفلكيين يشير إلى أن كبار السن ـ وكذا الأطفال ـ يرتدون ملابس الشتاء قبل الشباب[(١)]، وقد قال الربيع بن ضَبُع الفزاري أحد الشعراء المعمرين:

إِذَا كَانَ الشِّتَاءُ فَأَدْفِئُونِي فَإِنَّ الشَّيْخَ يُهْرِمُهُ الشِّتَاءُ
وَأَمَّا حِينَ يَذْهَبُ كُلُّ قَرٍّ فَسِرْبَالٌ خَفِيْفٌ أَوْ رِدَاءُ

(١) انظر: «تقويم الزعاق» عام (١٤٤٢هـ) على سبيل المثال.

إِذَا عَاشَ الفَتَى مِائَتَيْنِ عَامًا فَقَدْ ذَهَبَ المَسَرَّةُ والفَتَاءُ[(١)]

وقد روى ابن المبارك عن صفوان بن عمرو، عن سليم بن عامر قال: كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا حضر الشتاء تعاهدهم وكتب لهم بالوصية «إن الشتاء قد حضر، وهو عدو، فتأهبوا له أُهبته من الصوف والخِفاف والجوارب، واتخذوا الصوف شعارًا، والقطن دثارًا؛ فإن البرد عدو، سريعٌ دخوله، بعيد خروجه»[(٢)].

قال الحافظ ابن رجب: «وإنما كان يكتب عمر إلى أهل الشام لَمَّا فتحت في زمنه، فكان يخشى على من بها من الصحابة وغيرهم ممن لم يكن له عهد بالبرد أن يتأذى ببرد الشام، وذلك من تمام نصيحته، وحسن نظره وشفقته وحياطته لرعيته رضي الله عنه... وليس المأمور به أن يتقي البرد حتى لا يصيبه منه شيء بالكلية؛ فإن ذلك يضر ـ أيضًا ـ وقد كان بعض الأمراء يصون نفسه من الحر والبرد بالكلية حتى لا يحس بهما بدنه، فتلف باطنه، وتعجل موته، فإن الله بحكمته جعل الحر والبرد في الدنيا لمصالح عباده، فالحَرُّ لتحلل الأخلاط، والبرد لجمودها، فمتى لم يصب الأبدان شيء من الحر والبرد تعجل فسادها، ولكن المأمور به اتقاء ما يؤذي البدن من الحر المؤذي والبرد المؤذي المعدودين من جملة أعداء ابن آدم»[(٣)].

---

(١) انظر: «سمط اللآلي» (٢/ ٨٠٢ ـ ٨٠٣)، «الإصابة» (٣/ ٢٩٤)، والقَر بالفتح: البرد، والسربال: القميص أو كل ما لبس. وجاء البيت الأول في «شمس العلوم» (٢/ ٤٦٩) بلفظ: «يهدمه الشتاء». وجاء البيت الثاني في بعض كتب النحو: «فقد ذهب اللذاذة»، ويروى: «فقد أودى المسرة». انظر: «كتاب سيبويه» (١/ ٢٠٨) (٢/ ١٦٢)، وقد رأيت البيتين الأول والثاني في «ديوان الحطيئة» ص(٦١) دار صادر، ولم أجدها في «ديوان الحطيئة» برواية وشرح ابن السكيت ص(٩٤ ـ ٩٥).

(٢) «لطائف المعارف» ص(٣٧٦)، وهو في «سرور النفس بمدارك الحواس الخمس» ص(٢٤٠).

(٣) «لطائف المعارف» ص(٣٧٦).

المطلب الثاني

وجوب الاحتياط عند إيقاد النار

يَكْثُر في الشتاء إيقاد النار للتدفئة في أماكن خاصة صارت تكثر في هذا الزمان بعد أن تركها الناس مدة من الزمن، ثم رجعوا إليها، وصاروا يجعلون لها مكانًا خاصًّا في ناحية من البيت، وهي من نعم الله على عباده، ولا سيما في فصل الشتاء، وقد جاء ذكرها في القرآن الكريم في سياق نِعَمٍ أخرى.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ [الواقعة: ٧١ - ٧٣]. وقد تقدم الكلام على هذه الآية.

والواجب تجاه النار ما يلي:

أولًا: أن يكون مكان إيقاد النار فيه أبواب أو نوافذ مفتوحة؛ لئلا يحصل ضرر من اختناق ونحوه، ومكان إيقاد النار إذا كان غير جيد التهوية فقد يزيد من خطر الإصابة بالتسمم بغاز أول أكسيد الكربون، وهو: غازٌ عديم اللون والطعم والرائحة، وعندما يستنشقه الشخص يدخل الجسم، ويختلط بالهيموجلوبين، فيصبح الدم غير قادر على حمل الأكسجين، ومن ثَمَّ تتلف خلايا وأنسجة الجسم، أو قد يسبب الوفاة إذا تعرض الشخص لمستوًى عالٍ من غاز أول أكسيد الكربون.

وهذا الغاز ينتج عند احتراق البنزين أو الخشب أو الفحم، أو غيرها من أنواع الوقود، وأيضًا ينتج في حال نشوب الحرائق.

وأعراض التسمم بهذا الغاز ليست دائمًا محددة وواضحة، فقد يشعر الشخص بأعراض مثل الصداع والتعب والخمول والتشوش والدوخة والغثيان وألم البطن... وقد لا ينتبه إليها الشخص، ولا يربطها بوجوده في مكانٍ مغلق به مصدر لاحتراق الوقود، وقد يظنها مجرد صداع أو أنفلونزا أو تسمم غذائي، وجميع خلايا وأنسجة الجسم تتضرر بهذا التسمم، وكلما زاد استنشاق الشخص لغاز أول أكسيد الكربون زادت الأعراض سوءًا، كأن يصبح الشخص سريع الغضب أو يظهر عليه الحزن والاكتئاب، أو يقوم بتصرفات فيها اندفاع.

وعلى الأشخاص الذين يشتبه بإصابتهم بتسمم غاز أول أكسيد الكربون بضرورة إخلاء المكان فورًا، والخروج إلى الهواء الطلق؛ لاستنشاق الهواء النقي، وقد يلزم الاتصال بالإسعاف.

ولا بد من إدراك خطر التسمم بهذا الغاز وتوعية الآخرين به والتأكد من سلامة وسائل التهوية في البيت وبيوت الشعر والخيام والمستراحات(١).

ثانيًا: ومما يجب تجاه النار: أن يحذر الإنسان كل الحذر من الخروج المفاجئ من مكان دافئ إلى مكان بارد؛ فإن هذا سبب للإصابة ببعض العوارض كالنزلة، والزكام، ونحو ذلك.

ثالثًا: ألا ينام الإنسان بقرب النار؛ إذ لا يأمن أثناء نومه من سقوط شيء من لحافه أو ملابسه على النار فيترتب على هذا ما لا تحمد عقباه.

رابعًا: ألا ينام الإنسان في مكان مغلق أو غير جيد التهوية وهو قريب من مصدر احتراق الوقود؛ خوفًا من وجود نسبة عالية من غاز أول أكسيد الكربون الذي قد ينتهي بالشخص للوفاة خلال دقائق، كما تقدم.

---

(١) استفدت هذا من مقال للدكتور علاء بن دخيل الله الرحيلي ـ أثابه الله ـ بعنوان: «هذا الغاز القاتل ينتشر في فصل الشتاء: احذروا منه»، نشر في صحيفة سبق الإلكترونية بتاريخ: ٤/ جمادى الآخرة/ ١٤٤٢هـ.

خامسًا: وجوب إطفاء النار عند النوم؛ لحديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**لا تتركوا النار في بيوتكم حين تنامون**»[(١)].

وقد بوَّب البخاري في «صحيحه» «بابٌ: لا تُترك النار في البيت عند النوم»، قال الحافظ: «قيده بالنوم لحصول الغفلة غالبًا، ويستنبط منه أنه متى وجدت الغفلة حصل النهي»[(٢)].

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: احترق بيت بالمدينة على أهله من الليل، فلما حُدِّثَ بشأنهم النبي ﷺ، قال: «**إن هذه النار إنما هي عدو لكم، فإن نمتم، فأطفئوها عنكم**»[(٣)].

قال ابن العربي: «معناه: أنها تنافي أموالكم وأبدانكم على الإطلاق منافاة العدو، ولكن تتصل منفعتها بكم بوسائط، فَذِكْرُ العداوة مجازٌ؛ لوجود معناها فيها»[(٤)].

والتقييد بالبيوت باعتبار الغالب وإلا فالصحراء كذلك. لا ينام أحد في الصحراء أو في خيمة وبقربه نار.

وقد ذكر العلماء أن النهي مراد به كراهة التنزيه، والأمر للإرشاد إلى المصلحة، والصارف له عن التحريم أو الوجوب عدم تحقق الضرر[(٥)]، وهذا فيه نظر؛ لأن إطفاء النار قد يفضي إلى مصلحة دينية وهي حفظ النفس المحرم قتلها، وحفظ المال المحرم تبذيره، فالصواب ـ إن شاء الله ـ حمل النصوص على ظاهرها، ما لم يصرفها صارفٌ عن ذلك، وما علَّلوا به لحمل الأمر على الإرشاد غير مُقنع[(٦)]. والله تعالى أعلم.

---

(١) رواه البخاري (٦٢٩٣)، ومسلم (٢٠١٥).
(٢) «فتح الباري» (١١/ ٨٥).
(٣) رواه البخاري (٦٢٩٤)، ومسلم (٢٠١٦).
(٤) «عارضة الأحوذي» (٤/ ٨).
(٥) انظر: «المُفهم» (٥/ ٢٨٤).
(٦) انظر: «فتح الباري» (١١/ ٨٦)، «دليل الفالحين» (٤/ ٤٩٩ ـ ٥٠٠)، «البحر المحيط الثجاج» (٣٤/ ٧٤).

المطلب الثالث

وجوب الاحتياط فيما يتعلق بوسائل التدفئة

كثرت في هذا الزمن وسائل التدفئة الكهربائية، وهي من نعم الله تعالى على عباده لقلة مؤونتها، وخفتها، وإمكان نقلها من مكان إلى آخر. ولكن لها مخاطر، فتنبغي العناية بها لتلافي أضرارها، ومن ذلك:

١ ـ الحرص على النوع الجيد من هذه الوسائل الذي يعيش مع الإنسان مدة أطول، ويؤمن ضرره، وقد غزا الأسواق أنواع كثيرة رخيصة الثمن، رديئة الصنعة.

٢ ـ وجوب تفقد سلك الدفاية؛ لئلا يكون مجروحًا، أو ضعيفًا.

٣ ـ الحرص على فصل السلك من الكهرباء عند انتهاء الغرض من وسيلة التدفئة.

٤ ـ الحذر من تحميل التوصيلات الكهربائية أكثر مما تتحمل.

٥ ـ الحرص على دفاية الزيت ذات الجودة العالية؛ فهي أقل خطرًا من غيرها.

٦ ـ الحذر من أن ينام الإنسان ووسيلة التدفئة مشتعلة، إلا دفاية الزيت عند الحاجة إليها؛ لأنها مبرمجة فلا تستمر، وإنما تشتغل حينًا وتنطفئ حينًا آخر، لكن يبعدها الإنسان عنه مسافة كافية؛ لئلا يحركها بدون شعور منه فتنقلب، والاستغناء عنها حينما ينام الإنسان أحوط، وأصحُّ لبدنه.

المطلب الرابع

الأطعمة في فصل الشتاء

للشتاء أطعمة تناسبه، وللصيف أطعمة تناسبه، فالشتاء تناسبه الأطعمة التي تساعد على منح الجسم دفعة جديدة من الطاقة والحيوية، لأن المعدة تهضمها بالحرارة التي سكنت بالأجواف واستقرت في البطون، وإذا جاء الصيف خرجت الحرارة إلى ظاهر الجسد، وغارت البرودة فيه(١).

ونحن إذا تكلمنا عن الأطعمة في فصل الشتاء فإن هذا مستفاد من عناية الإسلام بجسم الإنسان؛ لأنه لا بد له من طعام في حياته لكي يعيش ويؤدي وظيفته الدينية والدنيوية، ويبقى جسمه صحيحًا قويًّا، وقد جاء الإسلام بالتوجيهات المتعلقة بحفظ الصحة في هذا الباب، قال تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشۡرَبُوا۟ وَلَا تُسۡرِفُوٓا۟ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]، وقال ﷺ لعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: «**إن لجسدك عليك حقًّا**»(٢).

وفي فصل الشتاء يقصر النهار وتصبح ساعات ظهور الشمس قليلة، وهذا يعني أنه لا يمكن الحصول على كمية جيدة من ضوء الشمس، مما يزيد من الشعور بالكسل والإرهاق طوال الوقت، وهذا يسبب الخمول والشعور بالإجهاد، وللطعام أثر كبير في الحفاظ على نشاط وصحة الجسم؛ لذا من الضروري الحرص على تغذية الجسم خلال فصل الشتاء.

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٥٩٣).

(٢) تقدم تخريجه.

ويُرجع خبراء التغذية زيادة وزن الجسم دائمًا في فصل الشتاء أكثر من أي وقت آخر في العام الى درجة حرارة الجسم التي تكون ثابتة وتبلغ حوالى (٣٧) درجة مئوية تقريبًا، ومع حلول فصل الشتاء تقل الدرجة عن المعدل بكثير فيقوم الجسم بحرق كميات إضافية من الطعام لتعويض الحرارة المفقودة، مما يؤدي إلى الإحساس بالجوع وتكون النتيجة التهام كميات إضافية من الأطعمة تبلغ أضعاف ما قام الجسم بحرقه، وتكون الحصيلة النهائية هي زيادة في عدد السعرات الحرارية المختزنة، وتراكم طبقات من الدهون وزيادة في الوزن.

وقد يصعب على بعض الناس معرفة العلاقة بين الشتاء ودور الغذاء المهم في الوقاية من الأمراض المتعلقة ببرودة الأجواء، فتزداد الرغبة في تناول الأطعمة الدسمة المنتجة للحرارة والطاقة للحصول على الدفء، الأمر الذي يُكسب الجسم سعرات حرارية عالية، ويتسبب في زيادة الوزن بشكل غير مرغوب فيه، فكيف نحمي أنفسنا من أمراض البرد والشتاء بالغذاء؟ وكيف نتجنب زيادة الوزن غير المرغوب فيها؟.

يتم ذلك بتناول الوجبات الصحية التي تقوي المناعة، وتحافظ على الوزن دون زيادة.

ومن الأطعمة التي يُنصح بها في فصل الشتاء، ما يلي:

١ ـ **البطاطا الحلوة**: فهي جزء من طعام الشتاء، وهي غنية بالعناصر الغذائية؛ لأنها من أشهر مصادر فيتامين «A»، إضافة إلى العديد من الفيتامينات والمعادن الأساسية وفيتامين «C» وفيتامين «E» والبوتاسيوم والكالسيوم والحديد، وله أثر كبير في تقوية المناعة وتعزيزها، ومكافحة الالتهابات والأمراض العديدة، وبخاصة أمراض البرد والشتاء.

٢ ـ **سمك السَّلمون**: لأنه يحتوي على الأحماض الدهنية

الأساسية، وهي الصديق الوفي للمناعة، إذ يُقَوِّي قدرة الجسم على مقاومة العدوى، ويُعَدُّ السلمون خيارًا صحيًّا؛ لأنه معتدل السعرات الحرارية.

٣ ـ **العدس**: فهو يمنح الجسم الدفء والطاقة في أيام البرد، لاحتوائه على الكربوهيدرات، وعلى نسبة عالية من البروتين تعادل ما تحتويه اللحوم الحمراء منه.

٤ ـ **العسل**: فمن المعروف أن العسل معزز للطاقة الطبيعية، يمتص الجسم الجلوكوز الموجود في العسل بسرعة ويمنحه دفعة مفاجئة من الطاقة، كما أنه يوفر للجسم القوة والنشاط، والعسل مصدر للطاقة الطبيعية، يمكن استهلاكه بعدة طرق مختلفة، ومنها: مزج العسل بالماء الدافئ للحصول على أفضل النتائج، ومنها تناول العسل مباشرة.

٥ ـ **البروكلي**: فهو من الأطعمة اللذيذة والصحية التي لا يمكن الاستغناء عنها في فصل الشتاء، إذ يمكنك تناول شوربة البروكلي لكي تشعر بالدفء، وتناوله كذلك مقليًّا أو مشويًّا أو حتى على البخار، ويتميز البروكلي باحتوائه على كمية كبيرة من الألياف والبوتاسيوم والعديد من الفيتامينات، وله أيضًا تأثير قوي ضد الالتهابات، ويساعد على تحسين أداء جهاز المناعة لمجابهة نزلات البرد المعرَّض لها الجسم بشكل كبير خلال فصل الشتاء.

٦ ـ بعض الفواكه الغنية بالفيتامينات، وخاصة فيتامين «C» المفيد في الحماية ـ بإذن الله ـ من نزلات البرد، مثل **الكيوي**: فهو يحتوي على فيتامينات «C وA وK» وغني بالألياف والبوتاسيوم، ولا يحتوي على الكثير من السعرات الحرارية، ويساعد على تقوية الجهاز المناعي وتقوية البصر والقلب، وهو أنسب فاكهة يمكن تناولها في فصل الشتاء؛ ليمنحنا ـ بفضل الله ـ مناعة ضد نزلات البرد والأنفلونزا.

ومن ذلك البرتقال والليمون، فهما من الأطعمة الغنية بالفيتامينات، وتحتوي ثمرة البرتقال على «٦٠» ملجرامًا من فيتامين «C» وعصير الليمون حوالي «٣٥» جرامًا، ومن الأفضل شرب البرتقال عصيرًا طازجًا، والليمون مع الماء الساخن ومحلى بالعسل.

ومن ذلك ـ أيضًا ـ الأناناس، فهو يحتوي على ما يقرب من «٨٠» ملجرامًا من فيتامين «C» ومن الأفضل تناول شرائح الأناناس الطازج كوجبة خفيفة أو إضافتها إلى بعض الوجبات.

٧ ـ **الفواكه المجففة والمكسرات**: فهي تحافظ على الدفء في الشتاء، وتوفر ـ أيضًا ـ القوة والنشاط للجسم، والفواكه الجافة مثل: التين المجفف والمشمش المجفف، والزبيب، والجوز، والكاجو، كلها غنية بالألياف والمواد الغذائية.

٨ ـ **الطماطم**: لاحتوائها على الألياف والمغذيات النباتية التي تعزز وظيفة المناعة، والطماطم قليل السعرات الحرارية، وهو من الأطعمة الغنية بفيتامين «C».

٩ ـ **البيض**: لاحتوائه على البروتين والزِّنك، وقد أثبتت الدراسات أن عدم تناوله بكمية كافية يؤدي إلى خلل في الجهاز المناعي.

١٠ ـ **الفلفل الرومي**: يعد من أعلى مصادر فيتامين «C» الذي يساعد على تقليص مدة أعراض الالتهابات الفيروسية وشدتها في الجهاز التنفسي، ومن أهم مصادره ـ أيضًا ـ الحمضيات، والعديد من الخضروات مثل: القرنبيط، واللفت، والبنجر الأخضر، والكرنب، وغيرها.

١١ ـ **المشروبات الساخنة**: وأهمها مشروب الزنجبيل، والشاي الأخضر، والتي تساعد على رفع معدل الأَيْض وحرق الدهون، وتعطي الجسم الشعور بالدفء، مما يجنبنا تناول كمية كبيرة من الطعام، ومن

المشروبات المفيدة ـ أيضًا ـ المشروبات العشبية، كالنعناع، واليانسون، لأنها خالية من السعرات الحرارية، فتقدم شعورًا بالدفء والشبع دون خطر زيادة الوزن.

١٢ ـ **الكمون والكركم**: يحتويان على الحديد والمغنيسيوم، وهذه المعادن تساعد على دعم المناعة.

١٣ ـ **شوربة الدجاج**: تساعد على تخفيف الاحتقان الناتج عن الالتهابات والنزلات البردية، وتعد وجبة صحية، تعطي طاقة وشعورًا بالدفء دون الإكثار من السعرات الحرارية.

١٤ ـ **الخضروات الورقية**: تحتوي على فيتامين «A» وفيتامين «E» وفيتامين «K» وكلها فيتامينات أساسية للجسم ونقصها يؤدي إلى تقليص عدد الأجسام المضادة للميكروبات، وفي اللفت والسلق والجزر والسبانخ أثرٌ مُهِمٌّ في محاربة أمراض الشتاء[١].

هذا، وللناس في أيام الشتاء أطعمة خاصة تختلف باختلاف البلدان، وفي بلاد نجد منها أنواع عرفناها منذ خمسين عامًا أو تزيد، ولا يزال الناس يحرصون عليها في أيام الشتاء، وقد سَهُلَ في هذا الزمن إعدادها، بل صارت تباع في ثلاجات التموينات والأسواق المركزية. فلله الحمد على نعمه.

❁ ❁ ❁

(١) من مقال: «شتاء بلا سمنة ولا أمراض» للدكتورة: أماني الددا. اختصاصية تغذية علاجية ص(٤٤) بتصرف. مجلة الخطوط السعودية «أهلًا وسهلًا» عدد (١١) صفر ١٤٣٨هـ، موضوع في الشبكة: «أطعمة شتوية تقوي المناعة وتحارب برد الشتاء».

المطلب الخامس

شرب الماء في الشتاء

خلق الله تعالى الماء، وجعله سببًا لحياة كل شيء، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، وهو من نعم الله الغزيرة على خلقه، والماء أصل جميع المخلوقات ومادتها، فجميع المخلوقات خلقت منه.

والإنسان ـ كغيره ممن على الأرض ـ محتاج إلى الماء، فلا يستغني عنه، ولا حياة له بدونه، وقد توصل العلم الحديث بموازينه وتحاليله إلى أن مقدار الماء في جسم كل من الإنسان والحيوان أكثر من ثلاثة أرباعه، وهو ثمانون في المائة (٨٠٪) وفي النبات من (٥٥ ـ ٧٠٪).

وفي شرب الإنسان للماء فوائد عظيمة، منها: الحفاظ على توازن سوائل الجسم، وزيادة طاقة العضلات، والحفاظ على وظائف الكلى، ومنع حصوات الكلى، والتهاب المثانة، والحفاظ على وظيفة الجهاز الهضمي، ومقاومة السرطان، وتطهير الجسم من السموم، والعناية بالجمال، وزيادة الخصوبة، ثم إن الماء له أثر كبير في تعويض السوائل من الجسم عن طريق البول والتنفس والإفراز والعرق.

ومن فوائد شرب الماء والمداومة عليه في الصباح: غسيل المعدة والكليتين، والتخفيف من حرقة المعدة واضطراباتها الناتجة من زيادة الحموضة، وتقوية الجهاز المناعي، بحيث يصبح المرء أقل عرضة للعدوى ومسببات الأمراض.

ومع حلول فصل الشتاء يقل الشعور بالعطش والرغبة في تناول الماء؛ نتيجةً لانخفاض درجة الحرارة، ويميل الكثيرون إلى المشروبات الدافئة، معتقدين أن هذه المشروبات تصلح أن تكون بديلًا عن الماء، وهذا اعتقاد غير صحيح، لأن هذه المشروبات لا تمنح الجسم القدر الكافي من السوائل التي يحتاجها، ومن ثَمَّ قد يصاب الإنسان بالجفاف الذي يظن بعض الناس أنه أمر عادي مصاحب لفصل الشتاء، إلا أنه قد يصيب أعضاء الجسم ويكون له آثار على صحة الإنسان، كالتعب والصداع وجفاف الفم وجفاف البشرة والإمساك وضعف العضلات، وقد يؤدي إلى تراكم السموم داخل الجسم، لأن الماء هو المسؤول عن التخلص من السموم والمواد الضارة، كما قد يؤدي الجفاف إلى انخفاض وظائف الكلى، وارتفاع ضغط الدم، والتهاب المسالك البولية، والفشل المعوي.

على أن بعض الأخصائيين يرى أن هناك مشروبات تصلح لأن تكون بديلة عن الماء، كالمشروبات العشبية، مثل: اليانسون، والنعناع، ومثل: شوربة الخضار، واللبن والحليب، والعصائر الطازجة بدون سكر، وهناك مشروبات لا تعتبر بديلة عن الماء، كالشاي والقهوة، والمشروبات الغازية داكنة اللون، وغيرها.

ونسيان شرب الماء في فصل الشتاء ظاهرة عامة، وحاجة الجسم للماء في فصل الشتاء قد تكون أكثر، لأن الجسم يفقد من لتر إلى لتر ونصف في التعرق غير المحسوس، ومن ثَمَّ لا بد من تعويض ما نقص، إضافةً إلى أن نسيان تلبية الجسم من الماء في فصل الشتاء يؤثر على الوظائف الحيوية لجسم الإنسان، ويعرضه لحدوث التهابات في الكلى، والمسالك البولية، وزيادة نسبة الأملاح، ونقص الفيتامينات، وقد يؤدي

إلى تكون حصوات في الكلى، وتحول لون البول من الأصفر الفاتح إلى الأصفر الداكن، وهذا دليل على تأثر الجسم بقلة شرب الماء، كما أن إهمال شرب الماء في الشتاء يؤدي إلى حدوث جفاف وتشقق في البشرة، لأن الماء يسهم في ترطيب البشرة وحيويتها.

والطريقة المثلى لعلاج نسيان شرب الماء في فصل الشتاء هي وضع الماء في مكان بارز يراه الشخص أمامه كل لحظة، سواء أكان ذلك في مكان جلوسه الكثير في المنزل، أم في مكتبه أم غرفة نومه أم غير ذلك، والذي يوصي به الأخصائيون أن الإنسان في فصل الشتاء يشرب من ثمانية أكواب إلى عشرة؛ لتحصيل أعلى الفوائد وأكثرها الناتجة عن شرب الماء[(١)].

❁ ❁ ❁

(١) انظر: «زاد المعاد» (٤/٣٨٨)، «الإرشادات الطبية» ص(٢٩، ٦٤)، «الماء وأثره على الأحكام الشرعية» ص(٣٣)، مقتطفات من موضوعات تتعلق بشرب الماء في الشتاء منشورة على الصحف الإلكترونية.

المطلب السادس

في الاستحمام في فصل الشتاء

تتوقف صحة الإنسان على أمور كثيرة، ومنها: النظافة، لأن كثيرًا من الأمراض تنتشر في الأجسام بسبب إهمال القواعد العامة للنظافة.

ونظافة الجلد وتغيير الملابس الداخلية، من أهم لوازم الصحة الشخصية، فيجب على الإنسان أن يستحم على الأقل مرةً كُلَّ أسبوع في الشتاء، ومرتين في الصيف، ويغير ملابسه الداخلية؛ ليبقى نظيفًا نشيطًا، علاوة على أن الاستحمام يفيد مساعدة الجلد في إفراز العرق والتنفس الجلدي، وإراحة أعصاب البدن، مع ما فيه من السرور والانبساط، والظهور بالمظهر اللائق.

وقد جاء في النصوص الشرعية الحث على الاستحمام في كل أسبوع مرة، فعن أبي هريرة ﵁، عن النبي ﷺ قال: «**حقٌّ لله على كل مسلم أن يغتسل في كل سبعة أيام، يغسل رأسه وجسده**»(١).

وقوله: «**يغسل رأسه وجسده**» من عطف العام على الخاص، وذكر الجسد يغني عن ذكر الرأس، لكنه خصَّه بالذكر للاهتمام بتنظيفه، ولأنه قِوام البدن والعمدة فيه(٢).

وينبغي للإنسان أن يحرص على الاستحمام في فصل الشتاء في أوقاته المناسبة، وألا يتركه أو يقلل منه خوفًا من البرد، لأن البيوت

(١) رواه البخاري (٩٦)، ومسلم (٨٤٩).
(٢) انظر: «البحر المحيط الثجاج» (١٧/ ٨٤).

ـ ولله الحمد ـ مجهزة غالبًا بالحمَّامات النظيفة، والماء الدافئ وكل ما يشجع على الاستحمام.

والاستحمام في فصل الشتاء يكون عادة بالماء الدافئ، لكن قبل استعماله يجب التأكد من تحمل الجسم له بلمسه باليد، وأن حرارته مناسبة، وكلما كان أقرب إلى البرودة فهو أحسن، ويجب ألا يطول وقت الاستحمام، وأن يحذر الإنسان الإسراف في الماء أو المبالغة في الاغتسال الذي قد يصل إلى حد الوسواس ـ عصمنا الله منه ـ

ويجب أن يحذر المستحم البرد قدر الإمكان، فلا يتعرض للتيارات الهوائية؛ ليسلم من الزكام أو النزلات الصدرية، وعليه بعد الاستحمام تنشيف جميع بدنه، ولبس الملابس الداخلية ثم اللباس الساتر لجميع البدن، وعليه أن يحذر الملابس المبتلة، لأنها تسبب برودةً في الجسم تؤدي إلى انخفاض درجة حرارته، وعليه ألا يخرج فجأة من الحمام الدافئ إلى الجو البارد، بل عليه أن يفتح باب الحمام ويقف لحظات قبل خروجه، لأجل أن يكون جو الحمام قريبًا من الجو الخارجي[(١)].

ويتأكد أخذ الاحتياطات في حال استحمام الأطفال؛ لأنهم أشد تأثرًا بالعوارض المتقدمة.

(١) انظر: «المرشد الصحي» للسنة الأولى بالمعاهد العلمية (منهج قديم) ص(١١، ٣٥).

المطلب السابع

من أمراض فصل الشتاء

مع أن فصل الشتاء موسم الأمطار والخيرات والأرزاق، إلا أنه ـ بتقدير الله تعالى ـ فصل لبعض المؤثرات على الأبدان، إذا لم يحسن الإنسان التعامل معها، فإنه سيتأثر بالعديد من المشكلات الصحية الخطيرة.

وقد عُني الإسلام بصحة الإنسان، ووقايتها من الأمراض والأسقام بتحذيره من أسباب الداء، وتقديم الدواء إذا هو وقع في الداء؛ لأن الصحة بها قِوام حياة الإنسان، واكتساب معيشته، والقيام بعبادة ربه، ومن أنواع الطب وفروعه: الطب الوقائي، ويعني: تقوية الصحة والبعد عما قد يكون سببًا في حدوث الأمراض.

ففي فصل الشتاء تحصل بعض الآثار والعوارض البدنية ـ بتقدير الله تعالى ـ؛ نتيجة التعرض لتيارات هوائية باردة، أو لشرب الماء البارد، أو الخروج المفاجئ من مكان دافئ إلى مكان بارد، أو النوم في مكان بارد دون الاحتياط بالغطاء اللازم، أو استعمال الملابس الرطبة أو المشي حافي القدمين، أو غير ذلك مما يجعله الله سببًا في تأثر البدن، لذا يجب على الإنسان أن يحمي نفسه من هذه العوارض، وذلك بارتداء الملابس الشتوية الكافية، ولا سيما الملابس الداخلية، مع تناول المشروبات الساخنة لتدفئة الجسم، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك.

يقول ابن القيم: «لما كانت الصحة والعافية من أَجَلِّ نعم الله على

عبده، وأجزل عطاياه، وأوفر مِنَحِهِ، بل العافية المطلقة أجلُّ النِّعم على الإطلاق، فحقيقٌ لمن رُزق حظًّا من التوفيق مراعاتُها وحفظُها وحمايتُها عما يضادها. . .»[١].

وغالب أمراض الشتاء تتعلق بالجهاز التنفسي، وقد يمتد أثرها إلى الجهاز الهضمي، وهي تختلف في شدتها وقوتها، فقد يكون بعضها خفيفًا كالزكام، والتهاب الحلق، وبعضها شديد الخطورة مثل بعض النزلات الصدرية.

وأهم أمراض الشتاء ثلاثة:

١ ـ **الزُّكام** ـ بالضم ـ: ويسمى الزكمة، والنزلة[٢]، وهو: تحلُّب فضول رطبة من بطني الدماغ المقدمين إلى المنخرين، فيشعر المريض بالزكام في مبدأ الأمر ببرد في جسمه، مصحوب بصداع وعطاس، وارتفاع خفيف في درجة الحرارة، ثم يحتقن الغشاء المخاطي في الأنف، فيفرز سائلًا مائيًّا، وبالإضافة إلى ذلك، تحصل أعراض أخرى كالعطاس، والتهاب الحلق، ودمع العين، وفقدان للتذوق والشم، وقد توجد أعراض أخرى تستدعي مراجعة الطبيب.

وسبب الزكام ـ بتقدير الله تعالى ـ فيروسات البرد، وهي كائنات صغيرة جدًّا لا يمكن رؤيتها إلا بالمجاهير الإلكترونية، على أن التجارب التي أُجريت في إنكلترا أثبتت أن البرد لا يعتبر عاملًا رئيسًا في الإصابة بالزكام، ولهذا فالصحة الجيدة لا تحول بالضرورة دون الإصابة بالزكام،

---

(١) «زاد المعاد» (٤/ ٢١٤).

(٢) أصل الزكم: الملء، ومنه أُخذ الزكام، وعند العامة يقال له: اللمخة، وفلان ملموخ، وهي كلمة محدثة، وليست بعربية، وفي المعاجم لَمَخَ بمعنى: أتى، وبمعنى: لَطَمَ. انظر: «تاج العروس» (٧/ ٣٣٦)، (٣٠/ ٤٨٤)، (٣٢/ ٣٢١)، «لهجة القصيم دراسة لغوية» ص(٤٨٤).

كما أن الزكام يأتي عادة بشكل مفاجئ[١].

تنتقل عدوى الزكام إلى الآخرين بالاختلاط بالمرضى أو تقبيلهم، أو تعرضهم لعطاسهم، أو استعمال أدوات يستعملونها مثل: أكواب الشراب، وأطباق الطعام، والمناديل والمناشف، وغير ذلك.

وعلى المصاب بالزكام أن يكثر من شرب السوائل، مثل: عصير الليمون والبرتقال، وأن يكون الغذاء خفيفًا مغذيًّا، مثل: الأغذية اللبنية، وشوربة الخضار، وعليه أن يحترس من التيارات الهوائية، وتعريض جسمه للتقلبات الجوية، وعليه تغطية أنفه وفمه بمنديل عند العطاس أو السعال.

وعليه أن يحذر أن يتمخط بشدة؛ لأن ذلك يدفع المخاط إلى الأذن الوسطى، ويسبب التهابات خطيرة.

وإذا أمكن علاج الزكام بالراحة والسوائل الدافئة وتناول الحبوب المهدئة، دون اللجوء إلى المضاد الحيوي الذي له آثار سلبية على البدن، فهذا أفضل، ومما ينفع ـ هنا ـ الحبة السوداء فهي مفيدة في علاج أمراض الصدر والبرد والزكام العارض الذي معه عطاس كثير، كما ذكر ابن القيم وغيره[٢].

٢ ـ **الأنفلونزا**: وهي حمَّى شديدة متعددة الأنواع، تبعًا لنوع الميكروب الذي يسببها، فهي قد تصيب الجهاز التنفسي، كما قد تصيب الجهاز الهضمي.

وتعتبر الأنفلونزا من الأمراض التي يعاني معظم الناس من الإصابة

---

(١) انظر: «المرشد الطبي للأسرة» ص(١٢٣)، «الموسوعة الطبية الكاملة للأسرة» (١/ ٥٨٢).

(٢) انظر: «زاد المعاد» (٤/ ٢٩٧)، «فتح الباري» (١٠/ ١٤٥)، «أحاديث الطب النبوي» ص(٢٤١).

بها، ويعود ذلك ـ بتقدير الله تعالى ـ إلى أن فيروس الأنفلونزا يعيش بشكل أفضل، وينتشر بسرعة في الأجواء الباردة والجافة، أكثر من الأجواء الدافئة والرطبة[(١)].

وتبدأ أعراضها بارتفاع شديد في درجة الحرارة، قد يصحبه تشنجات، وخاصة عند الأطفال، ويصحب هذا الارتفاع في درجة الحرارة آلام في المفاصل والعمود الفقري وصداع شديد، فإذا كانت الإصابة من النوع الذي يصيب الجهاز التنفسي، فقد يظهر على المريض سُعال، وقد يتحول إلى التهاب رئوي إذا ما أهمل علاجه، أما إذا كانت الإصابة في الجهاز الهضمي، فإن المريض يشكو من قيءٍ وإسهال شديدين وآلام في البطن.

وعلاج الأنفلونزا يكون بلزوم المصاب سرير الإخلاد إلى الراحة، وتناول خافضات الحرارة، وشرب كميات كبيرة من السوائل وعصير الفواكه بقدر ما يستطيع[(٢)].

٣ ـ **النزلات الصدرية**: وهي مجموعة من أمراض الصدر تصيب أنسجة الرئة، فقد تصيب الشُّعَبَ الهوائية، فتسمى (نزلة شُعَبية)، وقد تصيب الحويصلات الهوائية فتسمى (التهابًا رئويًّا)، وفي النزلة الشعبية يكثر إفراز المخاط في الشعب والشعيبات الرئوية، مما يثير السعال الذي يطرد المخاط إلى الخارج على هيئة (بلغم).

وفي حالة الالتهاب الرئوي تمتلئ الحويصلات بالسوائل، فيعرقل عملية التنفس، ويؤدي إلى جميع مظاهر الاختناق، حيث يشاهد ضيق في

(١) من الشبكة بعنوان: نزلات البرد والأنفلونزا.
(٢) انظر: «دليل الأسرة الطبي المصور» ص(٧٣٤).

التنفس وسرعة به، وقد يزرق الوجه والشفتان، وفي الحالات الشديدة قد ينتهي الأمر بالوفاة.

وللوقاية من هذا المرض يلزم البقاء في الفراش، وتجنب الاختلاط بالمصابين بالمرض، والحذر من التعرض للتيارات الهوائية والرطوبة الشديدة، والمبادرة بعلاج نوبات البرد، وجميع إصابات الجهاز التنفسي بسرعة وعناية[١].

❁ ❁ ❁

(١) انظر: «المرشد الصحي» للسنة الثانية بالمعاهد العلمية (منهج قديم) ص(٦٥ ـ ٦٨)، «دليل الأسرة الطبي المصور» ص(٩٣٣). هذا، وقد تم عرض الموضوع على بعض الاستشاريين في الأمراض الصدرية في مستشفى الملك فهد في بريدة فأقروه.

الفصل الثامن

توقعات الأحوال الجوية

كثرت في زماننا الأخبار والتوقعات للأحوال الجوية المتعلقة بأوقات نزول الأمطار وكميتها، أو بأوقات موجات البرد الشديد، أو بهبوب الرياح والعواصف وشدة الغبار وكميته، انتشر هذا في العديد من دول العالم من المراقبين المتمرسين (ذوي الخبرة) الذي يقومون برصد السماء، وتقدير الحالة الجوية؛ لما لهم من خبرة في ذلك.

والناس إلى زمن قريب لا يعرفون شيئًا من ذلك، ولكن بعد ظهور أدوات الرصد، وأجهزة المتابعة وانتشار وسائل الاتصال وتعدد برامج التواصل، صار الإخبار عن مثل هذه الأحوال أمرًا ميسورًا، وأصبح هو مدار حديث الناس في مجالسهم وأنديتهم، وصاروا يتناقلون آراءً وأقوالًا، ويتبادلون رسائلَ وصورًا، حتى طغى الاهتمام بالتوقعات الجوية على الناس طغيانًا ظاهرًا، وانشغلوا به انشغالًا باهرًا.

وقد ثبت في حديث ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «**مفتاح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله: لا يعلم أحد ما يكون في غدٍ، ولا يعلم أحد ما يكون في الأرحام، ولا تعلم نفسٌ ماذا تكسب غدًا، وما تدري نفس بأي أرضٍ تموت، وما يدري أحدٌ متى يجيء المطر**»[(١)]، قال الحافظ ابن حجر: «فيه رد على من زعم أن لنزول المطر وقتًا معينًا لا يتخلف عنه»[(٢)].

(١) رواه البخاري (١٠٣٩)، وله شاهد عند مسلم (١٠) (٧).
(٢) «فتح الباري» (٢/ ٥٢٥).

وقال الحافظ ابن رجب: «وإنما ذُكرت هذه الخمس لحاجة الناس إلى معرفة اختصاص الله بعلمها، والعلم بمجموعها مما اختص الله بعلمه، وكذلك العلم القاطع بكل فردٍ فردٍ من أفرادها.

وأما الاطلاع على شيء يسير من أفرادها بطريق غير قاطع، بل يحتمل الخطأ والإصابة فهو غير منفيٍّ؛ لأنه لا يدخل في العلم الذي اختص الله به، ونفاه عن غيره.

ولكن علم الساعة مما اختص الله به ولم يُطلع عليه غيره، وأما العلم بما في الأرحام، فينفرد الله تعالى بعلمه، قبل أن يأمر ملك الأرحام بتخليقه وكتابته، ثم بعد ذلك قد يُطلع الله عليه من يشاء من خلقه، وأما علم النفس بما تكسبه غدًا، وبأي أرض تموت، ومتى يجيء المطر، فهذا على عمومه لا يعلمه إلا الله.

وأما الاطلاع على بعض أفراده، فإن كان بإطلاع من الله لبعض رسله كان مخصوصًا من العموم، وأما اطلاع غير الأنبياء على بعض أفراد ذلك فهو ـ كما تقدم ـ لا يُحتاج إلى استثنائه؛ لأنه لا يكون علمًا يقينًا، بل ظنًّا غالبًا، وبعضه وَهْمٌ، وبعضه حَدْسٌ وتخمين، وكل هذا ليس بعلم، فلا يحتاج إلى استثنائه مما انفرد الله بعلمه، كما تقدم. والله سبحانه وتعالى أعلم»(١).

ومثل هذه التوقعات لا بأس بها إذا جاءت من متخصِّصين من أهل العلم التجريبي، وهي لا تعني ادعاء الغيب، ولا معرفة ما وراء الظاهر، وإنما هي نوع من استشراف المستقبل، والتنبؤ به المبني على مقدمات تفضي إلى نتائج معلومة، وأسباب تُوصل إلى مُسَبَّبَاتٍ محددة، وتتبُّع دقيق لسنن محكمة جعلها الله في هذا الكون، عَلِمها من عَلِمها وجهلها من جهلها.

(١) «فتح الباري» (٦/ ٢٦٥ ـ ٢٦٦) بتصرف.

وقد جاء في «فتوى اللجنة الدائمة للبحوث والإفتاء في المملكة العربية السعودية» عن توقع الأحوال الجوية ما نصه: «معرفةُ الطقس أو توقع هبوبِ رياح أو عواصفَ أو توقع نشوءِ سحابٍ أو نزولِ مطرٍ في جهةٍ مبنيٌّ على معرفة سنن الله الكونية، فقد يحصل ظن لا علم لمن كان لديه خبرة بهذه السنن عن طريق نظريات علمية، أو تجارب عادية عامة، فيتوقع ذلك ويخبر به عن ظن لا علم»(١).

وقد يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الروم: ٤٦]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٧]، أي: مبشرةً للناس باقتراب الغيث، وذلك بهبوبها، فيدخل عليهم بها سرورًا، والمراد بالرحمة هنا: المطر(٢).

ومن العقل وحسن التدبير: اتخاذ الأسباب لاتقاء الأخطار التي قد تحدث من ظاهرة كونية مستقلة يقدرها الله تعالى، ومثل هذه التوقعات قد ينتفع الناس بها في حياتهم، وبها يتفادون أخطارًا قد تحيط بهم ويتقون آفاتٍ قد تصيبهم.

لكن لا ينبغي التعبير عن هذه التوقعات بلغة القطع والتأكيد، مهما كانت عليه أدوات الرصد وأجهزة المتابعة من الدقة والإتقان، فهذا خلاف الأدب مع الله تعالى، والواجب ربط ذلك كله بمشيئة الله تعالى وإرادته، وإذا كان الله تعالى قد وَجَّهَنَا إلى هذا الأدب فيما نقدر عليه من أفعالنا وتصرُّفاتنا، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ

(١) «فتاوى اللجنة الدائمة» (٨/ ٣٢٣).

(٢) انظر: «التحرير والتنوير» (القسم الثاني من الجزء الثامن/ ١٨٠)، وانظر: «أحكام الشتاء في السنة المطهرة» لعلي الحلبي ص(١٠).

غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤]، وقال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]، فكيف بأفعاله الخاصة التي لا نملك منها كثيرًا ولا قليلًا، ولا كبيرًا ولا صغيرًا ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الزمر: ٦٣].

وعلينا أن نتذكر أن كل ما في الكون من تقلبات وتغيرات، وما يجري في جو السماء من سحائبَ غادياتٍ أو رائحاتٍ، وما يكون من رياح أو عواصف أو غبار، كل ذلك مُسَيَّر بأمر الله تعالى القوي القادر العالم بما في الكون الذي لا يخفى عليه شيء مما أظلم عليه الليل وأشرق عليه النهار ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

والذي تنبغي مراعاته تجاه هذه التوقعات نجمله في النقاط الآتية:

١ ـ أن هذه التوقعات وإن عظمت في الأعين، وكبر عند بعض الناس قدرها، فهي لا تخرج عما قرره الحكيم الخبير في كتابه حيث قال سبحانه: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]، وقوله: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

٢ ـ ألا تعطى هذه الأخبار والتوقعات صفة الجزم واليقين، فهي عرضة للخطأ والصواب، لأنها مبنية على رؤية ومشاهدة لمظاهر في هذا الكون قد يتغير ـ بقدرة الله تعالى ـ مسارها، ومن ثم ينهدم ما بُني عليها من توقعات.

٣ ـ أن هذه التوقعات تقوم في مجملها على التقاط صور الغيوم وسمكها مع معرفة حركة الرياح وسرعتها واتجاهها، وهي توقعات

تختلف نسبة الصدق فيها، وقد ذكر بعض كبار المختصين بالأرصاد الجوية أن الدراسات العلمية الحديثة تشير إلى أن احتمال الصدق فيها لمدة يوم أو يومين قد تصل إلى ٩٠٪، وإن كانت المدة من خمسة أيام إلى سبعة تهبط إلى نحو ٦٠٪[(١)].

٤ ـ الحذر من أن يكون قصارى ما يفعله الناس هو تناقل الأخبار أو إرسال الصور دون تفكر أو اعتبار أو تأمل بما في ذلك من المعاني الجليلة والحِكم والأسرار التي أشار إليها القرآن، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧].

٥ ـ الحذر من أن يصل تعلُّق الناس بالأسباب إلى أن يصبح هذا التعلق هو الحاكم على تصرفاتهم والمتحكم فيها، حتى يكادوا ينسون الخالق المسبب سبحانه، ولذا ينبغي لأهل هذه النظريات والأرصاد الجوية ربط توقعاتهم بعلم الله تعالى وقدرته وحكمته ورحمته بخلقه، كما تقدم أول الكتاب.

٦ ـ أن هذه التوقعات والتحليلات الجوية لا يمكن أن تزحزح قدر

(١) انظر: «أحكام الشتاء في السنة المطهرة» ص(٩ ـ ١٠).

أَنمُلة من المقادير الإلهية، ولا أن تغير محكمًا من الأحكام الربانية، وليس نشر الأخبار هو الذي يجلب الأمطار أو يدفع الغبار، ولا ترداد التحذير هو الذي يحمي من سيء الآثار، ولكن الواجب علينا جميعًا هو الدعاء والتوبة والاستغفار، وقد تقدم شيء من ذلك. والله أعلم[(١)].

❁ ❁ ❁

(١) انظر: «العواصف الرعدية» ص(١٨٠) وقد استفدت في هذا الموضوع من خطبة الجمعة بتاريخ ١٤٣٨/١/٢٥هـ المأخوذة من ملتقى الخطباء، مع صياغة الكلام وبعض الإضافات التي زدتها من بعض المراجع، وحذف ما يستغنى عنه.

خاتمـــة

في ما تنبغي مراعاته في رحلات فصل الشتاء

تكثر الرحلات البرية في فصل الشتاء، سواء أكانت قريبة أم بعيدة، ولا سيما بعد هطول الأمطار، وجريان الأودية، أو ظهور نباتات الشتاء والربيع، ومثل هذه الرحلات لها ضوابط وآداب قد يغفل عنها كثير من الناس، تجمل مراعاتها ويحسن الأخذ بها، لما فيها من الفوائد والمصالح العظيمة على الفرد والمجتمع التي لا تتضح إلا بعد تطبيقها، وجَنْيِ ثمراتها، وقد جاءت الشريعة بالحث على الأخذ بالأسباب، والاحتياط في الأسفار، وكل ما فيه مصلحة عامة أو خاصة، واستقصاءُ هذه الآداب يطول، لذا سأكتفي بذكر ما أرى أهميته:

١ ـ ينبغي للرفقة إذا سافروا أو خرجوا في نزهة أن يؤمِّروا واحدًا منهم؛ لأن الآراء تختلف في تعيين المنازل والطرق ومصالح السفر، وينبغي أن يكون الأمير ذا رأي وعلم بأحوال السفر، وأن يكون حسن الأخلاق، رفيقًا بالأصحاب، سريعًا إلى الإيثار وطلب الموافقة، يتولى قيادتهم بمشورتهم، لينتظم أمرهم، وتتوفر راحتهم، وعليهم طاعته فيما فيه مصلحة ما لم يخالف الشرع، وقد ورد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمِّروا أحدهم**»[(١)]،

(١) رواه أبو داود (٢٦٠٨)، وقد اختلف في وصله وإرساله، ورجح أبو حاتم وأبو زرعة والدارقطني إرساله. انظر: «علل ابن أبي حاتم» (٢٢٥)، «علل الدارقطني» (١٧٩٥). وفي معناه حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند أبي داود ـ أيضًا ـ (٢٦٠٩) وفيه هذا الاختلاف.

والظاهر أنه أمر استحباب وإرشاد، وليس للوجوب، على قاعدة الجمهور في مجيء صيغة الأمر في باب الآداب.

٢ ـ الحرص على تجهيز الأغراض التي يُحتاج إليها في الرحلة، والعناية بما يتعلق بفصل الشتاء من الخيام والأروقة ونحوها مما يقي من البرد أو المطر أو الريح، إذا كانت الرحلة أكثر من يوم، وإن كانت الرحلة بعيدة فالأحسن كتابة ما يُحتاج إليه، وإذا كانوا رفقة فالأفضل أن يتكفل بالأغراض شخص واحد، لئلا ينقص شيء من باب اتكال شخص على آخر.

٣ ـ العناية بحمل الماء الكافي، ولا سيما إذا كان مع الإنسان أهله وأولاده، مع الاقتصاد في استعمال الماء والحذر من الإسراف، فإنه إذا كان محرمًا في كل موضع فهو في السفر أو النزهة آكد، لقلة الماء أو مشقة توفيره.

٤ ـ أن يحذر المشي في طريق غير واضح، أو تكون الرؤية فيه ضعيفة أو معدومة، كالسير في جَوٍّ مُغَطًّى بالضباب أو الغبار، أو في جو مطير مطره شديد، بحيث لا يستطيع رؤية ما أمامه إلا بجهد.

٥ ـ إذا اختار الإنسان منزلًا في البرية فلا يغفل عن دعاء المنزل: «**أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق**»، فإنه لا يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك[١]، ويحرص على الأذكار والأوراد المأثورة، فإنها الحصن الحصين بإذن الله تعالى.

٦ ـ أن يحذر النزول إلى الأماكن المنخفضة، أو الأودية أو مجامع المياه بسيارته وقت جريانها أو تجمع السيول فيها، ظنًّا منه أنه

(١) رواه مسلم (٢٧٠٨)، من حديث خولة بنت حكيم رضي الله عنها.

يتجاوزها، وهذا تعريض بالنفوس والأموال إلى التهلكة والتلف، ويعظم الأمر إذا كان معه نساء أو أطفال، فكم فقدت بهذا الصنيع من نفوس، وفُقِدَ من عزيز، وتلفت من أموال!

٧ ـ على الإنسان أن يحتاط ـ ومن معه ـ للشتاء ويحذر من التفريط في حفظ البدن من البرد، فإنه سريع دخوله بعيد خروجه، وعلى هذا فعليهم أن يستعدوا بالملابس الداخلية والأغطية ووسائل التدفئة، ومكافحة البرد، ومن ذلك وجود المشروبات الدافئة كالزنجبيل، ويتأكد الحليب والفلفل الأسود، فلهما أثر عجيب في الحماية من البرد أو رفعه إذا دخل البدن.

وإذا كانت التدفئة بإيقاد النار في مكان مغلق، فيجب أن يكون فيه نوافذ، وألا ينام الإنسان بقرب النار ولو في البر، بل يجب إطفاؤها؛ لئلا تنقلها الريح، وأن يحذر الخروج المفاجئ من مكان دافئ إلى مكان بارد، فإن هذا سبب للإصابة ببعض العوارض كالنزلة والزكام، ونحو ذلك.

٨ ـ الاقتصاد في الاحتطاب وإيقاد النار، فيحتطب الإنسان للطبخ والتدفئة بقدر ما يكفي، وعليه أن يحذر الإسراف.

٩ ـ إذا تعطلت سيارتك وخشيت السيول فاتركها، والجأ لأقرب مكان آمن، وساعد الآخرين بالصفة التي لا تشكل خطورة على حياتك وحياتهم.

١٠ ـ وجوب إغلاق الهاتف النقال، والحذر من المكالمات، أو تصوير الأمطار أثناء نزول الأمطار وسماع الصواعق ورؤية البرق، لما يخشى من آثار وخيمة، تحدَّث عنها المختصُّون.

١١ ـ إذا حصل للإنسان في رحلته عَطَلٌ للسيارة أو ضياع أو تعثر في رمال أو نحوها، فينبغي اللجوء إلى الله تعالى ودعاؤه واستغفاره، مع

سعة الصدر وحَلِّ الإشكال بهدوء، والتشاور مع الرفقة، فإن تعسَّر الأمر فينبغي الاتصال بأقرب الأشخاص مع وضع علامات له يهتدي بها، إذا لم يوجد شيء من الأجهزة الحديثة يقوم بالمهمة.

١٢ ـ إذا خرج الإنسان بأهله في رحلة فإن عليه أن يكون بعيدًا عن الطريق، وأن يختار المكان المناسب للنزول الذي يستر أهله من رؤية الغادي والرائح، وأن يكون معه وسائل للتستر عن الناس كالأروقة وما في معناها، وكذا ما يقي من المطر أو الرياح.

١٣ ـ أن يختار في الشتاء الأماكن الدافئة البعيدة عن مهب الرياح، وأن يكون النزول وقت الأمطار فوق الرمال، لأنها تشتد مع المطر ويمكن السير فيها بسهولة، ولا يتأذى الإنسان ومن معه بالنزول فيها، وعليه أن يحذر النزول في الأماكن المنخفضة وتجمعات المياه ومجاري السيول، كما تقدم.

١٤ ـ يجب إبعاد الأطفال عن مجاري الأودية والمستنقعات، ومنع من يحاول السباحة في مياه الأمطار، وإفهامه أن هذا أمر خَطِرٌ يهدد حياته.

١٥ ـ أن يحذر المبيت في مجاري السيول أو في الأودية في الأوقات التي يغلب فيها نزول المطر، غير مبالٍ بالعاقبة، فربما يسيل الوادي من مطر بعيد وهو نائم فيه، فتحصل الكارثة، أو يُطَوِّقُهُ الماء فلا يستطيع الخروج.

١٦ ـ المحافظة على الصلاة وأداؤها براحة واطمئنان(١)، والحرص

(١) ورد في فضل الصلاة في الفلاة حديث أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الصلاة في جماعة تعدل خمس وعشرين صلاة، فإذا صلاها في فلاةٍ فأتم ركوعها وسجودها بلغت خمسين صلاة**». =

على أدائها في أوقاتها؛ لأن الله تعالى أمر بإقامتها في آيات كثيرة، وإقامتُها: المحافظةُ على شروطها ومواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها وخشوعها[١]، وينبغي الحرص التام على اتفاق الأصحاب على مسألة القصر أو الجمع، وأن يحذروا الاختلاف[٢]، كما ينبغي الحرص على الأذان في وقته، ورفع الصوت به، «**فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جنٌّ ولا إنسٌ ولا شيءٌ إلا شهد له يوم القيامة**»[٣].

كذلك الاجتهاد في تحديد القبلة، والغالب في هذا الزمان ـ من فضل الله تعالى ـ سهولة الأمر، لوجود الأجهزة التي تحدد القبلة، فإذا اجتهد في تحديد القبلة، ثم استبان له بعد ما صلَّى أنه صلَّى لغير القبلة، فإن صلاته صحيحة وليس عليه إعادة، سواء علم بالخطأ في الوقت أو بعده[٤].

١٧ ـ أن يتجنب الإنسان مع أهله وأولاده أو زملائه أذية المجاورين من المتنزهين برفع الأصوات وتقذير المكان، أو مضايقتهم في مكان نزولهم.

١٨ ـ أن يحذر المتنزِّهون من ارتكاب المخالفات الشرعية أو المجاهرة بالمعاصي واللهو المحرم، والتبرج، وتساهل النساء في

= ولو صح هذا الحديث فهو محمول على من صلى في فلاة حسب طاقته من غير ترك الجماعة مع إمكانها، لكنه حديث منكر، من رواية هلال بن ميمون، عن عطاء بن أبي يزيد، عن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعًا. رواه أبو داود (٥٦٠)، وقد تفرد بهذه الزيادة هلال بن ميمون، وهو متكلم فيه مع قلة روايته، وهذه زيادة لم يتابع عليها لا من حديث أبي سعيد ولا غيره، وقد أخرج البخاري حديث أبي سعيد (٦٤٦) وأعرض عن حديث هلال هذا؛ لما اشتمل عليه من هذه الزيادة التي تفرد بها عن الثقات. انظر: «فضل الرحيم الودود» (٦/ ٣٥٤).

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ٢٦١).

(٢) انظر: «البدر السافر في أحكام صلاة المسافر» لراقمه ص(١٩١).

(٣) رواه البخاري (٦٠٩)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، ورواه مسلم (٢٧٠٨)، من حديث خولة بنت حكيم رضي الله عنها.

(٤) انظر: «منحة العلام» (٢/ ٣٣٩).

الحجاب، أو القرب من تجمعات الرجال، أو الاشتغال بالتصوير.

١٩ ـ إذا كانت الرحلة البرية لأكثر من يوم وفيها مبيت، فقد يحصل احتلام أثناء الليل ـ لا سيما من بعض الشباب ـ والأصل أنه يجب عليه أن يغتسل ولو تأذى ببرودة الماء، لأن الغالب في أيام الشتاء أن يكون الماء باردًا ويتأذى الإنسان من برودته، بشرط ألا يخشى الضرر، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟ۚ﴾ [المائدة: ٦]، فإن كانت الليلة باردة واستطاع أن يسخن الماء وأن يغتسل في مكان مناسب يتقي به البرد وجب عليه ذلك؛ لعموم قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وقوله ﷺ: «**إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم**»[(١)]، وإن لم يمكن تسخين الماء لعدم وجود ما يُسخَّنُ به، أو لا يوجد مكان مناسب يمكن أن يغتسل فيه ويخشى الضرر لو اغتسل بالماء البارد، جاز له أن يتيمم عن الجنابة ويصلي؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

فإذا تيمم عن الجنابة بقي طاهرًا، ولا يعيد تيمُّمه عن الجنابة لكل وقت، وإنما يتيمم للحدث الأصغر إلا أن يحصل له جنابة أخرى، فإذا تيسر له الغسل وجب عليه أن يغتسل، لما ورد في صحيح البخاري[(٢)] من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه الطويل وفيه: فلما انفتل النبي ﷺ من صلاته إذا هو برجل معتزل لم يصلِّ مع القوم، قال: «**ما منعك يا فلان**

(١) رواه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧).
(٢) (٣٤٤).

أن تصلي مع القوم؟» قال: أصابتني جنابة ولا ماء. قال: «**عليك بالصعيد فإنه يكفيك**»، وجاء في الحديث أيضًا: أن النبي ﷺ أعطى الذي أصابته الجنابة إناءً من ماء، وقال: «**اذهب فأفرغه عليك**».

ولا يجوز تأخير صلاة الفجر حتى تطلع الشمس ويسخن الماء، بل الواجب عليه أن يصلي في الوقت بحسب الإمكان؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ [النساء: ١٠٣]، وما عَجَز عنه من شروط الصلاة سقط عنه.

٢٠ ـ الحرص على نظافة المكان وتركه كما كان بقدر الإمكان، والحذر من رمي المخلفات أو تركها تنتشر في المكان وتبعثرها الرياح؛ لما في ذلك من أذية الناس بالتنجيس والاستقذار والنتن، والتسبب في نشر الأمراض، وهو مظهر سيء منافٍ لتعاليم الإسلام الداعية إلى النظافة، ويتم تنظيف المكان بجمع المخلفات في كيس ووضعها في أقرب حاوية يمر بها في طريقه إلى البلد، وأما إحراقها أو دفنها فهذا لا ينبغي؛ لما له من الآثار.

كذلك ينبغي الحذر من التخلي فيما يستظل به الناس من شجرةٍ أو جبلٍ أو نحوهما مما ينتفع به، وكذا الأماكن التي يتردد إليها الناس كالمتنزَّهات والحدائق وأماكن الاستراحة التي قد توجد على بعض الطرق الطويلة.

٢١ ـ إذا كان في الرحلة رفقة معهم سيارتان فأكثر، فإن من الأدب والمروءة ومراعاة حق الرفقة أن يسيروا معًا بحيث يرى بعضهم بعضًا طوال وقت السير، وإذا توقف أحدهم عند محطة وقود أو تموينات أو دورة مياه أو شبه ذلك انتظره الآخر، فإنه أحرى بأن ينتظم الشمل، ويأمنوا التفرق أو الضياع أو الاختلاف الذي من آثاره التعب والمشقة، مما قد يُحَوِّلُ سفر المتعة ورحلة الأنس إلى ضدها.

وعليهم في حال الرجوع إلى البلد انتظار بعضهم، بحيث يسيرون معًا حتى يدخلوا البلد، ويتأكد هذا إذا كان معهم أو مع بعضهم نسوة وأطفال؛ لأن الإنسان لا يدري ما يعرض له في حال رجوعه، وقد يُقَدَّرُ له ما يمنعه من مواصلة السير، فيحصل له من التعب ما قد يؤثر على ما تَمَّ في هذه الرحلة من الأنس.

وإلى هنا تم ما يسر الله تعالى كتابته في هذا الموضوع، فأسأل الله تعالى الكريم ربَّ العرش العظيم أن يكتب لي الأجر على ما بذلت فيه من جهد ووقت، وأن يجعله ذخيرة لي يوم المعاد، كما أسأله أن يثيب من ساعدني عليه بكتابة أو إفادة أو مراجعة، إنه سميع قريب مجيب. والحمد لله ربِّ العالمين.

أهم المراجع

أولًا: كتب التفسير

١ ـ أحكام القرآن. لأبي بكر محمد بن عبد الله، المعروف بابن العربي، تحقيق: علي محمد البجاوي، الناشر: دار الفكر، الطبعة الثانية.

٢ ـ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. للشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار الجكني، الناشر: عالم الكتب، بيروت.

٣ ـ تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم). للحافظ أبي الفداء إسماعيل عماد الدين بن عمر بن كثير، تحقيق: أ. د. حكمت بن بشير بن ياسين، دار ابن الجوزي.

٤ ـ تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن). لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الثالثة (١٣٨٨هـ).

٥ ـ تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن). للقرطبي، أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، تصحيح: أحمد عبد العليم البردوني، الطبعة الثانية، وقد أرجع إلى طبعة دار الرسالة.

٦ ـ تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان. عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي، تحقيق: عبد الرحمٰن بن معلا اللويحق، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى (١٤٢٠هـ).

٧ ـ فتح القدير. للشوكاني، محمد بن علي، الناشر: مطبعة ومكتبة عيسى الحلبي.

ثانيًا: كتب الحديث الشريف

٨ ـ أحاديث الشتاء. للعلامة جلال الدين عبد الرحمٰن بن أبي بكر بن محمد السيوطي. دار المقتبس، الطبعة الأولى (١٤٣٥هـ).

٩ ـ **إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل**. للألباني، محمد ناصر الدين، إشراف: الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى (١٣٧٩هـ).

١٠ ـ **الاستذكار**. لابن عبد البر، يوسف بن عمر، تحقيق: عبد المعطي قلعجي، الناشر: مؤسسة الرسالة، دار قتيبة، دمشق ـ بيروت.

١١ ـ **تحفة الأحوذي بشرح الترمذي**. لأبي العلى، محمد بن عبد الرحمٰن المباركفوري، تصحيح: عبد الوهاب عبد اللطيف، نشر: المكتبة السلفية بالمدينة المنورة، مطبعة المعرفة، القاهرة.

١٢ ـ **التلخيص الحبير في تخريج الرافعي الكبير**. لابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني، تحقيق وتعليق: شعبان محمد إسماعيل، الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية (١٣٩٩هـ).

١٣ ـ **التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد**. لابن عبد البر، أبي عمر يوسف بن عبد الله النمري القرطبي، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، مطبعة فضالة.

١٤ ـ **تهذيب ابن القيم مع مختصر سنن أبي داود**. تحقيق: أحمد محمد شاكر، ومحمد بن حامد الفقي، الناشر: دار المعرفة، بيروت ـ لبنان (١٤٠٠هـ).

١٥ ـ **سلسلة الأحاديث الصحيحة**. لمحمد ناصر الدين الألباني، اشترك في طبعها: المكتب الإسلامي، الدار السلفية في الكويت، مكتبة المعارف في الرياض.

١٦ ـ **سلسلة الأحاديث الضعيفة**. لمحمد ناصر الدين الألباني، طبع المكتب الإسلامي، مكتبة المعارف.

١٧ ـ **سنن ابن ماجه**. لأبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: عيسى الحلبي وشركاه، القاهرة.

١٨ ـ **سنن أبي داود**. لأبي داود: سليمان بن الأشعث السجستاني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتب العصرية، صيدا ـ بيروت.

١٩ ـ **سنن الترمذي (الجامع الصحيح)**. لأبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: الدكتور بشار عواد معروف. دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية (١٩٩٨م).

٢٠ ـ **سنن الدارقطني**. للحافظ علي بن عمر الدارقطني، تحقيق وتصحيح: عبد الله هاشم اليماني المدني (١٣٨٦هـ)، وبذيله: التعليق المغني، طبع دار المحاسن، القاهرة.

٢١ ـ **السنن الكبرى**. للحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، وبذيله: الجوهر النقي. لابن التركماني، الناشر: دار الفكر، بيروت.

٢٢ ـ **سنن النسائي الصغرى (المجتبى)**. لأحمد بن شعيب النسائي، ترقيم: عبد الفتاح أبو غدة، ومعه: شرح السيوطي، وحاشية السندي، الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب، الطبعة الأولى المفهرسة، بيروت (١٤٠٦هـ).

٢٣ ـ **شرح النووي على صحيح مسلم**. لأبي زكريا، يحيى بن شرف النووي، راجعه: خليل الميس، الناشر: دار القلم، الطبعة الأولى (١٤٠٧هـ).

٢٤ ـ **صحيح ابن خزيمة**. لأبي بكر، محمد بن إسحاق بن خزيمة، تحقيق وتعليق: محمد مصطفى الأعظمي، طبع المكتب الإسلامي.

٢٥ ـ **صحيح البخاري**. لأبي عبد الله، محمد بن إسماعيل البخاري، المطبوع مع فتح الباري، بترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي.

٢٦ ـ **صحيح مسلم**. لأبي الحسن، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثانية (١٩٧٢م).

٢٧ ـ **العلل**. لابن أبي حاتم، عبد الرحمٰن بن أبي حاتم الرازي، الناشر: دار المعرفة، بيروت ـ لبنان.

٢٨ ـ **عون المعبود شرح سنن أبي داود**. لأبي الطيب، محمد شمس الحق العظيم آبادي، ضبط وتحقيق: عبد الرحمٰن محمد عثمان، ومعه: تهذيب مختصر السنن، لابن القيم، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

٢٩ ـ **فتح الباري شرح صحيح البخاري**. لابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني، حقق الأجزاء الثلاثة الأول: سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، الناشر: إدارات البحوث الإسلامية والإفتاء، بالرياض ـ مصور عن الطبعة السلفية.

٣٠ ـ **فتح الباري شرح صحيح البخاري**. لأبي الفرج، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: محمود بن شعبان ورفاقه، الناشر: مكتبة الغرباء، المدينة النبوية، الطبعة الأولى (١٤١٧هـ)، وأحيانًا طبعة دار ابن الجوزي.

٣١ ـ **الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار**. لابن أبي شيبة، أبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، تحقيق وتصحيح: عامر العمري الأعظمي، الناشر: مختار أحمد الندوي، الدار السلفية، بومباي ـ الهند.

٣٢ ـ المستدرك على الصحيحين. للحاكم أبي عبد الله، محمد بن عبد الله النيسابوري، وبذيله: تلخيص المستدرك. للذهبي، مصورة من دار الفكر، بيروت ـ لبنان.

٣٣ ـ مسند الإمام أحمد. لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل، حققه جماعة بإشراف: الدكتور عبد الله التركي، وشعيب الأرناؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة.

٣٤ ـ المصنف. للصنعاني، أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني، ومعه: كتاب الجامع. للإمام معمر بن راشد الأزدي، رواية الإمام عبد الرزاق الصنعاني، تحقيق: عبد الرحمٰن الأعظمي، الناشر: المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية (١٤٠٣هـ).

٣٥ ـ المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم. لأبي العباس، أحمد بن عمر القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو ورفاقه، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، الطبعة الأولى (١٤١٧هـ).

٣٦ ـ نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار. للشوكاني، محمد بن علي، تحقيق: محمد صبحي حلاق. دار ابن الجوزي.

ثالثًا: كتب الفقه

٣٧ ـ الاختيارات الفقهية من فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية. اختارها: العلامة الشيخ علاء الدين أبو الحسن علي محمد بن عباس البعلي، الناشر: مكتبة الرياض الحديثة بالرياض.

٣٨ ـ الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف على مذهب الإمام أحمد. للمرداوي، علاء الدين أبي الحسن علي بن سليمان، تحقيق: محمد حامد الفقي، مطبعة المحمدية، القاهرة (١٣٧٦هـ).

٣٩ ـ بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع. للكاساني، علاء الدين أبي بكر بن مسعود الكاساني الحنفي، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثانية (١٤٠٢هـ).

٤٠ ـ البيان في مذهب الإمام الشافعي. لأبي الحسين يحيى العمراني الشافعي اليمني، دار المنهاج، الطبعة الرابعة (١٤٣٥هـ).

٤١ ـ حاشية الروض المربع شرح زاد المستقنع. تأليف: عبد الرحمٰن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي، الطبعة الأولى (١٣٩٧هـ)، المطابع الأهلية للأوفست بالرياض.

٤٢ ـ **الشرح الكبير على متن المقنع**. ومعهما: الإنصاف، تحقيق: الدكتور عبد الله التركي، دار هجر، الطبعة الأولى (١٤١٦هـ).

٤٣ ـ **الشرح الممتع على زاد المستقنع**. للشيخ محمد بن صالح بن عثيمين، مؤسسة آسام للنشر، ثم دار ابن الجوزي.

٤٤ ـ **الفروع**. لابن مفلح، أبي عبد الله محمد بن مفلح، وبذيله: تصحيح الفروع للمرداوي، الناشر: عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثالثة (١٤٠٢هـ) تصوير بالأوفست، وأحيانًا طبعة مؤسسة الرسالة.

٤٥ ـ **كشاف القناع عن متن الإقناع**. للبهوتي، منصور بن يونس، تحقيق وتخريج وتوثيق: لجنة متخصصة في وزارة العدل. الطبعة الأولى (١٤٢٩هـ).

٤٦ ـ **المبسوط**. للسرخسي، شمس الدين محمد بن أحمد السرخسي، الناشر: دار المعرفة، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثالثة (١٣٩٨هـ).

٤٧ ـ **المجموع شرح المهذب**. للنووي، أبي زكريا يحيى بن شرف النووي، مع تكملته للسبكي والمطيعي، تحقيق وتعليق: محمد نجيب المطيعي، الناشر: دار الفكر.

٤٨ ـ **مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية**. لأحمد بن عبد الحليم بن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمٰن بن قاسم وابنه محمد، دار العربية للطباعة والنشر، بيروت، توزيع: رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء بالرياض، تصوير الطبعة الأولى (١٣٩٩هـ).

٤٩ ـ **مسائل الإمام أحمد**. رواية ابنه عبد الله، تحقيق: زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي.

٥٠ ـ **مسائل الإمام أحمد**. رواية أبي داود، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، مصورة عن طبعة (١٣٥٣هـ)، بعناية: محمد رشيد رضا.

٥١ ـ **مغني المحتاج**. لمحمد الشربيني الخطيب، مطبعة ومكتبة مصطفى البابي الحلبي.

٥٢ ـ **المغني على مختصر الخرقي**. لابن قدامة، أبي محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة، توزيع: وزارة الشؤون الإسلامية، المملكة العربية السعودية.

٥٣ ـ **نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج**. للرملي، محمد بن أحمد الرملي، ومعه حاشية أبي الضياء الشبراملسي، وحاشية الرشيدي، الناشر: دار الفكر.

رابعًا: كتب اللغة

٥٤ ـ أساس البلاغة. تأليف: جار الله أبي القاسم محمود عمر الزمخشري، الناشر: مطبعة دار الكتب، الطبعة الثانية.

٥٥ ـ تاج العروس. للسيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، حققه: جماعة من العلماء. مطبعة حكومة الكويت.

٥٦ ـ تهذيب اللغة. للأزهري، أبي منصور بن أحمد، تحقيق: عبد السلام هارون، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر، طبع دار القومية، القاهرة (١٣٨٤هـ).

٥٧ ـ الصحاح. للجوهري، إسماعيل بن حماد الجوهري، الناشر: دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية (١٣٩٩هـ).

٥٨ ـ لسان العرب. لابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم بن علي بن منظور، الناشر: دار صادر، بيروت.

٥٩ ـ المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي. لأحمد بن محمد بن علي الفيومي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان.

٦٠ ـ معجم مقاييس اللغة. لأبي الحسن، أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق وضبط: عبد السلام هارون، الناشر: دار الكتب العلمية، لصاحبها: إسماعيل لجفي، قم ـ إيران.

خامسًا: كتب عامة

٦١ ـ الإرشادات الطبية باللغة العربية. تأليف: محمد بن سليمان الفوزان، بدون مكان للطبعة ولا تاريخ.

٦٢ ـ الأزمنة والأمكنة. تأليف: أبي علي أحمد بن محمد بن الحسين المرزوقي، دار الكتب العلمية، (١٤١٧هـ).

٦٣ ـ الأزمنة والأنواء. لأبي إسحاق إبراهيم بن إسماعيل المعروف بابن الأجدابي، المملكة المغربية، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

٦٤ ـ الأنواء والأزمنة. عبد الله بن حسين بن عاصم الثقفي، دار الجيل بيروت، الطبعة الأولى (١٤١٦هـ).

٦٥ ـ بدائع السماء. تأليف: علي حسن موسى، الطبعة الأولى (١٤٢٨هـ).

٦٦ ـ التبيان في أيمان القرآن. للإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن قيم الجوزية، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى (١٤٢٩هـ).

٦٧ ـ **الجغرافيا النباتية للمملكة العربية السعودية**. تأليف: عبد اللطيف بن حمود النافع، الطبعة الأولى (١٤٢٥هـ).
٦٨ ـ **حلية الأولياء**. للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
٦٩ ـ **زاد المعاد في هدي خير العباد**. للإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن قيم الجوزية، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية (١٤٠١هـ).
٧٠ ـ **سرور النفس بمدارك الحواس الخمس**. لأبي العباس أحمد بن يوسف التيفاشي، هذبه: ابن منظور، وحققه: إحسان عباس. الموسوعة العربية للدراسات والنشر، بيروت (١٩٨٠م).
٧١ ـ **الطب من الكتاب والسُّنَّة**. للإمام العلامة موفق الدين البغدادي، دار الغد الجديد، الطبعة الأولى (١٤٢٩هـ).
٧٢ ـ **عجائب المخلوقات**. تأليف: زكريا بن محمد بن محمد القزويني، مطبوع بهامش حياة الحيوان الكبرى. دار الفكر بيروت.
٧٣ ـ **العواصف الرعدية**. تأليف: علي حسن موسى، الطبعة الأولى (٢٠٠٩م).
٧٤ ـ **كتاب الأزمنة**. لأبي علي محمد بن المستنير قطرب، تحقيق: الدكتور حاتم بن صالح الضامن. بدون مكان للطبعة ولا تاريخ.
٧٥ ـ **كتاب الأنواء في مواسم العرب**. لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري. بدون مكان للطبعة ولا تاريخ.
٧٦ ـ **كتاب المطر**. لأبي سعيد سعيد بن أوس الأنصاري. طبع في المطبعة الكاثوليكية، بيروت (١٩٠٥م).
٧٧ ـ **لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف**. للحافظ الفقيه أبي الفرج عبد الرحمٰن الشهير بابن رجب الحنبلي.
٧٨ ـ **الماء وأثره على الأحكام الشرعية**. تأليف: الدكتور مازن محمد عيسى بن عيسى. دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى ١٤٣٢هـ.
٧٩ ـ **مفتاح دار السعادة**. للإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن قيم الجوزية، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى (١٤٣٢هـ).

فهرس الموضوعات

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة